

آيات الله
في الكون
« تفسير الآيات الكونية بالقرآن الكريم »
د. عبد الله شحاتة
دار نهضة مصر للنشر

د. عبدالله شحاتة

آيات الله في الكون

«تفسير الآيات الكونية بالقرآن الكريم»



العنوان:

آيات الله في الكون

«تفسير الآيات الكونية بالقرآن الكريم»

تأليف:

د. عبد الله شحاتة

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 978-977-14-2681-8
رقم الإيداع: 5062 / 2004
الطبعة السابعة: يناير 2014

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938
21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

آيـــات اللـــه فـــي الكـــون

«تفسير الآيات الكونية بالقرآن الكريم»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

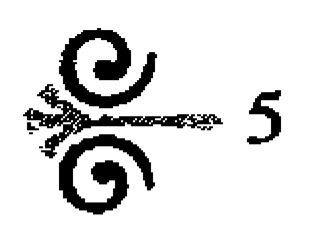
أما بعد، فهذا تفسير للآيات الكونية في القرآن الكريم، مع مدخل أو تمهيد لهذا التفسير، وقد عني القرآن الكريم بدعوة الناس إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وحثَّ الإنسان على النظر في الكون والتأمل في آياته ونواميسه ونظامه، فلله - عز وجل - كتابان، كتاب ناطق وهو القرآن الكريم، وكتاب صامت وهو هذا الكون الفسيح الذي نشاهده بالليل والنهار والغدو والآصال.

***

وقد اتجه بعض المفسرين اتجاهًا علميًّا متخصصًا في تفسير بعض الآيات العلمية والكونية، ومنهم الفخر الرازي في تفسيره الكبير فهو يتحدث طويلاً عن خلق السماء والأرض، ونظام الأفلاك وعلم الهيئة على نحو ما كان معروفًا في عصره بمناسبة كلمة مفردة تتحدث عن السماء أو الأرض.

وفي العصر الحديث سار في هذا الاتجاه الأستاذ الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره الجواهر الذي حشد فيه معلومات واسعة عن علوم



الكون والحياة وطبقات الأرض، وزين كلامه بصور متعددة لما يكتب عنه.

وفي مقابل ذلك تجد من العلماء من يحذِّر من هذا المنهج، ويعيب الاتجاه العلمي في التفسير، ويرى أن القرآن الكريم كتاب هداية، يبشر المؤمنين وينذر الكافرين، وقد أنزله الله هدى ونورًا ورحمة للعالمين.

ومن هؤلاء الإمام الشاطبي في الموافقات؛ حيث ذهب إلى أن القرآن يجب أن يفهم على نحو ما أنزله الله للعرب المخاطبين به أول مرة.

***

وهناك اتجاه وسط يرى أن القرآن الكريم كتاب هداية بالدرجة الأولى، ولكنه مع ذلك حوى عددًا من الأدلة العلمية والمعجزات الكونية، وقد أمرنا الله أن نخاطب الناس بلسانهم، وباللغة التي يفهمونها، ومن هذا البيان شرح هذه الآيات، وبيان ما تشير إليه، أو ما اشتملت عليه من إعجاز علمي أو كوني....

يقول الإمام محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر:

«يجب ألا نجر الآية إلى العلوم كي نفسرها، ولا العلوم إلى الآية، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها»[1].

وقد كتب الأستاذ المراغي مقدمة لكتاب الإسلام والطب الحديث مدح فيها المؤلف وأثنى على جهوده، ولكنه لم يوافق على مسلكه في تفسير آيات القرآن، وتحميلها ما لا تحتمله، إذ قال:

---

(1) التفسير والمفسرون 2 – 478.

«لسـت أريد من هذا – يعني ثناءه على الكتاب ومؤلفه – أن أقول: إن الكتـاب الكريم اشـتمل علـى جميع العلـوم جملة وتفصيلًا بالأسـلوب التعليمـي المعروف، بـل أريد أن أقول إنه أتى بأصـول عامـة لكل ما يهم الإنسـان معرفتـه به، ليبلـغ درجة الكمـال جسـدًا وروحًا، وتـرك الباب مفتوحًـا لأهـل الذكر مـن المشـتغلين بالعلـوم المختلفة، ليبينـوا للناس جزئياتها، بقدر ما أوتوا منها في الزمان الذي هم عائشون فيه»[1].

* * *

وبهذا المسـلك المعتدل استطاع الشيخ المراغي أن يوفق بين القرآن الكريم والعلم الحديث في تفسيره لبعض سـور القرآن الكريم تفسيرًا دينيًـا توجيهيًا يحمل أصـول التوجيه والإصلاح لنظـم الحياة وإدارتها، فكان يخاطب بتفسيره الملوك والحكام يدعوهم إلى العدل والشـورى والمسـاواة ويحثهم على مـكارم الأخلاق والعمل النافـع المفيد، ومن هـذه المدرسـة عدد مـن العلماء فـي العصـر الحديث، منهم: الأسـتاذ الشـيخ محمـود شـلتوت، والأسـتاذ الدكتـور محمـد عبـد اللـه دراز، والأسـتاذ الشـيخ محمـد المدنـي، والأسـتاذ الدكتـور محمـد البهـي، والأسـتاذ الشهيد حسن البنا، والأستاذ الشـهيد سيد قطب، وغيرهم في أنحـاء العالم الإسـلامي يحملون رسـالة القرآن ودعوته إلـى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو لون من ألوان حفظ الله لكتابه.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: 9).

---

(1) مقدمـة كتاب الإسـلام والطب الحديث، ونقلًا عن كتاب «التفسـير والمفسـرون» للشيخ الذهبي 2 – 519 الطبعة الثانية.

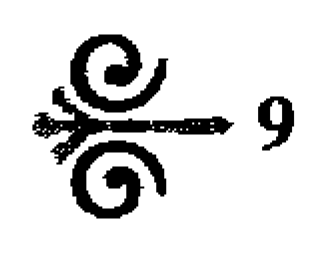


تفسير الآيات الكونية تحقيق أمنية

يقول الأستاذ حامد مصطفى:

«والواقع أن المسلمين أفادوا اليوم كثيرًا من الإقبال على العلم الحديث، ودراسة الطبيعة والفلك والرياضيات، فظهر ذلك واضحًا في دراسة القرآن وتفسيره وتأويل ما ورد فيه من الإشارة إلى قوانين الطبيعة، والنظر في مجالات الخلق وقواعد السلوك والأخلاق، ولم يجدوا نصًّا في القرآن أو السنة يأبى على المسلم الأخذ بأسباب الحضارة والعمران ونظام الحكم العادل، حتى شاع عند العلماء المتأخرين أن الإسلام دين ودولة، مستندين في ذلك إلى ما ورد في القرآن والسنة من قواعد الحكومة المدنية وقوانين السلم والحرب والثواب والعقاب، إلا أن هذا الاتجاه الجديد لم ينته إلى أسلوب معين في تفسير القرآن الكريم، وظل مقصورًا على الدراسات الفردية والأبحاث الاجتهادية والمحاضرات، لا يكاد يجمعه كتاب يدخل في كتب التفسير وعلوم القرآن. وذلك كثير جدًّا لا يكاد يحصره عد ولا ترتيب، مثلما كتب العقاد، وعلماء الأزهر، وكثير من الباحثين.

ومما يجب الاعتراف به في مجال تفسير القرآن أنه من بين من نسميهم بالمستشرقين من علماء الغرب وكتابه - من أفاد كثيرًا في



طريقة دراسة القرآن وأسلوب تفسيره، ذلك أن المنصفين من بين هؤلاء قد تجردوا من التعصب الذميم فأقبلوا على دراسة علوم الإسلام بالأسلوب الذي تعلموه في الجامعات ومعاهد العلم، وانكبوا على دراسة الإسلام دراسة جديدة، لأنهم وجدوا فيه ما يستحق البحث وتمحيص الحقائق التي شوهها الكُتَّاب المتعصبون، أو الذين درسوا الإسلام دراسة سطحية غير وافية.

يقول دينسون روس E. Denison Ross في مقدمته لترجمة الأستاذ جورج سيل، القرآن الكريم: لقد كانت المعارف التي يملكها أغلب الأوروبيين عن الإسلام وعلى مدى عصور طويلة مستمدة مما وضعه المسيحيون المتعصبون، وكان من شأنها نشر مثالب فاحشة عن الإسلام، فما كان حسنًا في الإسلام كان حظه الإهمال وما كان سيئًا في نظر الغربيين بولغ فيه أو ناله التشويه(1).

وقد اطلعت على جزء من كتاب لعالم فرنسي نشرته مجلة آفاق العراقية في عددها الأول من سنة 1977، درس فيه القرآن الكريم دراسة علمية (فتبين له أن كل ما ورد فيه من آيات وإشارات في علم الفلك والحيوان والنبات والتناسل البشري يوافق تمام الموافقة معطيات المعارف العصرية التي كانت متداولة في عصر النزول، ويخلص من ذلك إلى أن القرآن الكريم كتاب أوحى به الله تعالى إلى محمد، وأنه كتاب تقصر عقول البشر عن صنعه) والمؤلف هو الدكتور موريس بوكاي.

La Bibe, Le Coran et Lascience-Maurice Bacaille.

---

(1) ص 711.

وقد جاء هذا العالم الطبيب على نصوص القرآن في مادة العلم كالفلك وعالم السماء وعالم الحيوان والنبات وأصل الخلق والتناسل البشري، وما إلى ذلك من المبادئ العلمية، وقال: «إن القرآن لا يهدف كما هو معلوم إلى إثبات بعض النواميس التي تتحكم في الكون؛ ذلك أن مقاصده الجوهرية دينية، وهو إذ يتحدث عن القدرة الإلهية فإنه يدعو الناس إلى التدبر في ملكوته، وفيما أبدعه من أكوان. وتتخلل هذه الدعوة الإلهية إشارات إلى وقائع يمكن أن يدركها البشر بالملاحظة، أو قوانين سنها الله بقدرته، وجعل نظام العالم خاضعًا لها، وذلك في مجال علوم الطبيعة، أو فيما يتصل بالإنسان نفسه، وبعض هذه الإشارات لا يعسر فهمه، إلا أن البعض الآخر لا يمكن إدراك معناه إلا إذا توافرت المعارف العلمية الضرورية لذلك؛ وهذا يعني أن إنسان القرون الماضية لم يكن في مقدوره أن يفقه من تلك الإشارات إلا معناها الظاهري، وذلك ما جعله في بعض الأحوال يستخلص نتائج غير صحيحة بسبب نقصان علمه في عصره»، وفي هذا التقرير يبرر القول بأن القرآن يحتوي على المادة العلمية الضرورية للإنسان بوصفه كائنًا عاقلاً مزودًا بآلة الفهم والتدبر التي تعينه على أن ينهض بالمسئولية التي كلفه الله بها بوصفه مركز هذا العالم(1).

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ (الأحزاب: 72).

---

(1) من مقال بعنوان: الجديد في تفسير القرآن الكريم، بقلم: حامد مصطفى، نشرته مجلة الرسالة الإسلامية العراقية العدد 129 السنة 12، وقد طبع كتاب موريس بوكاي أربع طبعات بالفرنسية، وترجمه المؤلف إلى الإنجليزية، ثم ترجم إلى اللغة العربية وطبعته دار المعارف بالقاهرة تحت عنوان: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم. (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) وسنرجع إليه فيما بعد إن شاء الله.

فصلة من كتاب

عرضت على الدكتور أحمد الكبيسي رئيس قسم الدراسات الإسلامية فصلة تتحدث عن الإعجاز العلمي للقرآن الكريم فاستحسن أن نمهد بها للحديث عن تفسير الآيات الكونية، وها هي بين يديك من كتاب علوم التفسير للمؤلف:

العلم في القرآن:

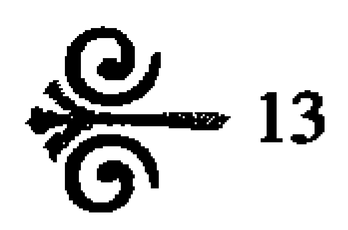
دعا القرآن إلى العلم في أول آيات تنزلت منه، وأقسم الله بالقلم – وهو أول أداة في سبيل تحصيل العلم – فقال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (القلم: 1).

كما أشاد القرآن بمكانة العلم والعلماء، فقال سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ (العنكبوت: 49).

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ (آل عمران: 18).

وقد خاطب القرآن الكريم ذوي العقول الراجحة، ووجه الحديث إلى أهل الخبرة والمعرفة فقال سبحانه:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (آل عمران: 190).



وقال عز شأنه: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الجاثية: 3 – 5).

وهكذا يفصل كتاب الله في مراحل الوحي المختلفة المقصود بالعلم، وما انقسم إليه في عصرنا هذا من فروع وتخصصات، مثل الفلك والفيزياء والكيمياء والأرصاد والنبات والحيوان وطبقات الأرض، ونحوها.. تلك العلوم الأساسية التي بازدهارها تزداد الشعوب درجات في البأس والقوة، ودرجات في الإيمان والتقرب من الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر: 28).

لقد تعرض القرآن في آيات كثيرة منه – نحو سبعمائة وخمسين آية – إلى مسائل هي من صميم العلم. وذكر جانبًا من الحقائق العلمية كقضايا عامة، ودخل في تفاصيل بعض الحقائق الأخرى، وبذلك نبه الأذهان إلى أهمية البحث، وإعمال النظر والفكر وبتلك الدفعة الكبرى ألف العرب الموسوعات الشاملة في مختلف فروع العلم والمعرفة، فكتب ابن سينا نحو 266 كتابًا في علوم الطب والفلسفة والمنطق والفلك والرياضة والفيزياء والنبات والحيوان... إلخ، وألف ابن الهيثم نحو 200 كتاب، منها كتاب البصريات الذي لقي رواجًا بعد تحقيقه في عصرنا هذا، وصنف البيروني نحو 176 مخطوطًا على مستوى رفيع، منها ما عالج فيه العديد من المسائل الرياضية والفلكية الحديثة، وألف الجاحظ ما يربو على 350 كتابًا ورسالة في الأدب والشعر مما تفخر به المكتبة العربية.

وفي مجال الرياضيات والحساب وضع العرب أساس الكسر العشري، واستخدموا الصفر على يد جمشيد، وتعتبر هذه الأعمال أهم خطوة تمت في سبيل ارتقاء العلوم الرياضية، والعجيب أن القرآن الكريم يأخذ بالحساب العشري، وذلك في العديد من الآيات التي يستخدم فيها العدد مثل قوله تعالى:

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ (الأنعام: 160).

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنفال: 65).

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ (هود: 13).

﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (القدر: 3).

عجز الزمان عن إبطال شيء من القرآن:

إذا تأملت كلمات القرآن، وأجلت بصرك بين سطوره، وجدت أنه يشتمل على بيان كثير من آيات الله تعالى في جميع أنواع المخلوقات، من الجماد والنبات والحيوان والإنسان، ويصف خلق السموات وشمسها وقمرها ونجومها، والأرض والهواء والسحاب، والماء من بحار وأنهار وعيون وينابيع، وفيه تفصيل لكثير من أخبار الأمم، وبيان لطريق التشريع السوي الأمثل. وقد حفظ ذلك كله فيه بكلمه وحروفه منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، ثم عجزت هذه القرون التي ارتقت فيها جميع العلوم والفنون أن تنقض بناء آية أو تبطل حكمًا من أحكامه أو تكذب خبرًا من

أخباره. وهي التي جعلت فلسفة اليونان دكًّا، ونسخت شرائع الأمم نسخًا، وتركت سائر علوم الأوائل قاعًا صفصفًا، ووضعت لأخبار التاريخ قواعد فلسفية، ورجعت في تحقيقها إلى ما عثر عليه المنقبون من الآثار العادية، وحكمت فيها أصول العمران وسنن الاجتماع، بحيث لم يتبق لعلماء الأوائل كتاب غير منقوض، وظلت أخبار القرآن وتشريعاته وعلومه وفنونه خالدة باقية، وذلك سر من أسرار الإعجاز في القرآن فإن الله قد تكفل بحفظه وخلوده، فقال سبحانه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: 9).

القرآن والعلم الحديث :

من إعجاز القرآن الكريم إشارته إلى نشأة علوم حديثة لم يعرفها السابقون، ولكن لفت أنظارهم إليها، كما وجه أبصارهم إلى دراسة الكون، وتأمل ظواهره، والإحاطة بآيات الله فيه، وقد حملت آيات القرآن بذور هذا التقدم العلمي وأرشدت إليه، وفكت مغاليقه، وتركت للعقل البشري بعد ذلك استكمال رسالته حتى يتحقق من صواب نظريته أو خطئها.

قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: 53).

وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع، وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية، وبسطوا كل ذلك بسطًا في مواضعه، من ذلك أن الصعود إلى أعلى يلزمه حتمًا ضيق

الصدر، أي الاختناق بسبب نقص الأكسجين، وهذا يفسر لنا قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ (الأنعام: 125).

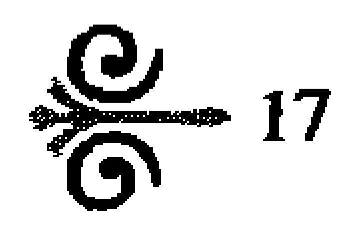
ومن الثابت أن للأرض جاذبية، وللأفلاك الأخرى كالشمس والقمر جاذبية ويحتاج الإنسان إلى سرعة جبارة ليندفع في الفضاء متخلصًا من جاذبية الأفلاك، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ (الرحمن: 33).

وما هذا السلطان إلا سلطان العلم وهو أقوى ما حصل عليه الإنسان وأعظم ما منح، وبه ملك زمام الأرض والسماء.

ويقول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ (الفرقان: 61).

والبروج مجموعات النجوم المعروفة بالدلو والحوت والحمل والثور والجوزاء والأسد والسرطان والعذراء والميزان والعقرب والقوس والجدي.

أما السراج فهو الشمس المضيئة، والإعجاز هنا إشارة القرآن إلى أن وظيفة القمر هي مجرد التنوير برد ضوء الشمس الساقط عليه، أما الشمس فهي مصدر الطاقات التي ترسلها عبر الفضاء الكوني كما يرسل السراج المتقد الضوء والحرارة.



قال تعالى في: (سورة نوح: 16) ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

وفي (سورة النبأ: 13): ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾.

وقطر الشمس أكبر من قطر الأرض مائة مرة، وتبلغ درجة حرارة سطحها من 6000 درجة مطلقة إلى 10 ملايين درجة.

وتمدنا الشمس بكافة أنواع الطاقات التي تشرق بها الأرض، وتزدهر الحياة في كنفها، ويشير القرآن الكريم إلى تغير تلك الطاقات بتغير الشهور والمواسم حتى يعم النفع ولا يمل الناس من حر دائم أو برد مستمر.

يقول سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (الفرقان: 45).

كما يشير القرآن إلى بعض الظواهر الفلكية في تحديد مسار الشمس فهي تجري ومعها سائر أجرام مجموعتها بسرعة تبلغ عدة مئات من الأميال في الثانية.

ورغم سير الشمس المستمر، فإنها لا تتخلف عن وظيفتها، ولا تظهر في غير أوانها، كما أن للقمر مداره ومنزلته وفلكه الذي يسبح فيه، وقد قدر الله كل ذلك بنظام بديع، وتقدير محكم لايختل ولا يضطرب، وفي إعجاز رائع وأسلوب حكيم ينطق القرآن بهذه الظاهرة، فيقول سبحانه: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس: 38 - 40).

القرآن وعلوم الفضاء:

أشار القرآن إلى أسفار الفضاء، وذكر أن أجرام السماء تظل تسبح على الدوام إلى ما شاء الله، حيث لا يوجد في الفضاء الكوني ما يعوق حركتها، أو يغير من سرعتها، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (الأنبياء: 33).

ومن العجيب أن يذكر القرآن أسفار الفضاء كلها على أنها تتم في مسارات منحنية، والحقيقة أن الفضاء لايعرف الخط المستقيم، انظر إلى قوله تعالى في (سورة المعارج: 4): ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾.

وفي (سورة سبأ: 2): ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾.

وفي (سورة الحجر: 14): ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾.

وحين انفتح أمام الإنسان باب الوصول إلى القمر، ورحل إليه مرة بعد أخرى رأى نفسه ينطلق في مسارات منحنية أو متعرجة، ولا يسير في خطوط مستقيمة، وعندما صعد رواد الفضاء فوق جو الأرض، نظروا إلى الأرض فرأوها قبة زرقاء معلقة في الفضاء، وأصبح في مقدورهم تمييز الخط الفاصل بين الليل والنهار حول محورها، ولقد أشار القرآن إلى هذه الحقائق بأسلوبه المعجز، وبيانه الحكيم، قال تعالى في (سورة الزمر: 5): ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ ﴾.

وفي (سورة النور: 44): ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾.

وقد أشار القرآن إلى أهمية الجبال في حفظ توازن الأرض، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ (النحل : 15).

وقوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (النبأ: 6 - 7).

وثبت علميًا أن قشرة الأرض ميزان حساس، فكل مكان فيه هو كفة متوازنة مع كل مكان آخر، فإذا تغير الثقل على مكان ما اضطرب هذا التوازن ونجمت عن ذلك هزات الزلازل، وتصاعدت القشرة اليابسة لإعادة هذا التوازن، والجبال بمقتضى عوامل التعرية تزول ببطء شديد، ولعل هذا ما تشير إليه الآية الكريمة:

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النمل: 88).

ومن الإعجاز العلمي للقرآن ما كشف عنه العلم من تلاقح النبات، وأنه أزواج، قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يس: 36).

وقال سبحانه: ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ (طه: 53).

﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ (الرعد: 3).

وقال عز شأنه: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ (الحجر: 22).

وقد ظن فريق من العلماء أن الآية تشير إلى تلقيح الرياح لبعض النباتات كما هو معروف، ولكن هذا المعنى لا يربط الجزء الأول من الآية بجزئها الثاني، وهو إنزال الماء العذب.

فالآية تشير إلى ما تسببه الرياح من تسخير السحاب وإنزال المطر، وإثراء الحياة بالخيرات والنبات والمرعى مما يستحق التفكير والتأمل ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: 164).

وقد أقسم الله تعالى بالنجوم في تعبير بلغ ذروة الإعجاز في وصف أبعاد النجوم، واتساع الكون المادي بصفة عامة، قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة: 75، 76).

ومن آيات القرآن الكريم يتضح لنا أن لله ـ عز وجل ـ كتابين؛ كتابًا مفتوحًا، وهو الكون يقرؤه العالم والجاهل والكبير والصغير والمتعلم والأمي، وكتابًا مقروءًا أنزله على نبيه ليرشد الناس إلى آثار قدرة الله بديع السموات والأرض.

ورغم أن المقصود الأسمى من هذا الكتاب هو الهداية والإرشاد فإنه مع ذلك حوى أصول الإعجاز التشريعي والنفسي والبياني والعلمي.

وإن من أدلة إعجاز هذا الكتاب أن يخطئ الناس في تفسيره على اختلاف العصور لضعف وسائلهم العلمية، ولقصر حبالهم أن تعلق بأطراف السموات أو تحيط بالأرض، ثم تصيب الطبيعة نفسها في كشف معانيه، فكلما تقدمت العلوم ونازعت إلى الكشف والاختراع

واستكملت آلات البحث ظهرت حقائقه الطبيعية ناصعة، حتى كأن القرآن غاية لايزال عقل الإنسان يتطلع إليها.

ولا عجب في ذلك، فالعقل أثر من آثار الله، والوحي أثر من آثار الله، وآثار الله لا تناقض بينها ولا اضطراب.

قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ (الملك: 3).

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: 21).

عناصر الجمال الفني في القرآن:

من نواحي الإعجاز في القرآن الكريم أنه يعرض أمامك الصورة البارعة التي تأخذ بالألباب، وتستولي على الأفئدة فتتحول إلى مشهد رائع أو لوحة خالدة.

وقد نزل القرآن على العرب، والأمية فيهم منتشرة، فعرض عليهم كتاب الكون بكل ما فيه، وقدم لهم لوحات خالدة وصورًا مثيرة تستلفت نظر الأعمى والبصير والأمي والمتعلم والمرأة والرجل والشيخ والشاب، فهو كتاب العامة والخاصة على السواء.

وقد كان القرآن المكي يستلفت أنظار الناس إلى جمال هذا الكون وبديع صنعته، ويسترسل في سوق الأدلة المتالية حتى يأخذ على النفس كل طريق، فلا تجد سبيلاً من الإذعان والإيمان عن قناعة حقة بأن هذا الكون لم يخلق عبثًا ولن يترك سُدًى.

وفي أول آيات القرآن التي نزلت على النبي بمكة، وهو في غار حراء يتلو الوحي:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: 1 - 5).

آيات قصيرة موجزة، وأسلوب بسيط أخاذ، وحقائق عن الكون وخالقه والقراءة والعلم.

فالقراءة باسم الله الذي خلق كل شيء، خلق السماء والأرض والجبال والبحار والليل والنهار والهواء والفضاء، وسخر الشمس والقمر وأبدع الكون كله في نسق رائع وجمال خالد.

وكما يعرض القرآن الكون الفسيح أمام الإنسان فإنه يستعرض النفس البشرية بكل أسرارها وإبداع خلقها ودقة تركيبها؛ حتى يفكر الإنسان في أصله، كيف خلق، كيف تم تكوينه حتى أصبح خلقًا بديعًا جميلاً فيقول سبحانه:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العلق: 1، 2).

ويقول الله في آية أخرى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ (الطارق: 5 - 7).

وهذا الحديث عن البدء والمعاد يعرضه القرآن في هدوء ويسر دون إغراب أو ابتذال، حتى يوشك أن يكون كلام النفس ذاتها، فهو السهل الممتنع، وهو النسق العالي والأدب الرفيع الذي يمتع العقل والفكر ويرضي العاطفة والذوق سواء بسواء.

وفي الحديث الصحيح أن عمر ﷺ لما سمع قول الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ (المؤمنون: 12 – 14).

قال عمر متعجبًا: «فتبارك الله أحسن الخالقين».

وتبسم النبي ﷺ لنطق عمر، فلما سأله عمر عن سر تبسمه، قال: «**إن الله ختم الآية بما نطقت به**».

وقد فرح عمر بذلك، وقال: وافقت ربي ووافقني ربي.

وليس ذلك بعجيب على عمر؛ فقد جعل الله الحق على لسانه وقلبه، وقال فيه النبي: «**إنه كان فيمن مضى ملهمون، ولو كان في أمتي ملهمون لكان عمر**».

وإذا تأملت آيات القرآن، رأيتها تعرض تطور الجنين وتكوينه في صورة مشرقة تنبض بالحياة والحركة، فإذا المعنى الذهني حركة ومشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حيٌّ، وإذا اللفظ القرآني يعرض الحياة بكل أطوارها.

فإذا ذكرنا أن الأداة التي تصور هذه الحياة إنما هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تصور، ولا شخوص تعبر، أدركنا موضع الإعجاز في تعبير القرآن الكريم.[1].

---

(1) علوم التفسير للدكتور عبد الله شحاتة من ص 176 – 195.

التفسير النقلي والعقلي:

نشأت مدارس للتفسير بمكة والمدينة والعراق، وتميز الحجاز بلزوم التفسير بالمأثور، كما تميز العراق بالتفسير المعقول، ونشأ اتجاهان في تفسير القرآن إلى يومنا هذا، هما التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي.

نشأت مساجلات حول تفضيل أحدهما على الآخر، لكنا في النهاية نرى أنه لا غنى لأحدهما عن الآخر، فمفسر القرآن ملزم بمعرفة تاريخ التشريع، وأسباب النزول، ومعرفة المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، وما أثر عن النبي ﷺ وصحابته والتابعين في تفسير الآية، ثم هو ملزم باستخدام العقل والرأي إذا لم يجد أثرًا في الآية، أو وجد أثرًا معلولاً أو مضطربًا، فعليه أن يجتهد رأيه إذا كان من أهل الاجتهاد والاستنباط، كما قال سبحانه: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ (النساء: 83).

القــــرآن والعقــــل

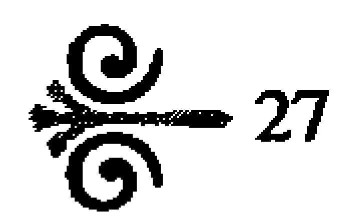
تكررت دعوة القرآن إلى استخدام العقل ومشتقاته، كالفكر واللب، والعقل هو وسيلة الاستنباط وأداة الاجتهاد والفهم، وبه تميز الإنسان على سائر المخلوقات، والعقل لا يرى ولا يلمس بل تلمس آثاره.

يذكر الحارث المحاسبي في ماهية العقل وحقيقة معناه:

«بأنه غريزة وضعها الله سبحانه في أكثر خلقه لم يطلع عليها العباد بعضهم من بعض، ولا اطلعوا عليها من أنفسهم برؤية ولا بحس ولا ذوق ولا طعم، ولكن عرَّفهم الله إياها (أي غريزة العقل) بالعقل منه، فبذلك العقل عرفوه، وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعهم ومعرفة ما يضرهم.

فمن عرف ما ينفعه مما يضره في أمر دنياه عرف أن الله تعالى قد مَنَّ عليه بالعقل الذي سلب أهل الجنون وأهل التيه وسلب أكثره الحمقى الذين قلت عقولهم»[1]. وقد اهتم علماء أهل السنة والجماعة بمباحث العقل وعلاقته بأحكام الشرع، فخصوه بالمؤلفات المستقلة

(1) الحارث بن أسد المحاسبي: ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه، تقديم حسين القوتلي (بيروت: دار الفكر 1391 - 1971) ص 201.



كما فعل العلامة ابن رشد في كتاب «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال»، ويقول عز الدين بن عبدالسلام:

«ومعظم مصالح الدنيا ومفاسدها معروف بالعقل، وذلك معظم الشرائع إذ لا يخفى على عاقل قبل ورود الشرع أن تحصيل المصلحة المحضة، ودرء المفاسد المحضة عن نفس الإنسان وعن غيره محمود حسن، وأن تقديم أرجح المصالح فأرجحها محمود حسن، وأن درء المفاسد فأفسدها محمود حسن، واتفق العلماء على ذلك، وكذلك الشرائع على تحريم الدماء والأبضاع والأموال والأعراض، وعلى تحصيل الأفضل فالأفضل من الأقوال والأعمال».[1]

وقد أبرز الراغب الأصفهاني نوع العلاقة بين العقل والشرع في صورة عامة بقوله: «اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لا يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأساس، والشرع كالبناء، ولن يغني الأساس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أساس، وأيضًا فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر؛ ولهذا قال الله تعالى:

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ (المائدة: 15، 16).

وأيضًا فالعقل كالسراج، والشرع كالزيت يمده، فإن لم يكن زيت لم يضئ السراج، وما لم يكن سراج لم يضئ الزيت، قال الله تعالى:

(1) قواعد الأحكام ج1 ص 5.

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (النور: 35).

والله هو الهادي، وأيضًا فالشـرع عقل من خارج، والعقل شـرع من داخـل، وهمـا متعاضدان بـل متحدان، ولكون الشـرع عقـلاً من خارج سـلب الله تعالى اسـم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن، نحو قولـه: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقـرة: 171) ولكون العقل شـرعًا مـن داخل قال فـي وصـف العقـل: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (الروم: 30).

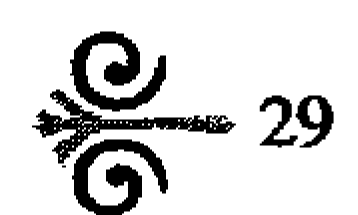
فسمَّى العقل دينًا، ولكونهما متحدين قال: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ أي نور الشرع، ونور العقل، ثم قال: ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ فجعلهما نورًا واحدًا»[1].

فالعلاقة بين الشـرع والعقـل علاقة تكامل، لا يسـتغني أحدهما عن الآخر في مجال التشريع والتنظيم للمجموعة الإنسانية، قال تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (الحديـد: 25). قـال مجاهد وقتـادة وغيرهما: «هو العدل وهو الحق الذي تشـهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة».

---

(1) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ص 67.



والميزان هنا غير الكتاب، وقد قرن الله بينهما، وفي هذا الصدد يذكر الأستاذ علال الفاسي:

«إن القرآن وكتب الرسل لا تحتوي إلا على أصول المسائل وقواعدها لا على جزئيات أحكامها؛ ولذلك أنزل الله مع الكتاب الميزان وهو المقياس الذي تقاس به المسائل الجزئيات لتلحق بأصولها في الكتاب، فالقرآن هو الحكم، والعقل هو المقياس الذي يستعمله القضاة وأهل العلم لإلحاق الجزئيات بالكليات»(1).

ويذكر الإمام محمد بن إدريس في رسالته الأصولية: «أن من الأحكام ما فرض الله على خلقه الاجتهاد في طلبه، وابتلى طاعتهم في الجهاد، كما ابتلى طاعتهم في غيره مما فرض عليهم، سأله الربيع بن مهدي قائلًا: فكيف الاجتهاد؟

فقال الشافعي: إن الله جل ثناؤه منَّ على العباد بعقولهم فدلهم بها على الفرق بين المختلف، وهداهم السبيل إلى الحق نصًّا ودلالة.. قال الربيع بن المهدي: فمثِّل من ذلك شيئًا.

قال الشافعي: نصب لهم البيت الحرام، وأمرهم بالتوجه إليه إذا رأوه وتأخيه إذا غابوا عنه، وخلق لهم سماء وأرضًا وشمسًا وقمرًا ونجومًا وبحارًا وجبالًا ورياحًا فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ (الأنعام: 97).

وقال: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: 16).

(1) علال الفاسي: دفاع عن الشريعة (الرباط، منشورات العصر الحديث 1972).

فأخبر أنهم يهتدون بالنجم والعلامات.

فكانوا يعرفون بمنِّه جهة البيت بمعونته لهم وتوفيقه إياهم، بأن قد رآه من رآه منهم في مكانه، وأخبر من رآه من لم يره، وأبصره ما يهتدي به إليه من جبل يقصد قصده، أو نجم يؤتم به، وشمال وجنوب، وشمس يعرف مطلعها ومغربها، وأين تكون من المصلى بالعشي ونحو ذلك.

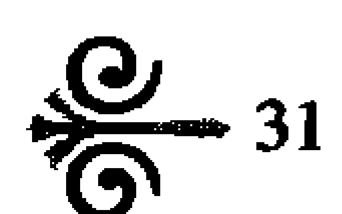
وكان عليهم تكلف الدلالات بما خلق لهم من العقول التي ركبها فيهم ليقصدوا قصد التوجه للعين التي فرض عليهم استقبالها، فإذا طلبوها مجتهدين بعقولهم وعلمهم بالدلائل بعد استعانة الله والرغبة إليه في توفيقه فقد أدوا ما عليهم»[1].

ولقد حث القرآن على النظر والاستنباط، وأمر بالتأمل في ملكوت السموات والأرض، وإدراك الحكمة السامية وراء التناسق والإبداع في خلق هذا الكون، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾[2] (الملك: 3 – 5).

---

(1) الرسالة 1 ص 22، ج 2 ص 487 – 503، وانظر مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – مكة المكرمة – السنة الثانية، العدد الثالث ص 153.

(2) (طباقًا) طبقًا فوق طبق، بعضها فوق بعض. (تفاوت) اختلاف.
(فارجع البصر) كرر النظر. (فطور) شقوق وصدوع وضعف.
(كرتين) مرة بعد أخرى. (خاسئًا) صاغرًا مبعدًا. (حسير) ذليل لم ير خللًا.



الآيـات الكونيـة فـي القــرآن

لا توجد سورة في القرآن - وخاصة السور المكية - إلا وفيها إشارة أو تصريـح أو عرض كامل للنظر في الكـون والتأمل في نظامه وإبداعه؛ لتحريك السـمع والبصر والحواس والعقل للتفكير في خلق الله تعالى، ثم الانتقال من المخلوق إلى الخالق، ومن الطبيعة إلى مكونها وبارئها، ومـن المسـبب إلى السـبب، ومـن المصنوع إلـى الصانع، ممـا يقتضيه العقـل، ويسـوق إليـه الفكر فـي أدق الأمـور وأجلهـا، وأحقر الأشـياء وأعظمها، وهو ما نطق به ذلك الأعرابي بفطرته السليمة فقال:

البعـرة تـدل علـى البعيـر، وأثـر الأقـدام يدل على المسير، فسـماء ذات أبـراج، وأرض ذات فجـاج، وبحـار ذات أمـواج، ألا تـدل علـى العليم الخبير!!

ومـن أهداف الآيـات الكونية في القـرآن أيضًا، توجيه نظر الإنسـان إلى أنه جزء صغير من هذا الكون، ليربطه به، وليتعرف أسراره وأحواله، وليعرف أنه وهو الصغير قد سـخر الله له هذا الكون الكبير، قال تعالى:

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ (غافر: 57).

وفي آيات متعددة يشير القرآن إلى أن الله سخر للإنسان هذا الكون البديع، ويحث الإنسان على دراسة الكون، واستكناه أسراره والتأمل في نظامه، ليستفيد منه ويستخدمه لصالحه، في المعاش الدنيوي والمعاد الأخروي، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (البقرة: 29).

ويقول سبحانه:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم: 32-34).

وكلمة التسخير من أقوى التعابير في الدلالة على الخدمة المستمرة الدائبة، ويستعمل القرآن أحيانًا كلمة خلق، وجعل، وأنزل، لتعديد ألوان النعم العديدة التي أوجدها الله للإنسان في هذا الكون، والمتأمل في آيات القرآن الكونية يلحظ تنوع أسلوبها، فأحيانًا تستلفت النظر إلى آثار قدرة الله، وأحيانًا تعدد نعم الله على الإنسان في هذا الكون البديع، ومرة أخرى تهدد الجاحد بسلب هذه النعم، وكأن الآيات في مجموعها نداء جهير للناس أن افتحوا عيونكم، وأيقظوا أفئدتكم، وتأملوا مليًا في خلق الله لكم، وفي تركيب أجسامكم، فإذا لم تتفكروا فقد عطلتم مواهبكم، وألغيتم عقولكم، ولم تدركوا قيمة هذه النعم، وبذلك تستحقون غضب الله وعقوبته.

والكون جميعه خاضع لمشيئة الله وإرادته، وقد سخر الله لسليمان الريح والشياطين، وسخر الملائكة لنفع المؤمنين وإذلال الكافرين، وعند الله جنود كثيرة، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ (المدثر: 31).

وعند نهاية الحياة تتشقق السماء، وتتكدر النجوم، وتفجر البحار، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات، وقد أقسم الله ببعض المظاهر الكونية، تنبيهًا لأهميتها ونظامها وبديع صنعتها، وقد اخترت نماذج من الآيات الكونية لدراستها، والتأمل في مضمونها ومدلولها.

ومجموعها 55 نصًا، تشتمل على 277 آية من القرآن الكريم.



رجــوع إلــى المصحــف

لقد استعنت بالمصحف المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الذي رتبه الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي، واستعنت بتفصيل آيات القرآن للأستاذ المستشرق جول لا بوم، ومعه المستدرك للأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي.

ولكني وجدت أنه لا بد من الرجوع إلى القرآن نفسه فتصفحته صفحة صفحة، واخترت هذه النماذج التي تقارب أن تكون مستوعبة للآيات الكونية في القرآن الكريم، أو صادقة الدلالة عليها وممثلة لها.

فالنص الأول يشمل الآية 29 من سورة البقرة.

والنص الثاني يشمل الآية 164 من سورة البقرة.

والنص 3 يشمل الآيتين 190، 191 من سورة آل عمران.

والنص 4 يشمل الآية 5 من سورة يونس.

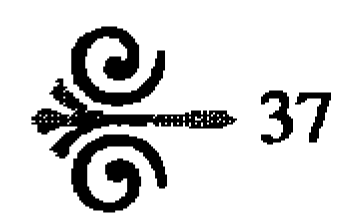
والنص 5 يشمل الآيات 22 – 24 من سورة يونس

والنص 6 يشمل الآيتين 6، 7 من سورة هود.

والنص 7 يشمل الآية 105 من سورة يوسف.

والنص 8 يشمل الآيات 1 – 4 من سورة الرعد.

والنص 9 يشمل الآيات 12 – 15 من سورة الرعد.



والنص 10 يشمل الآيات 32 – 34 من سورة إبراهيم.
النص 11 يشمل الآيات 16 – 22 من سورة الحجر.
النص 12 يشمل الآيات 10 – 18 من سورة النحل.
النص 13 يشمل الآيات 65 – 69 من سورة النحل.
النص 14 يشمل الآيات 66 – 69 من سورة الإسراء.
النص 15 يشمل الآيات 30 – 33 من سورة الأنبياء.
النص 16 يشمل الآيات 78 – 82 من سورة الأنبياء.
النص 17 يشمل الآيات 62 – 66 من سورة الحج.
النص 18 يشمل الآيات 17 – 22 من سورة المؤمنون.
النص 19 يشمل الآيات 41 – 46 من سورة النور.
النص 20 يشمل الآيات 45 – 54 من سورة الفرقان.
النص 21 يشمل الآيات 59 – 65 من سورة النمل.
النص 22 يشمل الآيات 71 – 73 من سورة القصص.
النص 23 يشمل الآيات 17 – 27 من سورة الروم.
النص 24 يشمل الآية 46 من سورة الروم.
النص 25 يشمل الآيات 29 – 32 من سورة لقمان.
النص 26 يشمل الآيتين 72 ، 73 من سورة الأحزاب.
النص 27 يشمل الآيتين 1، 2 من سورة سبأ.
النص 28 يشمل الآيات 11 – 23 من سورة فاطر.
النص 29 يشمل الآيتين 27، 28 من سورة فاطر.
النص 30 يشمل الآيات 33 – 40 من سورة يس.
النص 31 يشمل الآيات 81 – 83 من سورة يس.
النص 32 يشمل الآيات 4 – 10 من سورة الصافات.

النص 33 يشمل الآيات 27 – 29 من سورة ص.
النص 34 يشمل الآيات 34 – 39 من سورة الزمر.
النص 35 يشمل الآيتين 5، 6 من سورة الزمر.
النص 36 يشمل الآية 21 من سورة الزمر.
النص 37 يشمل الآيات 9 – 12 من سورة فصلت.
النص 38 يشمل الآيات 37 – 39 من سورة فصلت.
النص 39 يشمل الآيات 32 – 35 من سورة الشورى.
النص 40 يشمل الآيات 9 – 14 من سورة الزخرف.
النص 41 يشمل الآيات 3 – 6 من سورة الجاثية.
النص 42 يشمل الآيتين 12، 13 من سورة الجاثية.
النص 43 يشمل الآيات 6 – 11 من سورة ق.
النص 44 يشمل الآيات 20 – 23 من سورة الذاريات.
النص 45 يشمل الآيات 1 – 13 من سورة الرحمن.
النص 46 يشمل الآيات 33 – 36 من سورة الرحمن.
النص 47 يشمل الآيات 63 – 80 من سورة الواقعة.
النص 48 يشمل الآيات 1 – 6 من سورة الحديد.
النص 49 يشمل الآية 25 من سورة الحديد.
النص 50 يشمل الآيات 15 – 19 من سورة الملك.
النص 51 يشمل الآيات 15 – 20 من سورة نوح.
النص 52 يشمل الآيات 6 – 16 من سورة النبأ.
النص 53 يشمل الآيات 27 – 33 من سورة النازعات.
النص 54 يشمل الآيات 24 – 32 من سورة عبس.
النص 55 يشمل الآيات 17 – 22 من سورة الغاشية.

ومن الخير أن ننقل هنا نصوص الآيات الكونية في القرآن الكريم، لنشاهدها عن قرب ولنستلهم هذه النصوص ونستشف دلالتها، ونستهدي بهدايتها، وهذه هي الآيات:

1- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: 29)

2- ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: 164)

3- ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران: 190، 191)

4- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (يونس: 5)

5- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ

وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس: 22 - 24)

6- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ (هود: 6، 7)

7- ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴾ (يوسف: 105)

8- ﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ

ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد: 1 – 4)

9- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴾ (الرعد: 12 – 15)

10- ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

(إبراهيم: 32 – 34)

11- ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ (الحجر: 16 – 22)

12- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ (النحل: 10 – 18)

13- ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)﴾ (النحل: 65 - 69)

14- ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ (الإسراء: 66 - 69)

15- ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾ (الأنبياء: 30 – 33)

16- ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ (الأنبياء: 78 – 82)

17- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ (الحج: 63 – 66)

18- ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ (المؤمنون: 17 – 22)

19- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (النور: 41 – 46)

20- ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا

مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (الفرقان: 45 – 54)

21– ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (النمل: 59 - 65)

22– ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (القصص: 71 - 73)

23- ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الروم: 17 – 27)

24- ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الروم: 46)

25- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ (لقمان: 29 – 32)

26– ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الأحزاب: 72، 73)

27– ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (سبأ: 1، 2)

28– ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى

لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ (فاطر: 11 – 13)

29- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (فاطر: 27 ، 28)

30- ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس: 33 – 40)

31- ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (يس: 81 – 83)

32- ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (الصافات: 4 – 10)

33- ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص: 27 – 29)

34- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (ص: 34 – 39)

35- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ (الزمر: 5، 6)

36- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر: 21)

37- ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (فصلت: 9 - 12)

38- ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فصلت: 37 - 39)

39- ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ (الشورى: 32 - 35)

40- ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ (الزخرف: 9 – 14)

41- ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (الجاثية: 3 – 6)

42- ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: 12، 13)

43- ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ (ق: 6 – 11)

44- ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ (الذاريات: 20 – 23)

45- ﴿ الرَّحْمَٰنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (13) ﴾ (الرحمن: 1 – 13)

46- ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (34) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (35) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (36) ﴾ (الرحمن: 33 – 36)

47- ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (73) فَسَبِّحْ

بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الواقعة: 63 – 80)

48– ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحديد: 1 – 6)

49– ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ (الحديد: 25)

50– ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ (الملك: 15 – 19)

51- ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ (نوح: 15 – 20)

52- ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ (النبأ: 6 – 16)

53- ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ (النازعات: 27 – 33)

54- ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ (عبس: 24 – 32)

55- ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية: 17 – 22)

تعليـــق علـــى الآيـــات الكونيـــة

إذا أمعنـا النظر في الآيات الكونية التي اشـتمل عليها القرآن الكريم، اتضح لنا أن كل شيء في هذا الكون قد خلق بقدر معلوم، ودقة متناهية، وحكمة مدبرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: 49).

وقال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ (الملك: 3).

وإن هـذا الكـون المعجز فـي بنائه، المذهـل في اتسـاعه، الرائع في حركته واتزانه، هذا الاتزان الدقيق لو اختل قيد شـعرة في أمر من أموره لانفرط عقد هذا الكون، وانهار كل ما فيه ومن فيه.

ولما كان هذا الكون منذ ملايين السـنين يسـير على نفس السنن، فإن الـذي يصونه مما قد يتعرض له من كوارث، هو العناية الإلهية التي نحيا فـي ظلها وعطفها ورعايتها، والتي لو حجبـت عنا طرفة عين أو أقل من ذلك لهلكنا، وهلك كل من معنا، ويمكن الإشارة إلى الأمور الآتية:

1- لـو كانت الأرض تبعد عن الشـمس ضعف بعدهـا الحالي لنقصت كمية الحرارة التي تصلنا إلى ربع كميتها الحالية، ولقطعت الأرض



دورتها حول الشـمس في وقت أطول، ولتضاعف تبعًا لذلك طول فصل الشتاء فتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض.

2- لو اقتربت الأرض من الشمس إلى نصف المسافة التي تفصلهما الآن لبلغـت الحرارة التي تتلقاها الأرض من الشـمس أربعة أمثال مـا تتلقـاه منها الآن، مما يحول دون وجود حيـاة نباتية أو حيوانية، ولتضاعفـت سـرعة الأرض حول الشـمس، ولانعدمـت الفصول ولاستحالت الحياة[1].

3- الغِلاف الغازي المحيط بالأرض يحميها من ملايين الأطنان من الشهب، التي تهبط عليها من الفضاء الخارجي، ويحميها أيضًا من الأشـعة الكونيـة التـي لـو قدر لهـا أن تصـل إلـى الأرض جميعها لأبادت الحياة[2].

4- وهذا الغِلاف الغازي يحفظ الأرض في درجة مناسـبة من الحرارة، وهـو الوسـيط الـذي يحمـل بخـار المـاء المتصاعـد مـن البحـار والمحيطات بخارًا؛ ليتكثف منه مطرًا يسقي الأرض ويروي النبات والحيوان والإنسـان، ولولا هذه الـدورة - دورة المياه - لتحولت كل المياه الأرضية إلى ماء عفن آسن في فترة زمنية قصيرة.

5- هذا الغِلاف الغازي له تركيب دقيق لو اختل لما أمكن للحياة أن تزدهر وتستمر.

---

(1) محاضـرات الموسـم الثقافـي لعـام 72 - 73 م إصـدار حكومة أبو ظبـي محاضرة «الإنسان والكون» للأستاذ الدكتور: زغلول راغب النجار.

(2) المرجع السـابق، وكتاب الله جل جلاله، بقلم: سـعيد حوى- دار الكتب العلمية- بيروت - لبنان - طبعة ثالثة سنة 1972 ص 40.

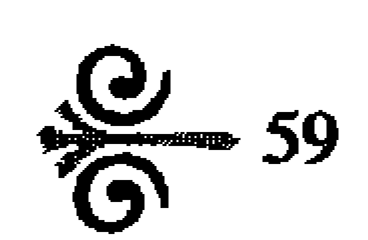
6- لو كان الأكسجين بنسبة 50٪ أو أكثر من الهواء بدلًا من 21٪ فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة في البرق تصيب شجرة لابد أن تلهب الغابة كلها.

ولو كانت نسبة الأكسجين 10٪ لتعذر أن يكون التمدن الإنساني على ما هو عليه الآن.

7- لو كانت مياه المحيطات حلوة لتعفنت ولتعذرت بعد ذلك الحياة على الأرض؛ حيث إن الملح هو الذي يمنع حصول التعفن والفساد، ولو لا أن الكلور يتحد مع الصوديوم لما كان ملح، وبالتالي لما كانت حياة.

8- هناك كميات كبيرة من الماء متجمدة على القطبين، ولو قدر لهذا الماء المتجمد أن يسيل، (وهذا لا يحتاج إلا لبضع درجات قليلة من الحرارة) لارتفع منسوب الماء في البحار والمحيطات، ولأغرقت أغلب مساحات القارات وما عليها من حياة.

9- ولو كانت الأرض كعطارد لايدير إلا وجهًا واحدًا منه نحو الشمس، ولا يدور حول محوره إلا مرة واحدة في خلال الدورة الكاملة للشمس، أو بتعبير آخر لو كان قسم من الأرض ليلاً دائمًا والآخر نهارًا دائمًا لما عاش أحد؛ حيث الليل الدائم أو النهار الدائم، ولا كانت حياة.



10- لو لم تكن قوانين الجاذبية موجودة، فمن أين تلتقي الذرات وجزئيات الذرات، ومن أين تكون الشمس شمسًا والأرض أرضًا[1].

11- ولولا قوانين الحرارة لما تبردت الأرض ولما كانت صالحة للحياة.

12- ولولا الجبال، لتناثرت الأرض، ولما كان مثل هذه القشرة الصالحة للحياة.

13- ولولا أن في الأرض أرزاقها، لما استطاعت الحياة أن تبقى.

---

(1) انظر كتاب: الله جل جلاله، بقلم: سعيد حوى، فقد ساق ظاهرات وعلامات على وجود إله قادر حكيم، وهي: ظاهرة حدوث الكون، وظاهرة الإدارة، وظاهرة الحياة، وظاهرة الإجابة، وظاهرة الهداية، وظاهرة الإبداع، وظاهرة الحكمة، وظاهرة العناية، وظاهرة الوحدة.

الجمال والإبداع

في نصوص القرآن نلمح الإبداع والجمال في هذا الكون، والقدرة والجلال ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (السجدة: 7) ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ (البقرة: 117) لقد أنشأهما على غير مثال سابق، وانظر إلى السماء ونجومها، والقمر ساعة طلوعه عندما يكون بدرًا أو هلالاً، أو ساعة توسطه في قبة الفلك، والشمس في غروبها وشروقها، الفجر والأصيل وروعة الضحى كل ذلك آثار إبداع عظيم.

إن أعظم فنان هو الذي يستطيع أن يرسم جزءًا مما في الكون للحظة من لحظاته بأمانة، أما الكون فكل مظهر من مظاهره التي تتكرر، أو تتعاقب أو تتغير، صور من الجمال تثير في النفس كل آن مباهج من الروائع.

كل ورقة من أوراق الشجر منظمة أبدع نظام، مخططة أجمل تخطيط، والورق والزهر والساق والغصون والفروع والثمار كلها إبداع عجيب، منفردة كانت أو مجتمعة، موصولة أو مقطوعة.

إن يد الله التي خلقت الكون أظهرت نفسها في خلقها، لقد أمرنا الله أن ندرس آياته في الكون، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىۡءٍ ﴾ (الأعراف: 185).

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الذاريات: 20، 21).

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (طه: 50).

شهــــادة منصـــف

يقول المستشرق موريس بوكاي:

«لقد أثارت الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة فـي البدايـة، فلـم أكن أعتقـد قط بإمكانـي اكتشـاف عدد كبيـر إلى هذا الحـد مـن الدعـاوى الخاصـة بموضوعـات شـديدة التنـوع ومطابقـة تمامًـا للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نص كتب منذ أكثر من ثلاثة عشـر قرنًا، في البداية لم يكن لي أي إيمان بالإسلام، وقد طرقت دراسة هـذه النصـوص بـروح متحـررة مـن كل حكـم مسـبق «وبموضوعيـة تامة»[1].

«إن أول مـا يثيـر الدهشـة فـي روح مـن يواجـه نـص القـرآن لأول مرة هـو ثـراء الموضوعـات المعالجـة، فهنـاك الخلـق، وعلـم الفلـك، وعـرض لبعض الموضوعات الخاصـة بالأرض، وعالـم الحيوان، وعالم النبـات، والتناسـل الإنسـاني، وعلـى حيـن نجـد فـي التـوراة أخطـاء علمية ضخمة، لانكتشف في القرآن أي خطأ، وقد دفعني ذلك لأن أتساءل:

(1) دراسـة الكتب المقدسـة في ضوء المعارف الحديثة ص 144، المستشرق: موريس بوكاي، الطبعة العربية، الناشر دار المعارف بالقاهرة.



لو كان كاتب القرآن إنسانًا، فكيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق مع المعارف العلمية الحديثة»[1].

من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم:

لقد تكررت الآيات الكونية في القرآن الكريم، وهي في مجموعها تصل إلى 750 آية، وهذا العدد الكثير يتضمن عناية القرآن بهذا الكون ومشاهده، وما فيه من سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر ونجوم، ورياح وأمطار وسحاب...

وإذا رجعنا إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وجدنا تحديدًا لألفاظ القرآن، ورأينا أن كلمة الأرض قد ذكرت في القرآن الكريم في 451 موضعًا، وأن كلمة السموات قد ذكرت في القرآن الكريم في 310 مواضع، وكثيرًا ماتجتمع السماء والأرض في آية واحدة مثل:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ (البقرة: 22).

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأعراف: 185).

***

وذكرت كلمة الشمس في القرآن الكريم في 33 موضعًا.

كما ذكرت كلمة القمر في القرآن الكريم في 26 موضعًا، وفي معظمها يذكر القمر بعد الشمس مثل:

---

(1) المرجع السابق ص 145.

﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (الرعد: 2).

ومثل قوله تعالى:

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ (الأنعام: 96).

وذكرت كلمة النجوم في 9 مواضع مثل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ (الأنعام: 97).

وكلمة النجم في أربعة مواضع مثل: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (النحل: 16).

وذكر السحاب في مواضع مثل: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: 164).

وذكرت الرياح في عشرة مواضع، كما ذكرت الريح في أربعة عشر موضعًا، مثل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ (يونس: 22).

* * *

إن القرآن لم يذكر هذه الظواهر الكونية على أنها مقصودة لذاتها، ولكن على أنها مرتبطة بقدرة مدبرة، وقوة مسيرة لهذا الكون، فهي دعوة عملية للإيمان بالله من منطلق أن كل ما نشاهده في هذا الكون خاضع للنظام الدقيق وللعناية الفائقة، ولرحمة الرحمن بعباده.

وفي كل شيء له آية　　تدل على أنه الواحد

وإذا انتقل الإنسان بحسه من الكون إلى المخلوقات الأخرى وإلى الإنسان نفسه، فسيدرك أن هذه العناية الإلهية تلحظ الإنسان في كل وقت وآن.

قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ (الذاريات: 20 - 23)[1].

---

(1) ويردد بعض المؤمنين نغمات التسبيح ودلائل الإعجاب بهذه القدرة في مثل هذا القول:

والكون مشحون بأسرار إذا ... حاولت تفسيرًا لها أعياكا
قل للطبيب تخطفته يد الردى ... يا شافي الأمراض من أرداكا
قل للمريض نجا وعوفي بعدما ... عجزت فنون الطب من عافاكا
قل للبصير وكان يحذر حفرة ... فهوى بها من ذا الذي أرداكا
بل سائل الأعمى يمر من الزحا ... م بلا اصطدام من يقود خطاكا
قل للجنين يعيش معزولاً بلا ... مرعى تُرى من ذا الذي يرعاكا
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت ... شهدًا وقل للشهد من حلاكا
الله في كل الحقائق ماثل ... إن لم تكن لتراه فهو يراكا

لماذا لم تتجمع الآيات الكونية؟

هل كان من الحكمة أن تتواجد الآيات الكونية في القرآن تحت عنوان واحد، أو في سورة واحدة ؟

ولاشك أن ما صنعه الله هو صنع العليم الحكيم، ومن عادة القرآن أن يتخول الناس بالموعظة، لقد استمر نزول القرآن ثلاثة وعشرين عامًا، ولا نكاد نجد سورة - خصوصًا في السور المكية - إلا وفيها لفت الأنظار إلى بديع صنع الله .

ففي خلال آيات التشريع وأحكام الأسرة، ونظام الإسلام والجهاد والبيع والشراء، وأخبار السابقين، وأحوال المسلمين، وأنباء اللاحقين، يتخلل كل ذلك وصف القرآن لهذا الكون، والتحدي مما خلق الله، واستنهاض الهمم إلى النظر والتأمل.

جاء في تفسير المنار:

فإن قيل ولِمَ لَمْ تكن هذه السنن العجيبة في موضع واحد من القرآن؟ فتكون أظهر للناس، ويكون المؤمنون بها أسبق إلى ما أظهره العلم منها في هذا الزمان، قلنا: أولاً: إن أسلوب القرآن في بيان أصول



الدين وفروعه المقصودة لذاتها، هو إيرادها في آيات متفرقة في السور ممزوجة بغيرها من أنواع المسائل والفوائد لا في مكان واحد.

ثانيًا: إن هذه السنن قد ذكرت في سياق الآيات الدالة على عقيدتي التوحيد والبعث، فكان المناسب أن تذكر معها في مواضعها.

ثالثًا: إن العلم التفصيلي بها ليس من مقاصد الوحي الذاتية، بل هو من العلوم التي يصل إليها البشر بكسبهم وبحثهم، وإنما يكون الوحي مرشدًا لهم إليها.

رابعًا: لو جمعت هذه الآيات في موضع واحد على أنها بيان تام لجميع أطوار التكوين لتعذر فهمها بالجملة، وإن دلالة القرآن على كروية الأرض ودورانها واضحة كما في قوله تعالى: ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ (الأعراف: 54)، وفي غيرها، ولا يزال أكثر المسلمين يجهلونها.

خامسًا: ولو لم يعرض للحضارة العربية والإسلامية من المصائب والفتن الاجتماعية والحربية، والشقاق الديني والسياسي ما وقفت بترقي العلم والبحث، ولسبق المسلمون إلى ما وصل إليه غيرهم من الإفرنج بعدهم، باتباعهم والجري على آثارهم؛ فإن المعارف الكونية يمد بعضها بعضًا ما لم يعرض لها ما يوقف سيرها[1].

(1) تفسير المنار، المجلد السادس جزء 12 ص 20، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

تفسير نصوص الآيات الكونية في القرآن الكريم

النص الأول: الأرض والسماء

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 29).

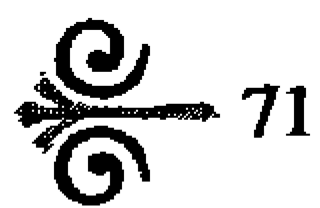
المفردات:

(استوى إلى السماء) قيل: علا عليها، أو تعلقت إرادته بتسويتهما (فسواهن) خلقهن وأتقنهن، أو جعلهن سويات لا نقص فيهن.

التفسير:

في آية سابقة توجه الله إلى الكافرين بهذا الاستفهام الإنكاري عن سبب كفرهم مع أن نعم الله عليهم ظاهرة وباطنة؛ فقد أوجدهم الله من العدم، ومنّ عليهم بالحياة ومقومات الحياة، ثم يميتهم عند انتهاء آجالهم، والموت نعمة كبرى على البشرية، ولولاه لضاقت الأرض بالحياة والأحياء.

وبعد الموت يكون البعث والجزاء؛ لإثابة الطائع، وتعذيب العاصي، وفي البعث نعمة كبرى، إذ به يتحقق الهدف من الخلق



والابتلاء والاختيار في هذه الحياة، وهكذا جمعت الآية بين موتتين وحياتين في كلمات معدودة: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (البقرة: 28).

نعمة خلق الأرض والسماء

حين خلق الله الإنسان كرمه بالعقل والفكر، وفضله على كثير من المخلوقات، وخلق له الكون وسخره له، ويقول سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (البقرة: 29).

أي خلق للإنسان الأرض وما عليها من بحار وأنهار وأشجار ونبات وتربة وهواء وفضاء وأرزاق، وما في داخلها من بترول ومعادن ومياه، وغير ذلك، ويرى بعض العلماء أن ما خلق الله لنا في باطن الأرض يحتاج منا إلى علم وفن وفكر ومعرفة بأساليب استخراجه وتصنيعه والاستفادة به، فلا يكفي أن نستخرج البترول، بل يجب أن تنشأ حوله دراسات علمية وعملية، لتكون فائدته أشمل، ولنحقق ما أراده الله من خلافة الإنسان في الأرض، والاستفادة التامة بنعم الله علينا، واستخدام النعمة فيما خلقها الله من أجله.

ينبغي أن يجيد المسلمون دراسة طبقات الأرض وذخائرها، وأن يعتمدوا على أنفسهم في استخراج كنوزها، وتصنيع خيراتها وبذلك يحققون توجيه الوحي الكريم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: 29).

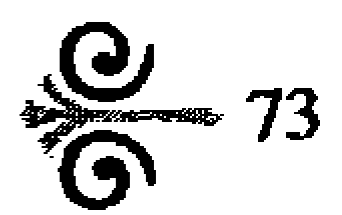
لقد خلق الله للإنسان ما في الأرض جميعًا، ثم توجهت إرادته إلى خلق السماء فأحكم صنعها وأبدع تكوينها وتنسيقها لتكون مع الأرض تكاملًا يجعل الحياة على الأرض ممكنة مريحة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: هو المحيط المدبر لهذا الكون، الخبير بما فيه، المدرك لما يحتاج إليه، فقد دبر سبحانه نظام الأرض والسماء والفضاء والكواكب والشمس والقمر والنجوم، وأبدع نظام الكون بمقتضى علمه وإحاطته بكل شيء.

تعليقـــان:

الأول:

جاء في هامش المنتخب في تفسير القرآن الكريم، الذي أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة سنة 1381 هـ تعليقًا على تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ (البقرة: 22) ما يأتي:

(في هذه الآية جزء من دلائل الإعجاز في القرآن الكريم، ذلك أن قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾: فيه معنى ما كان يمكن أن يعرفه النبي الأمي إلا بوحي من الله ذلك أن السماء في المعنى العلمي هي كل ما يحيط بالأرض إلى ارتفاعات تنتهي حيث يبدأ الفراغ الكوني بما فيه من الأجرام السماوية المنتشرة في أعماقه السحيقة على اختلاف أشكالها وأحجامها وصورها وماهيتها، تتحرك في نظام مبدع ويتوالى ظهورها واختفاؤها لسكان الأرض، محدثة الضوء والدفء، وهي جميعًا في علوها وترابطها بقوى الجاذبية، كالبنيان في تماسكها واتزانها وتدرجها طبقة بعد طبقة.



وفي الجزء الأول من السماء، وهو الحد المحيط بالأرض، والقريب منها مباشرة توجد الطبقات الجوية المختلفة، الواقية من الإشعاعات الضارة الصادرة عن أرجاء الكون، وهذه الطبقات تسمح فقط للأشعة المفيدة بالنفاذ منها لملاءمتها للحياة على سطح الأرض فهي كالمظلات أو الأسقف الواقية، وفي هذه الطبقة من السماء يكون السحاب ومنه يكون المطر.

الثاني:

جاء في هامش تفسير المنتخب للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة تعليقًا على الآية التي نفسرها مايأتي:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ (البقرة: 29)، معنى من معاني الإعجاز، لأن النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، ونشأ في أمة أمية ليس فيها علم ولا تعليم، لا يمكن أن يعلم أن السموات سبع طباق، وأن السموات السبع يصح أن يراد بها مدارات الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس، ويصح أن يراد بها الطبقات المختلفة لما يحيط بالأرض، ذلك أن الله تعالى بعد أن أكمل تكوين الأرض ودبت الحياة على سطحها كيّف سبحانه جو الأرض المحيط بها بما يلائم هذه الحياة ويحفظها ويصونها من أهوال الفضاء، وظهرت طبقات الجو المختلفة ودوائر التأمين في الفراغ الكوني الذي يحدثنا العلم عن بعضها كطبقة التبريوسفير، وطبقة الاستراتوسفير وطبقة الاتونسفير، وغيرها من الطبقات.

وهذه الطبقات لم تعرف إلا في العلم، فأنى لمحمد النبي الأمي علمها إلا من الله العلي الحكيم الذي بعثه، وأنزل عليه القرآن الكريم.

النص الثاني: أنعم متعددة

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: 164).

المفردات:

﴿اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: تعاقبهما، ومجيء أحدهما خلفًا للآخر، أو اختلاف كل منهما في أنفسهما زيادة ونقصانًا.

﴿الْفُلْكِ﴾: السفن، واحدها وجمعها بلفظ واحد، ويذكر ويؤنث.

﴿وَبَثَّ﴾: نشر وفرق.

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾: تصريف الله تعالى هبوب الريح باختلاف مهابها: قبولاً ودبورًا وجنوبًا وشمالاً، وفي أحوالها: حارة وباردة وعاصفة ولينة، فتارة مبشرة بين يدي السحاب، وطورًا تسوقه، وآونة تجمعه، ووقتًا تفرقه، وحينًا تصرفه.

لطيفتان:

1- قال الثعالبي: أول ما ينشأ السحاب فهو النشيء، فإذا انسحب في الهواء فهو السحاب، فإذا تغيرت له السماء فهو الغمام، فإذا أظل فهو العارض، فإذا ارتفع وحمل الماء وكثف وأطبق فهو العماء. فإذا عنَّ فهو العنان، فإذا كان أَبْيَض فهو المزن.

2- قال القاضي عبد الجبار: خصَّ الله تعالى ثماني آيات بالذكر؛ لأنها جامعة بين كونها دلائل، وبين كونها نعمًا على المكلفين على أوفر حظ ونصيب، ومتى كانت الدلائل كذلك كانت أنجح في القلوب وأشد تأثيرًا في الخواطر[1].

التفسير: جمع الله سبحانه وتعالى في هذه الآية ثمانية أدلة على ألوهيته، والآية التي تسبق هذه الآية هي قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 163).

وهي تثبت لله الوحدانية، وتصفه بالرحمة فهو متصف بالجلال والجمال والكمال.

ومن أدلة الألوهية اتساق نظام هذا الكون وتماسكه، واستمراره في أداء وظيفته.

---

(1) تفسير القاسمي 3 / 359.

والآية التي نفسرها من الآيات الشهيرة، فقد جمعت عددًا من الأدلة الكونية وورد في شأنها الحديث الشريف:

(ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها) المج: قذف الريق ونحوه من الفم والمراد عدم الاعتبار والاعتداد بها، إذ من تفكر فيها فكأنه حفظها ولم يلقها من فيه.

ثماني آيات

1- ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ (البقرة: 164).

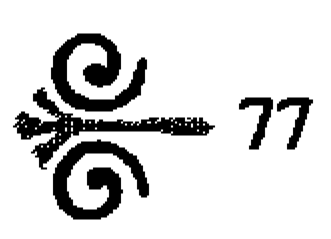
لفت القرآن أنظار الناس إلى خلق السموات، وإحكام نظامها، وإبداع صنعتها وأحيانًا يذكر مع السماء النجوم والشمس والقمر والبروج فهذه الأمور كلها يكمل بعضها بعضًا.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ (الفرقان: 61).

ويقول سبحانه:

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ (الصافات: 6). والسموات: جمع سماء، وهي كل ما علا كالسقف وغيره إلا أنها إذا أطلقت لم يفهم منها سوى الأجرام المقابلة للأرض وهي سبع كما ورد ذلك صريحًا في بعض الآيات التي منها قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ (الطلاق: 12).

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (المؤمنون: 86).



ويرى بعض الباحثين أن السموات السبع تعني سماوات متعددة، وليست سماوات محدودة بعدد[1] فالعدد سبعة متكرر، ويتفاءل الإنسان بذكره أو يتبرك به، فالسموات سبع، والأسبوع سبعة أيام، وآيات الفاتحة سبع آيات، والجنة لها سبعة أبواب، ومن الخير أن نفوض المراد إلى الله تعالى بعد الإيمان الجازم، واليقين القاطع بصدق ما أخبر به الله تعالى.

2- ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾.

جاءت كلمة الأرض مفردة - وهي لم تجئ في القرآن إلا كذلك - لأن المشاهدة لا تقع إلا على أرض واحدة، ومن هنا حمل بعض أهل العلم تعددها الذي يتبادر من ظاهر قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (الطلاق: 12) على معنى أنها طبقات لا ينفصل بعضها عن بعض.

وفي القرآن الكريم آيات متعددة تمتن على عباد الله بخلق السموات والأرض مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 22).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد: 3).

---

(1) موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص 177، الترجمة العربية، طبعة: دار المعارف بمصر.

ويقول سبحانه: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النمل: 61).

والآيات تلفت النظر إلى السماء وارتفاعها، وتناسق خلقها وتماسكها بغير عمد تراها العين، ووجود النجوم والشمس والقمر بها، وتلفت النظر إلى الأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار، ووديان وسهول ونبات وصحراء ومعادن، وعيون وثمار مختلفة.

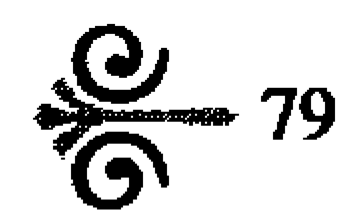
«تلك السموات والأرض.. هذه الأبعاد الهائلة والأجرام الضخمة والآفاق المسحورة.. والعوالم المجهولة، هذا التناسق في مواقعها وجريانها في ذلك الفضاء الهائل الذي يدير الرءوس.. هذه الأسرار التي توصوص للنفس، وتلتف في رداء المجهول.. هذه السموات والأرض حتى دون أن يعرف الإنسان شيئًا عن حقيقة أبعادها وأحجامها وأسرارها[1]، دلائل واضحة على قدرة الخالق المبدع «بديع السموات والأرض».

3- ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾:

أي مجيء أحدهما خلفًا للآخر وعقبًا له، ويجوز أن يكون المعنى اختلافهما في أنفسهما بالطول والقصر، واختلافهما في جنسهما بالسواد والبياض. فيطول الليل في الشتاء إلى 14 ساعة، وينقص النهار إلى 10 ساعات، ويحدث عكس ذلك في الصيف، وهذا

---

(1) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب 2 / 152 .



معنى قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ (لقمان: 29).

ويقول سبحانه: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ (الزمر: 5).

وتتابع الليل والنهار يهيئ للناس فرصة للنظر والاعتبار، فلو استمر النهار لضج الناس من الحركة والعمل، ولو استمر الليل لتعطلت مصالح الناس ولا نقلب النفع ضررًا.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾ (القصص: 71 – 73).

ماذا يحدث في الفضاء؟

«إن الشمس تضيء بشكل دائم نصف الكرة الأرضية الذي يقع أمامها، على حين يظل النصف الآخر مظلمًا، وقد رأى رواد الفضاء هذا، وصوروه من مركباتهم الفضائية، وخاصة على بعد بعيد عن الأرض... من على القمر مثلًا، وبدوران الأرض حول نفسها، على حين تظل الإضاءة ثابتة – فإن المنطقة المضاءة منها– وهي على شكل نصف كروي – تؤدي في أربع وعشرين ساعة

دورتها حول الأرض، على حين يتم النصف الآخر المظلم في نفس الوقت نصف الرحلة، والقرآن يكشف بشكل كامل هذه الدورة التي لا تتوقف أبدًا للنهار والليل، وهي اليوم يسيرة على الإدراك الإنساني، فنحن نملك اليوم خبرة عن ثبوت الشمس[1]، وعن دورة الأرض - هذه العملية الدائمة في التكور مع الولوج المستمر لقطاع في آخر - يعبر القرآن عنها، وكأن اكتشاف استدارة الأرض كان قد تم في عصر تنزيل القرآن، وبالطبع لم يكن هذا قد حدث بعد»[2].

4- ﴿ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾:

الفلك: اسم للسفينة الواحدة وللكثير، ودلالتها على الوحدانية يحتاج إلى معرفة طبيعة الماء، وقانون الثقل في الأجسام، وطبيعة الهواء والريح والبخار والكهرباء التي هي العمدة في سير السفن الكبرى في هذا العصر.

والسفن تحمل الأشخاص والتجارة والزراعة والصناعة من مكان لآخر، فينتفع الناس بخيرات الآخرين، ويتبادلون المطاعم والمشارب والملابس وأصناف الأدوية وغيرها.

وتعتمد السفن الشراعية على حركة الريح في سيرها وإتمام رحلتها.

---

(1) فهو ثبوت نسبي.

(2) موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، الطبعة العربية بدار المعارف بالقاهرة ص 189.



قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ (الشورى: 32 – 34).

5- ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾:

المعنى: وإن فيما أنزله الله من جهة السماء من ماء مبارك عمرت به الأرض بعد خرابها لدليل ساطع على قدرة الله ووحدانيته.

دورة المطـــر:

«يثير الإشعاع الحراري للشمس تبخر الماء في المحيطات، وكل السطوح الأرضية المغطاة أو المشبعة بالماء، يتصاعد منها بخار الماء بهذا الشكل نحو الجو، ويشكل سحبًا عن طريق تكاثفه، عندئذ تدخل الرياح لتؤدي دورها في نقل السحب بعد تشكلها إلى مسافات متنوعة، وقد تختفي السحب دون أن تعطي مطرًا، كما يمكن أن تلتقي كتل السحاب مع كتل أخرى لتعطي بذلك سحبًا ذات كثافة كبرى، وقد تتجزأ لتعطي مطرًا في مرحلة من تطورها، وسرعان ما تتم الدورة بوصول المطر إلى البحار (التي تشكل 70٪ من سطوح الكرة الأرضية). أما المطر الذي يصل إلى الأرض فقد يمتص جزئيًا بواسطة النباتات مساهمًا بذلك في نموها، وهذه بدورها تقوم من خلال ترشحها بإعطاء جزء من الماء إلى الجو، أما الجزء الآخر فإنه يتسلل بمقدار قد

يقـل أو يكثـر إلـى التربـة ليتجـه نحـو المحيطات عبـر مجـاري الماء، أو قـد يتسـرب فـي التربـة ليعـود نحـو الشـبكة السـطحية عـن طريـق الينابيع أو الأماكن الأخرى التي يخرج منها الماء إلى السـطح، ولنقارن معطيـات علـم الهيدرولوجيـا الحديث بتلـك التي نجدها فـي كثير من الآيـات القرآنية المذكورة في هذه الفقرة، سـنلاحظ وجـود توافق رائع بين الاثنين»(1).

6- ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾:

أنـزل اللـه المطـر فأنبـت بـه النبـات، وأحيـا بـه الأرض وبـارك فيهـا ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ ونشـر علـى هـذه الأرض أنواعًا مـن الدواب مختلفة في طبيعتها، وأحجامها، وأشـكالها، وألوانها، وأصواتها، ومآكلها، وحملها، وتناسلها، ووجوه الانتفاع بها، وغير ذلـك مـن وجـوه الاختـلاف الكثيـرة، مما يشـهد بـأن خالـق هذه الكائنات إله واحد قادر حكيم.

والدابـة: اسـم مـن الدبيـب والمشـي ببـطء، وكل مـا يمشـي فوق الأرض فهـو بحسـب الوضـع اللغـوي يطلق عليـه دابـة، والظاهر أن المـراد بالدابـة هنـا هـذا المعنـى العـام، لا مـا يجـري بـه العـرف الخـاص باسـتعماله فـي نـوع خـاص مـن الحيـوان كذوات الأربع.

---

(1) موريـس بـوكاي: دراسـة الكتب المقدسـة في ضوء المعـارف الحديثـة، الترجمة العربية طبعة دار المعارف بالقاهرة ص 203.



7- ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾:

(تصريف) مصدر (صرَّف) مضاف للمفعول.

والفاعل هو الله، أي وتصريف الله الرياح، أو مضاف للفاعل والمفعول السحاب أي وتصريف الرياح السحاب.

وتصريف الرياح: أي تقليبها في مهابها: قبولًا ودبورًا وجنوبًا وشمالاً، وفي أحوالها: حارة وباردة وعاصفة ولينة، فتارة مبشرة بين يدي السحاب، وطورًا تسوقه، وآونة تجمعه، ووقتًا تفرقه، وحينًا تصرفه.

ولا شك أن هذا التصريف للرياح- مع أنها جسم لطيف لا يمسك ولا يرى وهي مع ذلك في غاية القوة بحيث تقلع الأشجار وتخرب الديار- أمر يدعو للتأمل.

وقد سخر الله الريح لإهلاك عاد قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ (الحاقة: 6 – 8).

قال الثعالبي: إذا جاءت الريح بنفس ضعيف وروح فهي النسيم، فإذا كانت شديدة فهي العاصف، فإذا حركت الأغصان تحريكًا شديدًا وقلعت الأشجار فهي الزعزعان والزعزع، فإذا جاءت بالحصباء فهي الحاصبة، فإذا هبت من الأرض نحو السماء كالعمود فهي الإعصار، ويقال لها زوبعة أيضًا، فإذا هبت بالغيرة

فهي الهبوة، فإذا كانت باردة فهي الصرصر، فإذا كان مع بردها ندى فهي البليل، فإذا كانت حارة فهي الحرور والسموم، فإذا لم تلقح شجرًا ولم تحمل مطرًا فهي العقيم، ومما يذكر منها بلفظ الجمع: الأعاصير، وهي التي تهيج بالغبار، واللواقح التي تلقح الأشجار، والمعصرات التي تأتي بالأمطار، والمبشرات التي تأتي بالسحاب والغيث.

8- ﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾:

السحاب: اسم جنس واحدته سحابة، سُمِّي بذلك لانسحابه في الجو، أو لجر الرياح له، والمسخر من التسخير، وهو التذليل والتسيير.

قال الراغب: التسخير القهر على الفعل، وهو أبلغ من الإكراه فإنه حمل الغير على الفعل بلا إرادة منه على وجه، كحمل الرحى على الطحن.

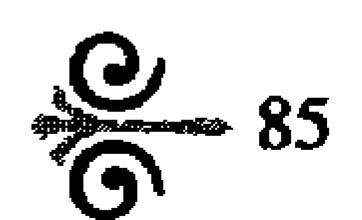
قال البقاعي: ومعنى تسخيره: تسييره بأمر الله فلا ينزل ولا يزول، مع أن الطبع يقتضي صعوده إن كان لطيفًا، وهبوطه إن كان كثيفًا.

ولكن الله سبحانه يسيره بحكمته، وينزل منه المطر برحمته.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ [1] يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ (الروم: 48).

---

(1) الودق: المطر.



ويقول عز شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي[1] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ (النور: 43).

﴿لَءَايَٰتٍ[2] لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾:

أي فيما ذكره الله من مخلوقاته العجيبة، وكائناته الباهرة لدلائل واضحة ترشد من يعقلون ويتدبرون فيها إلى أن لهذا الكون إلهًا واحدًا قادرًا حكيمًا مستحقًّا للعبادة والخضوع والطاعة.

وموقع هذه الآية من سابقتها كموقع الحجة من الدعوى؛ فالآية السابقة أثبتت الوحدانية، وهذه الآية اتجهت إلى تنبيه الحواس والمدارك والمشاعر إلى ما في هذا الكون المشاهد المنظور من أدلة متعددة، ونعم باهرة ونظام حكيم، يدل على وجود إله قادر قاهر بيده الخلق والأمر، وهو على كل شيء قدير.

* * *

---

(1) (يزجي): يسوق (ثم يؤلف بينه) يجمع كل مفترقه.
(ثم يجعله ركامًا): متراكمًا بعضه على بعض: (فترى الودق يخرج من خلاله): فترى المطر ينزل من خلال السحاب.

(2) (لآيات): اسم إن لقوله تعالى في أول الآية: (إن في خلق السموات والأرض)، ودخلت اللام على الاسم وهو (لآيات) لتأخره عن الخبر والتنكير للتعظيم والتفخيم كمًّا وكيفًا.

النص الثالث: تأمُّل ودعاء

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (آل عمران: 190، 191).

المفردات:

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا ﴾: في صلاتهم.

﴿ وَقُعُودًا ﴾: في تشهدهم وفي غير صلاتهم.

﴿ وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾: نيامًا، وهي حالات ابن آدم كلها.

﴿ مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾: عبثًا ولا لعبًا، إلا لأمر عظيم.

المعنى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾:

ذكر الله سبحانه في النص السابق ثماني آيات، واكتفى هنا بذكر اثنتين فقط؛ هما: خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار؛ لأن المقصود إثارة الانتباه، ولفت القلوب والأفئدة إلى بديع صنع الله.



والقرآن يوجه القلوب والأنظار توجيهًا مكررًا مؤكدًا إلى هذا الكتاب المفتوح، الذي لا تفتأ صفحاته تقلب فتتبدى في كل صفحة منه آية موحية تستجيش في الفطرة السليمة إحساسًا بالحق المستقر في صفحات هذا الكتاب وفي (تصميم) هذا البناء، ورغبة في الاستجابة لخالق هذا الخلق، ومودعه هذا الحق، مع الحب له والخشية منه في ذات الأوان (وأولو الألباب) أولو الإدراك الصحيح.. يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية، ولا يقيمون الحواجز، ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، فتتفتح بصائرهم، وتَشِفُّ مداركهم، وتتصل بحقيقة الكون التي أودعها الله إياه، وتدرك غاية وجوده وعلة نشأته، وقوام فطرته، بالإلهام الذي يصل بين القلب البشري ونواميس هذا الوجود... «ومشهد السموات والأرض، ومشهد اختلاف الليل والنهار، لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا، لو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة، لو استنقذنا أنفسنا من همود الإلف وخمود التكرار، لاهتزت له مشاعرنا، ولأحسسنا أن وراء ما فيه من تناسق لابد من يد تنسق، ووراء ما فيه من نظام لابد من عقل يدبر، ووراء ما فيه من إحكام لابد من ناموس لايتخلف.. وأن هذا كله لا يمكن أن يكون خداعًا، ولا يمكن أن يكون جزافًا، ولا يمكن أن يكون باطلاً»[1].

ولا ينقص من اهتزازنا للمشهد الكوني الرائع أن نعرف أن الليل والنهار ظاهرتان ناشئتان من دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس، ولا أن تناسق السموات والأرض مرتكز إلى (الجاذبية) أو غير الجاذبية، هذه فروض

---

(1) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب 4 / 545 .

تصح أو لا تصح، وهي في كلتا الحالتين لاتقدم ولا تؤخر في استقبال هذه العجيبة الكونية، واستقبال النواميس الهائلة الدقيقة التي تحكمها وتحفظها.. وهذه أيًا كان اسمها عند الباحثين من بني الإنسان هي آية القدرة، وآية الحق في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار.

والسياق القرآني هنا يصور خطوات الحركة النفسية التي ينشئها استقبال مشهد السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار في مشاعر أولي الألباب تصويرًا دقيقًا، وهو في الوقت ذاته تصوير إيماني يلفت القلوب إلى المنهج الصحيح في التعامل مع الكون، وفي التخاطب معه بلغته، والتجاوب مع فطرته وحقيقته، والانطباع بإشارته وإيحاءاته، ويجعل من كتاب الكون المفتوح كتاب (معرفة) للإنسان المؤمن الموصول بالله، وبما تبدعه يد الله.

عبادة النبي ﷺ:

ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده. قال البخاري - رحمه الله - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الآيات، ثم قام فتوضأ واستن، ثم صلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح[1].

---

(1) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني 1/ 347، دار القرآن الكريم، الطبعة الثانية بألمانيا الغربية 1396 هـ.

والآيات واردة في الأذكار والدعاء فمن شأن المؤمنين أن يتأملوا في خلق السموات وارتفاعها واتساعها وجلالها وجمالها، وفي خلق الأرض وانخفاضها وكثافتها واتضاعها وما فيها من بحار وجبال وقفار وأشجار ونبات وزرع وثمار وحيوان ومعادن ومنافع.

﴿ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾: أي في تعاقبهما وكون كل منهما خلفة للآخر، أو في تفاوتهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر، وانتقاصه بازدياده.

﴿ لَأٓيَٰتٖ ﴾: لأدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته وباهر حكمته.

﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾: أي لأصحاب العقول التامة، والأفئدة المتفتحة.

﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ فهم يستغرقون في تذكر خالقهم، ويذكرونه في جميع أحوالهم، وإنما خصَّ الأحوال المذكورة لأنها الأحوال المعهودة التي لايخلو منها الإنسان غالبًا، وليس ذلك لتخصيص الذكر بها(1).

وقيل: المراد بالذكر هنا الصلاة، كما ثبت في الصحيحين عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: «**صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنبك**»(2).

---

(1) انظر تفسير القاسمي مجلدًا ص 1066.

(2) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني 1/ 346.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: يتأملون في كتاب الكون، وفي يد الله المبدعة وهي تحركه وتقلب صفحاته وتبدع نظامه، وهو أمر لا يتيسر إلا لأصحاب الفطرة السليمة وفي لحظة تمثل صفاء القلب وشفافية الروح وتفتح الإدراك واستعداده للتلقي، كما تمثل الاستجابة والتأثر والانطباع.. إنها لحظة العبادة، وهي بهذا الوصف لحظة اتصال ولحظة استقبال.

فلا عجب أن يكون الاستعداد فيها لإدراك الآيات الكونية أكبر، وأن يكون مجرد التفكر في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، ملهمًا للحقيقة الكامنة فيها، ولإدراك أنها لم تخلق عبثًا ولا باطلًا. وقد ذمَّ الله الغافلين، ومدح أهل الفكر والعبادة بالقلب والتأمل القائلين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي ما خلقت هذا الخلق عبثًا بل بالحق لتجزي الذين أساءوا بما عملوا، وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ (المؤمنون: 115، 116).

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزهت عن أن تخلق هذا الكون باطلًا.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزهت عن العبث وأن تخلق شيئًا بغير حكمة.

﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ إن قلوبهم المتدبرة، وأفئدتهم المستبصرة، انطلقت مع ألسنتهم بذلك الدعاء الطويل، الخاشع الواجف الراجف

المنيب، ذي النغم العذب، والإيقاع المنساب، والحرارة البادية في المقاطع والأنغام.

وقد رأيت أدبهم في الدعاء فقد بدءوا بتسبيح الله وتنزيهه، ثم عقبوا بالدعاء، وفي الحديث الصحيح: «إذا صلَّى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه، والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعو بَعْدُ بما شاء». [رواه أبو داود] .

واعلم أنه لما حكى تعالى عن هؤلاء العباد المخلصين أن ألسنتهم مستغرقة بذكر الله تعالى، وأبدانهم في طاعة الله، وقلوبهم في التفكر في دلائل عظمة الله، ذكر أنهم مع هذه الطاعات يطلبون من الله الوقاية من عذاب النار، ويسألونه المغفرة لذنوبهم، والنجاة يوم القيامة، ومن دعائهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ (آل عمران: 192 – 194).

النص الرابع: مَعْرِفَة الحساب

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (يونس: 5، 6).

المفـــردات:

﴿ضِيَآءً﴾: أي ذات ضياء واشتعال، والضياء اسم مصدر من أضاء يضيء، وجمع ضوء، كسياط وسوط، وحياض وحوض ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ أي ذا نور، فيه إنارة.

والضوء والنور بمعنى واحد لغة، والضوء أقوى من النور استعمالًا بدليل هذه الآية، وقيل: الضوء لِمَا كان من ذاته كالشمس والنار، والنور لما كان مكتسبًا من غيره، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح: 16).

والسراج:

نوره من ذاته، والضياء ما أضاء لك، وشعاع الشمس مركب من ألوان النور السبعة التي ترى في قوس السحاب، فهو سبعة أضواء، وقد كشف ترقي العلوم الفلكية عن ذلك، وكان الناس يجهلونه في عصر التنزيل. ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾: أي قدره ذا منازل.

والتقدير:

جعل الشيء أو الأشياء على مقادير مخصوصة في الذات أو الصفات أو الزمان أو المكان، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: 2)، وقال: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ (يس: 39)، والمنازل: واحدها منزل، وهو مكان النزول، وهي ثمانية وعشرون منزلًا معروفة لدى العرب بأسمائها.

ويبقى من الشهر ليلة: إن كان 29، وليلتان إن كان 30 يومًا يحتجب فيها فلا يرى.

التفسير:

خلق الله السماء، وبسط الأرض ودبر نظام الكون، وجعل الشمس مضيئة نهارًا والقمر منيرًا ليلًا.

﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾: أي وقدر سير القمر في فلكه منازل ينزل كل ليلة في واحد منها لا يجاوزها ولا يقصر دونها، وهي ثمانية وعشرون منزلًا يُرى القمر فيها بالأبصار، وليلة أو ليلتان يحتجب فيها فلا يُرى.

﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾: أي لتعلموا بما ذكر من صفة النيِّرين، وتقدير المنازل حساب الأوقات من الأشهر والأيام، لضبط عباداتكم ومعاملاتكم المالية والمدنية، ولولا هذا النظام المشاهد لتعذر العلم بذلك على الأميين من أهل البدو والحضر، إذ حساب السنين والشهور الشمسية لا يُعلَم إلا بالدراسة، ومن ثَمَّ جعل الشارع الحكيم الصوم والحج وعدة الطلاق بالحساب القمري، الذي يعرفه كل واحد بالمشاهدة.

ولعبادتي الصيام والحج حكمة أخرى وهي دورانهما في جميع الفصول، فيعبد المسلمون ربهم في جميع الأوقات من حارة وباردة ومعتدلة(1).

وقد حث الشارع على الانتفاع بالحساب الشمسي بنحو قوله: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ (الرحمن: 5).

وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ (الإسراء: 12).

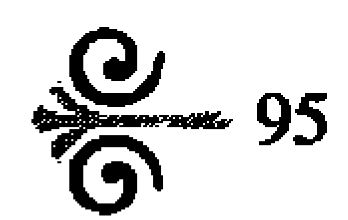
﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾: ما خلق الله ذلك إلا مقترنًا بالحق الذي تقتضيه الحكمة والمنفعة لحياة الخلق ونظام معايشهم فلا عبث فيه ولا خلل.

«كل هذا النظام، وكل هذا التناسق لا يكون عبثًا ولا باطلاً ولا مصادفة عابرة، بل تنظيم إله حكيم مدبر»(2).

---

(1) تفسير المنار: المجلد السادس ص 248، 249، وقد نقل هذا الكلام الأستاذ: أحمد مصطفى المراغي، في تفسير المراغي جزء 11 صفحة 68.

(2) مقتبس من ظلال القرآن بقلم «سيد قطب» جزء 11 صفحة 1765.



﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: يوضح الدلائل من حكم الخلق، مفصلة منوعة من كونية وعقلية، لقوم يعلمون وجوه دلالة الدلائل، والفرق بين الحق والباطل باستعمال عقولهم في فهم هذه الآيات، فيجزمون بأن من خلق هذين النيرين وما فيهما من النظام بالحق لا يمكن أن يكون خلقه لهذا الإنسان العجيب عبثًا، ولا أن يتركه سدى.

وفي الآية تنويه بفضل العلم، وكون الإسلام دينًا علميًّا لا تقليديًّا[1].

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: في حدوثهما وتعاقبهما، في طولهما وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس، والنظام الدقيق لهما، وطبيعة كل منهما وما يصلح فيه من نوم وسكون، وعمل ديني ودنيوي.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: من أحوال الجماد والنبات والحيوان، ويدخل في ذلك أحوال الرعد والبرق والسحاب والأمطار وأحوال البحار، وأحوال المعادن وسائر المخلوقات.

﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾: لأدلة ناطقة بوجود اللّه، ووحدانيته وحكمته في الإبداع والإتقان، وفي تشريع العقائد والأحكام، لقوم يتقون الله ويخافون غضبه، ويرجون رحمته ويتأملون في بديع صنعه.

والتقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل.

---

(1) تفسير المنار: جزء 11 صفحة 249، وقد عنون صاحب المنار للآيات بقوله: (تفضيل الآيات لأهل العلم، تنويه به، وحث عليه).

النص الخامس: دُعَاءُ المضطر

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٣ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارٗا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ (يونس: 22 – 24).

المفـــردات:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾: في السفن في البحر.

﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾: شديدة.



﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾: أن الهلاك قد أحاط بهم، وأحدق بهم.

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: دون آلهتهم وأوثانهم.

﴿ٱلدِّينَ﴾: الطاعة، لا يدعون سواه.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ﴾: يعني الذين أحيط بهم.

﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ﴾: يتجاوزون أمر الله إلى الكفر والعصيان.

﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾: إياها تظلمون، وعليها تعتدون، لما توجبون عليها من سخط الله ونقمته.

﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾: إنما هو متاع لكم في الحياة الدنيا.

﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾: فنبت بذلك المطر أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾: زينتها وبهاءها.

﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾: تزينت.

﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ﴾: أهل الأرض.

﴿قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾: على ما أنبتت.

﴿أَمۡرُنَا﴾: قضاؤنا بهلاك ما على الأرض من نبات.

﴿فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا﴾: فجعلنا ما عليها مقطوعًا مقلوعًا من أصله.

﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ﴾: كأن لم تَعِشْ أو كأن لم تنعم.

يقـول: كأن لـم تكن تلك الـزروع والنبـات على ظهـر الأرض نابتة قائمة على الأرض قبل ذلك بالأمس.

التفسيــــــر:

22- اللـه تعالـى يمدكم بتوفيقه وحفظه عند سـيركم فـي البحر والجو، وهـو صاحـب الفضـل أن مهد لكم الأرض، وسـخر لكـم البحر، ويعـرض القرآن لوحة حافلة بالحيـاة والحركة مليئة بالانفعالات، هـي صـورة ركـب فـي سـفينة، تسـير رخـاء بريـح طيبة يفـرح بها الراكبـون، ثـم فاجأهـم موقف خطيـر يحتوي على ريـاح عاصفة، وأمـواج عالية، واغتلم البحر، واشـتدت الأزمـة، واقترب الموت، وساد الفزع والخوف.

في هذه الشدة لا يلجأ الإنسان إلا إلى الله، مخلصًا له الدعاء والنداء، متضرعًا إليه في البأساء، مترددًا إليه في شدة الاضطراب والخوف.

قـال تعالـى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: 67).

وهـذا دليـل جديد من دلائل الألوهية، دليـل الدعاء والالتجاء إلى هـذه القـوة الغيبيـة فـي الشـدة والاضطـرار، وهـم يناشـدون الله ملحفيـن في الدعاء لئن تفضل عليهم بالنجـاة، وأنقذهم من براثن الموت، ليخلصن له العبادة وليشكرنه على نعمه، شكرًا يليق بذاته الكريمة، فلا يشـركون معه في العبادة أحدًا، وليفردنه بالعبادة كما أفردوه بالدعاء.

23- فلما أنجاهم الله من هذه الشدة، ومنَّ عليهم باليسر بعد العسر، وبالفرج بعد الكرب، وأعادهم إلى البر سالمين غانمين، إذا بهم ينسون عهدهم، وينقضون ميثاقهم، ويسرفون في البغي والعدوان، ويتسلطون على عباد الله ظلمًا وعدوانًا، وينسون حق الله عليهم، وحق العدالة والإنسانية، فحق الله عليهم: أن يعبدوه وألا يشركوا به شيئًا، وحق العباد: أن ينصفوهم من أنفسهم وألا يتطاولوا عليهم بالظلم والبغي والعدوان.

وقد رددت آيات القرآن هذا المعنى، فكشفت عن طبيعة الإنسان، وهي الالتجاء إلى الله في الشدة، والإعراض عن الله في الرخاء والنعمة.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ (فصلت: 51).

وقال عز شأنه: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (يونس: 12).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ (الزمر: 8).

وينبه القرآن الناس إلى أن البغي لا يدوم، فللظالم يوم يعض فيه على يديه والبغي مرتعه وخيم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾، فالظالم يظلم نفسه، ويعرضها للحساب والعقاب، وهو الذي سيتحمل مسئولية هذا الظلم في يوم الحق والجزاء.

﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٍ مُّحۡضَرًا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدًاۗ﴾ (آل عمران: 30).

﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: أي إنما هو لكم متاع في الحياة الدنيا الفانية المحدودة[1] أي أن البغي عاقبته وخيمة على الباغي، ومتعته محدودة بهذه الحياة، أو أن الباغي يبغي على إنسان مثله، ويقضي متعة محدودة، ثم يبغي عليه إنسان آخر فذلك شأن الدنيا، تهارش وتناوش، وتنازع البقاء وتنافس في متع الدنيا، والعدوان على الآخرين، وهناك قصاص عادل من رب الأرض والسماء ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ ثم يقف الإنسان أمام الله ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان فيسأله عما قدم في دنياه، وعن نقضه عهد الله، ويخبره بحصيلة عمله في هذه الحياة.

---

(1) قال النسفي: (متاع الحياة الدنيا) بالنصب قراءة حفص أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا، و«على أنفسكم» خبر لبغيكم، وقرأ غير حفص بالرفع على أنه خبر بغيكم و«على أنفسكم» صلته، كقوله: «فبغى عليهم» ومعناه: إنما بغيكم على أمثالكم، أو هو خبر ومتاع خبر بعد خبر، أو متاع خبر مبتدأ مضمر أى متاع الحياة الدنيا، وفي الحديث: «أسرع الخير ثوابًا صلة الرحم، وأعجل الشر عقابًا البغي واليمين الفاجرة».

﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾:

وقد صرح القرآن بهذا المعنى في كثير من آياته مثل قوله سبحانه:

﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (المجادلة: 6).

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف: 49).

24- ومن شأن القرآن أن يضرب الأمثال تشبيهًا للمعقول بالمحسوس، وإبرازًا للمعنى المقصود في صورة حسية مجسمة يراها الناظر ويتأملها.

ومن هذه الأمثال تشبيه الدنيا في إقبالها وجمال بهجتها، وحسن منظرها، ثم في سرعة تحويلها وانتهاء أمرها، بحال المطر ينزل من السماء فيختلط بالنبات، ثم يثمر النبات وينمو، وتزدهر الزروع والثمار، بما يأكل منه الناس والأنعام وتدب الحياة في الأرض، وتعمها الخضرة والجمال، ويصبح وجهها كالبساط السندسي، وترى الأرض في أبهى حلتها وزينتها، كالعروس الحسناء ليلة زفافها، أى أن جني الثمرة أصبح وشيكًا، وقطف الثمار صار قاب قوسين أو أدنى.

فإذا نظر الزارع إلى أرضه، أعجبه الزرع، ومنَّى نفسه بيوم الحصاد، وظن أن الزرع لن يفلت من يده، فهو قادر على جني الثمرات في يوم قريب.

ثـم حدثـت المفاجأة: فجاء أمر الله وقدره، وأرسـل بأسـه وعقابه علـى هـذا الـزرع، فصار يابسًـا بعـد الخضـرة والنضـارة، وتحول العرس إلى مأتم وموسم حصاد الزرع إلى حصاد الندم.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾: نبيـن الحجـج والأدلـة ونوضح الأمثال ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعتبـرون بهذا المثل، في سـرعة زوال الدنيا عـن أهلهـا، مع اغترارهم بهـا، وتفلتها من بين أيديهـم، والدنيا إذا حلت أوحلت، وإذا كست أوكست، وإذا أقبلت على رجل أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عن رجل سلبته محاسن نفسه.

وقـد ضـرب القـرآن هـذا المثـل فـي كثير مـن الآيات محـذرًا من الاغتـرار بالدنيـا، مبينًـا سـرعة نهايتها وفجـأة تحولها قـال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ (الكهـف: 45، 46) وتجـد هـذا المعنـى فـي (الآية 21 من سورة الزمر) [1] كما تجده في (الآية 20 من سورة الحديد)[2].

---

(1) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

(2) ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.



وجهة نظر:

بعض العلماء يرى في هذه الآية دليلًا على نهاية الكون، واحتمال هذه النهاية فجأة بين عشية وضحاها، عندما يظن الإنسان أنه امتلك ناصية الكون، وأصبح قادرًا على تحطيم الذرة، أو إطلاق صاروخ إلى القمر، فإن ذلك لن يمنع إنهاء حياته، وإنهاء حياة الكون عندما تتعلق بذلك مشيئة الله وإرادته. والمتخصصون من علماء الطبيعة يرون أن عمر الكون محدود، فالكون موجود من عدم، وستنتهي حياة هذا الكون بحسب قوانين الطبيعة. يقول الأستاذ الدكتور زغلول النجار متحدثًا عن النجوم:

«وتختلف النجوم في أحجامها وألوانها، وفي درجات حرارتها، ويعتقد العلماء أن النجوم التي في السماء تختلف اختلافًا كبيرًا في أعمارها، وأنها تمر بدورة تشبه دورة الحياة على الأرض، فهي تبدأ نجومًا زرقاء حارة، ثم تصير بيضاء فصفراء، ثم تصير في آخر الأمر نجومًا باردة حمراء، والنجوم كلها تتحرك في الفضاء الكوني في اتجاهات ثابتة محددة».

ويتحدث في مكان آخر عن النجوم والكواكب فيقول:

«وبالسماء ما يعرف باسم النجوم البيضاء القزمة، ومادتها ذات كثافة هائلة، ويعتقد بأنه دور لشيخوخة في حياة النجم العادي، وفي مادة هذه النجوم القزمة، يعتقد أن الإلكترونات في حالة انحلال بمفهوم نظرية الكم، وحتى بمفهوم النظرية النسبية في بعض الحالات، وهناك أيضًا حدٌّ أعلى لكتلة النجم التي تكون في وضع اتزان ميكانيكي في مثل هذه الحالات».

ويتحدث عن الشمس فيقول:

«وتبلغ درجة حرارة السطح الخارجي للشمس ستة آلاف درجة مئوية تقريبًا، بينما تتزايد تجاه مركزها إلى حوالي عشرين مليون درجة مئوية، وبالتحليل الطيفي لأشعة الشمس تبين أن الشمس تحتوي على نفس العناصر التي تتكون منها الأرض، ولكن بنسبة متفاوتة كثيرًا، حيث يكوِّن الهيدروجين معظم كتلة الشمس.

والشمس في تمدد مستمر، ولولا ذلك لانفجرت كقنبلة هيدروجينية هائلة، والشمس تشع أضواءها في الفضاء المتسع منذ نشأتها، وهي تفقد من طاقتها في الثانية الواحدة ما يعادل خمسمائة وثمانية آلاف مليون مليون مليون قوة حصان.

ولما كان للطاقة كتلة، فإن الشمس تفقد من كتلتها ما يعادل خمسة ملايين من الأطنان في كل ثانية، وعلى ذلك فقد حسب أنه بعد خمسة آلاف مليون سنة من الآن ستتوهج الشمس أكثر من ذلك ألف مرة، ويزداد حجمها مائة مرة، ثم بعد 15 ألف مليون سنة من الآن ستتحول الشمس إلى ما يعرف بالنجوم البيضاء القزمة، وحينئذ تنطفئ جذوتها ويخبو نورها، وهذا بالطبع إذا استمرت الأمور في إطارها العادي دون طارئ خارجي يتدخل من إرادة عظمى تهيمن على هذا الكون وتسيره»(1).

---

(1) محاضرات الموسم الثقافي لعام 72 – 1973، إصدار حكومة أبو ظبي (الإمارات العربية المتحدة): محاضرة الإنسان والكون للأستاذ الدكتور زغلول راغب النجار.

لقد أخبر القرآن الكريم أن الدنيا محدودة الأجل، وإذا جاء يوم القيامة انشقت السماء، وامتدت الأرض، ونسفت الجبال، وفجرت البحار، وكورت الشمس، وانكدرت النجوم.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ (٥٠) لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٥١) ﴾ (إبراهيم: 48 - 51).

النص السادس: عِلمُ الله

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ (هود: 6، 7).

المفـــردات:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: يعني: كل ما دب على الأرض، والناس منهم.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾: الموضع الذي تستقر فيه، وتأوي إليه، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: حيث يودعها بموت أو دفن.

﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾: عند الله ﷻ مكتوب مثبت.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: ليختبركم.

التفسيــــر:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

تصور الآية علم الله الشامل المحيط بكل ما يدب على الأرض، من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة وحشرة وطير، وهو سبحانه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض صغيرها وكبيرها، وما من دابة من هذه الدواب إلا وعند الله علمها، وعلى الله رزقها، وهو يعلم أين تستقر وأين تكمن، ومن أين تجيء وأين تذهب، وكل فرد من أفرادها في هذا العلم الدقيق.

إنها صورة متصلة للعلم الإلهي في حالة تعلقه بالمخلوقات، يرتجف لها كيان الإنسان حين يتصورها بخياله فلا يطيق، فسبحان من أحاط بكل شيء علمًا.

* * *

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾: تشير الآية إلى أن خلق الكون قد مر بفترات زمنية طويلة جدًّا، ولم يكن في ذلك الوقت شمس أو قمر أو ليل أو نهار، ويرى بعض المفسرين أن معنى الآية: في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا.

ونجد في القرآن الكريم: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (الحج: 47).

ويقول سبحانه: ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج: 4).

ويقول عز شأنه: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (السجدة: 5).

وقد فسر بعضهم خلق السموات والأرض في ستة أيام، على أنها تعني مراحل، أو فترات طويلة أو عصورًا.

وفي الآيات (9 – 12) من سورة فصلت: يقول سبحانه: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ (فصلت: 9 – 12).

ويقول عز شأنه: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ (النازعات: 27 – 33).

ويقول بعض المفسرين إن الدحو غير الخلق، فيمكن أن تكون الأرض قد خلقت غير مدحوة ثم أتم الله خلق السماء، وبعد ذلك أتم خلق الأرض فدحاها، ويسر لها الماء والمرعى والجبال، والتأمل في الآيات العديدة التي تحدثت عن خلق السموات والأرض، وعن خلق الكون، يجعلنا نخلص إلى النقاط الآتية:

1- وجود مراحل ستة للخلق عمومًا.

2- تداخل مراحل خلق السموات مع مراحل خلق الأرض.

3- خلق الكون ابتداء من كومة أولية فريدة كانت تشكل كتلة متماسكة انفصلت أجزاؤها بعد ذلك.

4- تعدد السموات وتعدد الكواكب التي تشبه الأرض.

5- وجود خلق وسيط بين السموات والأرض.

6- إن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأوليّ في العلم الحديث، والدخان على حسب القرآن للدلالة على الحالة الغازية للمادة التي كونت في هذه المرحلة الأولى.

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾.

تفيد آيات أخرى أن الماء أصل جميع الحياة والأحياء.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (الأنبياء: 30).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**».

قال مجاهد: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ قبل أن يخلق شيئًا.

وقال ابن عباس: إنما سمي العرش عرشًا لارتفاعه.

وعن سعيد بن جبير: سئل ابن عباس عن قول الله: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ على أي شيء كان الماء ؟ قال: على متن الريح[1].

أصل الحياة:

شغلت هذه المسألة الإنسان في كل العصور، سواء ما كان يخصه منها أو ما يخص الكائنات المحيطة به، وعندما يواجه القرآن أصل الحياة على مستوى عام تمامًا، فإنه يذكر ذلك بإيجاز بالغ مثل قوله:

(1) مختصر تفسير ابن كثير: اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني 2 – 212، وهو كلام يحمل على مسئولية قائله، أو هو تفسير خاص بصاحبه.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء: 30).

والرتق ضد الفتق، ومعنى ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي كانتا ملتصقتين، ففتق الله هذه من هذه فرفع الله السماء ووضع الأرض وفصل بينهما بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (والعبارة يمكن أن تعني أن كل شيء مصدره الماء كمادة جوهرية، أو أن أصل كل شيء حي هو الماء)، ويتفق هذان المعنيان تمامًا مع العلم، فالثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائي وأن الماء هو العنصر الأول لكل خلية حية، فلا حياة ممكنة بلا ماء، وإذا ما نوقشت إمكانية الحياة على كوكب ما، فإن أول سؤال يطرح هو: أيحتوي هذا الكوكب على كمية كافية من الماء للحياة عليه؟ وتسمح المعطيات الحديثة بالاعتقاد بأن أقدم الكائنات الحية كانت تنتمي إلى عالم النبات: فقد اكتشفت طحالب ترجع إلى ما قبل العصر الكمبري، أي في أقدم الأراضي المعروفة، ولا بد أن عناصر عالم الحيوان قد ظهرت بعد ذلك بقليل، وقد أتت أيضًا في المحيطات.

وتشير كلمة ماء إلى ماء السماء كما تعني ماء المحيطات أو أي سائل آخر، وبالمعنى الأول فالماء هو العنصر اللازم لأي حياة نباتية، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ (طه: 53).

إن كلمة ماء بمعناها الثاني؛ أي ذلك الذي يعني (سائل) دون أي تحديد، مستخدمة في شكلها غير المحدد للدلالة على ما هو أصل تشكل أي حيوان.



قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ (النور: 45).

وتنطبق كلمة ماء هنا أيضًا على السائل المنوي[1] وسواء كان المقصود هو أصل الحياة عمومًا أو العنصر الذي يجعل النباتات تولد في التربة، أو كان المقصود هو بذرة الحيوان فإن كل عبارات القرآن تتفق تمامًا مع المعطيات العلمية الحديثة، ولا مكان مطلقًا في نص القرآن لأي خرافة من الخرافات التي كانت منتشرة في عصر تنزيل القرآن الكريم»[2].

ويمكن أن تدل جملة: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾، على معنى: وكان ملكه قائمًا وثابتًا لأصل هذا الكون، وأساس كل شيء في هذه الحياة، وهو مدلول: كان الله ولا شيء معه، فهو سبحانه أول بلا ابتداء، وآخر بلا انتهاء، وهو الذي أوجد الخلق من العدم، وهو يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه.

ويكون معنى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي أصل كل الأحياء، أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء. قال: «كل شيء خلق من ماء» قال: قلت : أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة. قال: «**أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس**

---

(1) سائل مُفْرَز بواسطة الغدد الخاصة بالتناسل، وهو يحتوي على الحيوانات المنوية.

(2) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، للمستشرق موريس بوكاي، الترجمة العربية نشر دار المعارف بالقاهرة ص 212.

نيام، ثـم ادخـل الجنة بسـلام[1]»، وفي نهايـة المطاف نجد أن المسـلم مطالـب بالإيمان بالمحكم، والتفويض إلى الله في المتشـابه والتسـليم بصـدق مـا أخبـر بـه القـرآن، وإن عجـز العقـل المحـدود عـن تحديد المقصود، قال تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: 7).

أقــوال المفسريـــن:

جاء في تفسير المراغي لهذه الآية: «والخلاصة أن الماء أصل جميع الأحياء وهو الذي ينزل إليه أمر التدبير والتكوين»[2].

خلاصة ما ورد في تفسير المنار للسيد رشيد رضا:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ مـن أيـام اللـه تعالـى فـي الخلق والتكوين وما شـاء من الأطوار، لا مـن أيامنا في هذه الدار التي وجدت بهذا الخلق لا قبله، فلا يصح أن تقدر أيام الله بأيامها كمـا توهـم الغافلـون عن هـذا، وما يؤيده مـن قولـه: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (الحج: 47) وقولـه: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج: 4) وقـد ثبت في علم الهيئة الفلكية أن أيام غير الأرض من الدراري التابعة لنظام شمسـنا

---

(1) الحديـث أخرجه الإمام أحمد، وإسـناده على شـرط الصحيحيـن، وأخرج ابن أبي حاتـم بعضه، اهـ نقلًا عن مختصر تفسـير ابن كثيـر تحقيق: محمد علي الصابوني 2 - 506.

(2) تفسير المراغي 6 - 12.

هـذه تختلف عن أيام هـذه الأرض في طولها، بحسب اختلاف مقادير أجرامها وأبعادها، وسرعتها في دورانها، وأن أيام التكوين بخلقه من الدخان المعبر عنه بالسديم شموسًا مضيئة، تتبعها كواكب منيرة، يقدر اليوم منها بآلاف الألوف من سنينا، بل من سني سرعة الضوء أيضًا.

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ أي وكان سرير ملكه في أثناء هذا الطور من خلق هذا العالم أو من قبله على الماء. والمعنى الكلي المفهوم من العرض أنه مركز نظام الملك، ومصدر التدبير له، وأن المتبادر في الاستعمال اللغوي استعمالهم: «استوى على عرشه» بمعنى: ملك أو استقام أمر الملك له، وثل عرشه: بمعنى هلك وزال ملكه. ونحن نعلم أن عروش ملوك البشر تختلف مادة وشكلًا، وهي من عالم الشهادة، وصنع أيدي البشر، كذلك يختلف النظام للتدبير الذي يصدر عنها، فعرش ملكة سبأ العربية العظيم، كان أعظم من عرش سليمان ملك إسرائيل، ولكن تدبيرها وحكمها الشوري (الديمقراطي) كان دون حكمه الشرعي الديني، ورُبَّ عرش من الذهب، وعرش من الخشب، وأما عرش الرحمن ﷻ فهو من عالم الغيب الذي لا ندركه بحواسنا، ولا نستطيع تصويره بأفكارنا، فأجدر بنا ألا نعلم كنه استوائه عليه، وصدور تدبيره لأمر هذا الملك العظيم عنه، وحسبنا أن نفهم الجملة[1]، ونستفيد العبرة، فما أجهل الذين تصدوا لتأويل هـذه الحقائق الغيبية بأقيستهم وآرائهم البشرية ! وما أحسن ما روي عن أم سلمة رضي الله عنها وربيعة ومالك، من قولهم: الاستواء معلوم والكيف مجهول.

---

(1) عبارة المنار: أن نفهم الكتابة، وهي تصحيف عن الكناية.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ فنفهم منه أن الذي كان دون هذا العرش، من مادة هذا الخلق قبل تكوين السموات. والأرض أو في أثنائه هو هذا الماء، الذي أخبرنا الله ﷻ أنه جعله أصلًا لخلق جميع الأحياء، إذ قال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء: 30).

والمعنى: ألم يعلموا أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة، لا فتق ولا انفصال، وهو ما يسمى في عرف علماء الفلك بالسديم، وبلغة القرآن بالدخان، (ففتقناهما) بفصل بعضهما عن بعض، فكان منها ما هو سماء ومنها ما هو أرض ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ في المقابلة لحياة الأحياء ﴿كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بأن الرب الفاعل لهذا، هو الذي يُعْبَدُ وحده ولا يُشْرَكُ به شيء، وأنه قادر على إعادة الخلق كبدئه ؟ فيفهم من هذا وذاك، أن الذي كان تحت العرش فينزل إليه أمر التدبير والتكوين منه، هو الماء الذي هو أصل لجميع الأحياء، لا ما تخيله بعض المفسرين الفنيين في الماء والعرش، مما تأباه اللغة والعقل والشرع، والعبارة ليست نصًّا في أن ذات العرش المخلوق كان على متن الماء، كالسفن التي نراها راسية فيه الآن كما قيل، فإن فائدة الإخبار بمثل هذا إن كان واقعًا في ذلك العهد، هو دون فائدة ما ذكرنا من معنى العرش الذي بيناه، وهو الذي يزيدنا معرفة بربنا وبحكمه في

خلقه، وهو الذي يتفق مع نظريات علم التكوين[1] وعلم الحياة وعلم الهيئة الفلكية، وما ثبت من التجارب فيها، وبهذا يعد من عجائب القرآن التي تظهر في كل زمان ومكان»[2].

ثم قال السيد رشيد رضا:

فأصل السديم المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ (فصلت: 11)، وأصل خلق الأحياء النباتية والحيوانية من الماء لا يزال ثابتًا عند جميع العلماء، وقد عبر به عن مادة التكوين، التي هي مادة خراب العالم، التي ترجع بها هذه الأجرام إلى مادتها الأصلية بقوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ (الدخان: 10)، وعبر عنه كذلك بالغمام في قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ (الفرقان: 25)، وقوله ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ (البقرة: 210).

والغمام في اللغة السحاب الرقيق، فالدخان والغمام والبخار والسديم كلها مظاهر لهذه المادة اللطيفة (الماء).....

---

(1) إن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأولي في العلم الحديث، والدخان على حسب دلالة القرآن للدلالة على الحالة الغازية الغالبة للمادة التي كونت الكون في هذه المرحلة الأولى، فلعل كناية القرآن بقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ للإشارة إلى الحالة الغازية الغالبة للمادة التي كونت الكون أو لعلها كناية عن ملك الله تعالى لأصل الحياة والأحياء.

(2) تفسير المنار جزء 12 ص 16 طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

والسديم في اللغة: الغمام والضباب، واختاره علماء الفلك على الدخان وغيره، ولا مشاحة في الاصطلاح[1].

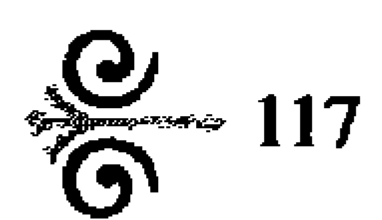
وجاء في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ما يأتي:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ لقد أخبرنا الله تعالى أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام في سورة يونس، والجديد هنا في خلق السموات والأرض هو الجملة المعترضة ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ وما تفيده من أنه عند خلق السموات والأرض؛ أي إبرازهما إلى الوجود في شكلهما الذي انتهتا إليه، كان هناك الماء، وكان عرش الله سبحانه على الماء، أما كيف كان هذا الماء، وأين كان، وفي أية حالة من حالاته كان، وأما كيف كان عرش الله على هذا الماء.. فزيادات لم يتعرض لها النص، وليس لمفسر يدرك حدوده أن يزيد شيئًا على مدلول النص، في هذا الغيب الذي ليس لنا من مصدر لعلمه إلا هذا النص وفي حدوده، وليس لنا أن نتلمس للنصوص القرآنية مصداقًا من النظريات التي تسمى (العلمية) حتى ولو كان ظاهر النص يتفق مع النظرية وينطبق، فالنظريات العلمية قابلة دائمًا للانقلاب رأسًا على عقب.....

إن القرآن هو الأصل، والنظريات العلمية توافقه أو تخالفه سواء، أما الحقائق العلمية التجريبية فمجالها غير مجال القرآن، وقد تركها القرآن للعقل البشري يعمل فيها بكامل حريته، ويصل إلى النتائج التي

---

(1) تفسير المنار 12 ص 18، 19 بتصرف واختصار.



يصل إليها بتجاربه، ووكل نفسه بتربية هذا العقل على الصحة والاستقامة والسلامة، وتحريره من الوهم والأسطورة والخرافة»[1].

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: لقد خلق الله الكون في ستة أيام وأتم إعماره وتجهيزه للإنسان، وهو سبحانه مسيطر على الكون كله ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ والسياق يظهر أن خلق السموات والأرض، وإحكام نظام هذا الكون - مع سيطرة الله تعالى على مقاليده - كان من أجل ابتلاء الإنسان واختباره، وقد أمد الله الإنسان بالعقل والإرادة والاختيار، والاستعداد للاستقامة والانحراف، ليجزي كل عامل بما عمل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف: 7).

لقد خلق الله الكون وأمده بمقومات الحياة، وسيطر بقدرته على هذا الملك العظيم، ثم خلق الإنسان ووهبه العقل والتفكير والاختيار، والقدرة على عمل الخير والشر، ثم أعد حياة أخرى للحساب والجزاء ومثوبة الطائع، ومعاقبة العاصي، ولكن الكافرين ينكرون البعث والحشر: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (هود: 7).

أي ولئن أخبرت هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم للحساب والجزاء ليجيبنك الذين كفروا بلقاء الله قائلين: ما هذا القول إلا سحر بيّن ظاهر، تسحر به العقول، وتسحر به الضمائر والقلوب،

(1) في ظلال القرآن بقلم الأستاذ سيد قطب المجلد 4 جزء 12 ص 1858.

لتمنعنا عن لذات الدنيا وتصرفنا عن متعنا إلى دعوتك. وقد ألف الناس إطلاق السحر على كل أمر بديع غريب فائق، ومن ذلك قول فرعون وملئه لموسى: ﴿ وَقَالُواْ يَتَأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف: 49)، وفي الحديث: «إن من البيان لسحرًا» وكأن الكفار أحسوا بما في القرآن من الروعة والجلال والمقدرة الفائقة، والسيطرة على النفوس والأخذ بزمام الأفئدة فادَّعوا أنه سحر يؤثر، ونسبوه إلى المردة والشياطين؛ لأنه فوق طاقة البشر، ولو أنصفوا لقالوا: إنه وحي السماء وكلام الله رب العالمين.

من بدع التفاسير:

قال النسفي: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ وما بينهما ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ من الأحد إلى الجمعة تعليمًا للتأني ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ أي فوقه يعني ما كان تحته قبل خلق السموات والأرض إلا الماء، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السموات والأرض. قيل: بدأه بخلق ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء، ثم خلق ريحًا فأقر الماء على متنه، ثم وضع عرشه على الماء، وفي وقوف العرش على الماء أعظم اعتبار لأهل الأفكار[1].

ونلاحظ أن كثيرًا مما يتعلق بأخبار بدء الخليقة، قد نقله المفسرون عن الإسرائيليات وهي أخبار نقلت عن بني إسرائيل، وقد أمرنا نبينا

(1) تفسير النسفي 2 – 180.



قائلًا: «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا، وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد»[1].

أقســـام الإسرائيليـــات:

تنقسم الأخبار الإسرائيلية إلى أقسام ثلاثة:

القســم الأول: ما يعلم صحتــه لموافقته للقرآن أو الســنة الصحيحة، مثل تعيين صاحب موسى بأنه الخضر، فقد جاء هذا الاســم صريحًا في حديث البخاري[2] وهذا القسم صحيح ومقبول.

القســم الثاني: ما يعلم كذبه بأنه يناقض ما عرفناه من شرعنا أو يكون مخالفًا لما يقرره العقل، وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته.

القســم الثالث: هو المسـكوت عنه فلا هو من قبيل الأول ولا هو من قبيل الثاني، وهذا القسم نتوقف فيه فلا نصدقه ولا نكذبه[3].

وغالب هذا القســم الثالث مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني؛ ولهذا يختلـف أهــل الكتاب فيه كثيرًا، ويختلف المفسـرون عادة بسـبب ذلك كما يذكرون في مثل أسماء أصحاب أهل الكهف ولون كلبهم، وأسماء الطيـور التي أحياهـا إبراهيم، وتعيين البعض الذي ضـرب به القتيل من البقرة، ونوع الشـجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه اللـه تعالى في القرآن، حيث لا فائدة منه تعود على المكلفين في دنياهم

---

(1) البخاري في كتاب التفسير: 8 – 120 من فتح الباري.

(2) باب التفسير 8 – 297 من فتح الباري.

(3) القرآن والتفسير للدكتور عبد الله شحاتة ص 251.

أو دينهـم، ولكن نقل الخلاف عنهم جائز، كما قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾... إلـى آخـر الآية، ويقول أحمد شـاكر: إن إباحة التحـدث عنهـم شـيء، وذكر ذلك في تفسـير القرآن شـيء آخـر؛ إذ إنه يوهم البيان والتفصيل لكتاب الله، وحاشا لله ولكتابه من ذلك[1].

(1) عمدة التفاسير عن الحافظ ابن كثير ص 14.

النص السابع: الغفلة عن التفكر في آيات الله

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف: 105).

المفـــردات:

﴿وَكَأَيِّن﴾: بمعنى وكم.

﴿مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: من عبرة وحجة كالشمس والقمر وغيرهما من آيات الله.

﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾: يعاينونها.

﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾: لا يتفكرون فيها.

* * *

التفسيـــر:

«يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلق الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات،

وأفلاك دائرات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وحيوان ونبات، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات، المنفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات»[1].

والقرآن بهذه الآيات يحث الإنسان على التأمل والنظر في بديع صنع الله في السماء والشمس والقمر والليل والنهار والضحى والظهيرة والأصيل والغروب، وفي الأرض والجبال والبحار والأنهار والسهول والنبات والرياح والأمطار، وخلق الإنسان والحيوان وسائر الكائنات، وأن أحدًا لا يمكنه حفظ نظام الكون إلا الله العلي القدير ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: 17).

قال في الميزان:

ومعنى الآية: «أن هناك آيات كثيرة سماوية وأرضية تدل بوجودها والنظام البديع الجاري فيها على توحيد ربهم وهم يشاهدونها واحدة بعد أخرى فتكرر عليهم والحال أنهم معرضون عنها لا ينتبهون»[2].

---

(1) مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني 2 – 264.

(2) الميزان في تفسير القرآن لمؤلفه السيد محمد حسين الطباطبائي، الطبعة الثالثة سنة 1396 هـ مجلد 11 جزء 13 ص 303.

النص الثامن: مِهْرَجان الصّور والمشاعر

﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (الرعد: 1 – 4).

المفردات:

﴿ الٓمٓر ﴾: هذه حروف للتحدي والإعجاز، أو هي مما استأثر الله بعلمه، أو هي لافتتاح الكلام، أو أسماء للسور، وقيل هي إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته، ويجوز أن تشتمل على جميع المعاني التي ذكرها العلماء في تفسيرها.

﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾: لمصالح خلقه.

﴿ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾: لوقت معلوم، وذلك إلى فناء الدنيا وقيام القيامة، التي عندها تكور الشمس ويخسف القمر.

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾: أمر السموات والأرض وحده بلا ظهير ولا معين.

﴿ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ ﴾: يبينها لكم.

﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾: وبوحدانيته ووعده ووعيده.

﴿ مَدَّ ٱلْأَرْضَ ﴾: بسطها أمام البصر طولًا وعرضًا، وأمدَّها بمقومات الحياة.

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾: جبالًا ثابتة، وهي جمع راسية، يقال: أرسيت الوتد في الأرض، إذا أثبتَّه.

﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾: وجعل فيها زوجين اثنين من كل الثمرات.

﴿ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾: نوعين وضربين.

﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾: يجلل الليل النهار فيلبسه ظلمته، والنهار الليل فيلبسه ضياءه.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ ﴾: استدلالات وحجج لمن فكر، فيعلم أن العبادة لا تجوز إلا للخالق ﷻ.

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾: أراضٍ يجاور بعضها بعضًا مع اختلاف طبيعة كل قطعة ولونها، فهذه طيبة وهذه سبخة مالحة، وهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء وهذه صفراء وهذه سوداء، وهذه محجرة وهذه سهلة، وهذه سميكة وهذه رقيقة.

﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾: مـن النبات ما له أصـول مجتمعة في منبت واحـد كالرمان والتين، وهو الصنـوان؛ أي ما له عودان أو أكثر في أصل واحد، وغير صنوان: ما كان على أصل واحد وعود واحد.

وواحد الصنوان: صنو، وفي الصحيح: «عم الرجل صنو أبيه».

﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ﴾: من السماء ومن شرب واحد.

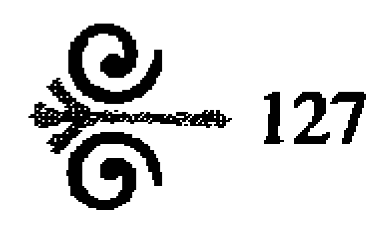
﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ﴾: فمنهـا حلـو ومنهـا حامـض ومز، وقيل: هو مثل في بني آدم، أبوهم واحد، ومنهم الصالح والخبيث.

التفسيـــر[1]:

سـورة الرعد من أعاجيب السور القرآنية، التي تستولي على النفس، وتثيـر الوجـدان وتزحـم الحس بالصور والمشـاهد، وتسـلك السـورة سـبيلها إلى القلب، وترتاد به آفاقًا وأكوانًا وعوالم وأزمانًا، وهو مستيقظ مبصـر مـدرك شـاعر بما يمـوج حوله مـن المشـاهد والصـور، تعرض السورة مجالات الكون الأخاذة في السموات المرفوعة بغير عمد، وفي الشمس والقمر كل يجـري لأجل مسمى، وفي الليل يغشاه النهار، وفي الأرض الممـدودة ومـا فيهـا مـن رواسٍ ثابتـة، وأنهار جاريـة، وجنات وزرع ونخيل مختلف الأشـكال والطعـوم والألوان، ينبت في قطع من الأرض متجاورات، ويسقى بماء واحد.

***

(1) مـن كتـاب «أهـداف كل سـورة ومقاصدها فـي القرآن الكريـم» للدكتـور عبد الله شحاتة.



مشاهد الكون في سورة الرعد:

تبدأ سورة الرعد بقضية عامة من قضايا العقيدة: قضية الوحي بهذا الكتاب والحق الذي اشتمل عليه، فيقول سبحانه:

﴿ الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الرعد: 1).

وهذا الافتتاح يلخص موضوع السورة كله، ويشير إلى جملة قضاياها، وتسترسل السورة في استعراض آيات القدرة، وعجائب الكون الدالة على قدرة الله الخالق، الناطقة بأن من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك وحي لتبصير الناس، وأن يكون هناك بعث لحساب الناس، وأن من مقتضيات هذه القدرة أن تكون مستطيعة بعث الناس، ورجوعهم إلى الخالق الذي بدأهم، وبدأ الكون كله قبلهم، وسخره لهم ليبلوهم فيما آتاهم، وتبدأ الآيات الرائعة في رسم المشاهد الكونية الضخمة نظرة إلى السموات ونظرة إلى الأرضين ونظرة إلى مشاهد الأرض وكوامن الحياة.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (الرعد: 2، 3).

وهـذه اللفتة الأولى إلى مظاهـر القـدرة الإلهيـة تحرك الوجـدان، فيقـف أمـام هـذا المشـهد الهائل يتمـلاه، ويدرك أنه ما مـن أحد يقدر على رفع السماء بلا عمـد - أو حتى بعمد - إلا الله، وقصارى ما يرفعه النـاس بعمـد أو بغير عمد تلـك البنايات الصغيـرة الهزيلـة، القابعة في ركـن ضيـق مـن الأرض لا تتعـداه، ثـم يتحـدث النـاس عما فـي تلك البنايات من عظمة ومن قدرة وإتقان، غافلين عما يشملهم ويعلوهم من سـموات مرفوعـة بغير عمد، وعمـا وراءها من القـدرة الحقة، والعظمة الحقة، والإتقان الذي لا يتطاول إليه خيال إنسان.

ومـن هـذا المنظور الهائـل الذي يشـاهده الناس في خلـق الله، إلى المغيـب الهائل الـذي تتقاصر دونه المدارك والأبصـار ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ أي اسـتولى علـى ملـك جميـع الموجودات، وأحاطـت قدرته بجميـع الكائنـات، وفـي روايـة: «العـرش لا يقـدر قـدره إلا اللـه عز وجل»[1].

ونحـن نؤمـن بهـذه الآيـات كمـا وردت من غيـر تكييف ولا تشـبيه ولا تعطيل ولا تمثيل، تعالى الله علوًّا كبيرًا.

﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾: أي ذلـل اللـه الشـمس والقمـر وسـائر الكواكـب لمصالح عبـاده، ولنفع الناس وإعمار الكون، وذكر الشـمس والقمر؛ لأنهما أظهر الكواكب السيارة.

﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾: وإلى حدود مرسومة وفق ناموس مقدر.

---

(1) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني 2 – 268.

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾: ويمسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السابحة في الفضاء فتجري لأجل لا تتعداه.

﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾: يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗا﴾: بسط الله الأرض أمام البصر، وجعلها صالحة للحياة، فجعل الجبال أوتادًا لحفظ توازنها، وأمدها بالأنهار والمياه، والماء هو العنصر اللازم لأي حياة نباتية، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ﴾ (طه: 53).

ويقول سبحانه: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ (الرعد: 3) ليكمل إبداع الخلق وتناسقه.

والمعروف أن الثمرة هي نتاج عملية تناسل النباتات العليا التي تمتلك نظامًا مركبًا، والمرحلة التي تسبق الثمرة هي مرحلة الزهرة بأعضائها الذكرية (الإبر) وأعضائها الأنثوية (البويضات) وبعد نقل اللقاح تعطي هذه الأخيرة الثمار التي تعطي هذه الحبوب بعد النضج، إن كل ثمرة تتضمن بالضرورة وجود أعضاء ذكورة وأعضاء أنوثة، ونلمح ذلك من المقطع السابق من الآية.

﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ﴾: أي جعل كلًّا منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتابع الله بين الليل والنهار في انتظام عجيب ونظام دقيق يبعث على التأمل في ناموس هذا الكون والتفكير في القدرة المبدعة التي تدبره وترعاه.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾: فإن التفكر والتأمل عبادة روحية صامتة تقود الإنسان إلى اليقين بقدرة الله رب العالمين.

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ والتربة واحدة ولكن الثمار مختلفات الطعوم.

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾: أي هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها، فهذه في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة، وذا عَفِصٌ، وهذا عذب، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وكذلك الزهور مع أنها كلها تسقى من طبيعة واحدة وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط، ففي ذلك آيات لمن كان واعيًا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

إن القرآن بمثل هذه اللفتة يبقى جديدًا أبدًا؛ لأنه يجدد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد في الكون والنفس، وهي لا تنفد، ولا يستقصيها إنسان في عمره المحدود، ولا تستقصيها البشرية في أجلها الموعود.

قال في الميزان: «ومعنى الآية أن من الدليل على أن هذا النظام الجاري قام بتدبير مدبر وراءه، يخضع له الأشياء بطبائعها، ويجريها على ما يشاء وكيف يشاء، أن في الأرض قطعًا متجاورات متقاربة بعضها من بعض، متشابهة في طبع ترابها، وفيها جنات من أعناب،

والعنب من الثمرات التي تختلف اختلافًا عظيمًا في الشكل واللون والطعم والمقدار، واللطافة والجودة وغير ذلك، وفيها زرع مختلف في جنسه وصنفه من القمح والشعير وغير ذلك، وفيها نخيل صنوان أي: أمثال ثابتة على أصل مشترك فيه، وغير صنوان، أي: متفرقة، نسقي الجميع من ماء واحد، ونفضل بعضها على بعض بما فيه من المزية المطلوبة في شيء من صفاته»[1].

(1) الميزان في تفسير القرآن مجلد 11 جزء 13 صفحة 322.

النص التاسع: تسبيح الرَّعد

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ (الرعد: 12 – 15).

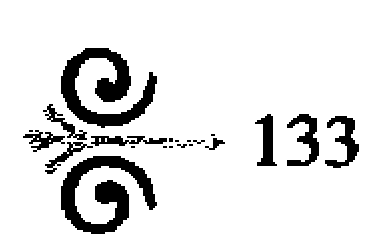
المفردات والجمل:

﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾: خوفًا للمسافرين في أسفارهم من مشقته وأذاه، وطمعًا للمقيم أن يمطر فينتفع به.

﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾: الذي فيه ماء.

﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾: يخضع الرعد لقدرة الله ونظامه المحكم في هذا الكون فهو يعظم الله ويمجده.

﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾: من خوف الله ﷻ ورهبته.



﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ ﴾: جمع صاعقة، وأصل (الصاعقة): كل أمر جسيم يؤدي إلى هلاك أو ذهاب عقل أو فقد بعض الجسم.

﴿ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ ﴾: ذكر أن رجلًا أنكر القرآن، وكذَّب النبي ﷺ، فأرسل الله عليه صاعقة فأهلكته.

﴿ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾: شديد المماحلة في عقوبة من طغى وعتا عليه، و(المحال): مصدر من ماحلت فلانًا محالًا، إذا عرضته لما يهلكه، وقيل: شديد الأخذ شديد القوة.

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾: لا إله إلا الله.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ يعني: آلهة المشركين.

﴿ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾: أي كالرجل العطشان يمد يده إلى البئر ليرتفع إليه الماء فلا يدركه.

﴿ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ﴾: حتى يموت عطشًا، وهذا مثل ضربه الله لمن يدعو من دونه آلهة لا تضر ولا تنفع.

﴿ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾: في غير هدى ولا استقامة.

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾: المؤمن يسجد طوعًا، والكافر يسجد كرهًا.

﴿ وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾: ويسجد أيضًا ظلال كل من يسجد لله طوعًا وكرهًا.

﴿ بِٱلْغُدُوِّ ﴾: أي البكور.

﴿ وَٱلْءَاصَالِ ﴾: جمع أصيل، وهو ما بين العصر إلى مغيب الشمس.

التفسيـــــر:

12-13- ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

يخبر الله تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يُرى من النور اللامع ساطعًا من خلل السحاب[1].

﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: قال قتادة: خوفًا للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعًا للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾: قال مجاهد: السحاب الثقال: الذي فيه الماء.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾: أي يظهر قدرته تعالى وجبروته وتسخيره لجميع ظواهر هذا الكون، كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ (الإسراء: 44).

وكان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «**اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك**»[2].

وعن أبي هريرة مرفوعًا، أنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده». وعن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع

---

(1) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق: محمد علي الصابوني 2 – 274.

(2) رواه الترمذي والنسائي والحاكم وأحمد، وأخرجه البخاري في كتاب الأدب.

الرعد ترك الحديث، وقال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته»، ويقول: «إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض»[1].

«والبرق والرعد والسحاب مشاهد معروفة، وكذلك الصواعق التي تصاحبها في بعض الأحيان، وهي بذاتها مشاهد ذات أثر في النفس حتى اليوم، وعند الذين يعرفون الكثير عن طبيعتها، والسورة تذكر هذه الظواهر متتابعة، وتضيف إليها الملائكة والتسبيح والسجود والخوف والطمع لتصوير سلطان الله المتفرد بالقهر والنفع والضر»[2].

وقد سميت السورة بسورة الرعد، لقوله سبحانه فيها: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ (الرعد: 13).

والرعد هو ذلك الصوت المفرقع المدوِّي، وهو أثر من آثار الناموس الكوني الذي صنعه الله أيًا كانت طبيعته وأسبابه فهو رجع صنع الله في هذا الكون، وهو يحمد ويسبح بلسان الحال، للقدرة التي صاغت هذا النظام، كما أن كل مصنوع جميل متقن يسبح ويعلن عن حمد الصانع والثناء عليه بما يحمله من جمال وإتقان.

وقد اختار التعبير أن يجعل صوت الرعد تسبيحًا للحمد، اتباعًا لمنهج التصوير القرآني في مثل هذا السياق، وخلق سمات الحياة

---

(1) رواه مالك في الموطأ، والبخاري في كتاب الأدب.

(2) أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم للدكتور عبد الله شحاتة، طبع ونشر الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1976 ص 155.

وحركاتها على مشاهد الكون الصامتة لتشارك في المشهد كله، وقد انضم إلى تسبيح الرعد بحمد الله، تسبيح الملائكة من خوفه ومن تعظيمه، وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ (الشورى: 5).

وفي الحديث النبوي يقول الرسول ﷺ: «أطَّت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك راكع أو ساجد يسبح الله تعالى».

﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ (الرعد: 13) أي يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء.

قال قتادة: ذُكر لنا أن رجلاً أنكر القرآن، وكذَّب النبي ﷺ فأرسل الله صاعقة فأهلكته.

وذكروا في سبب نزولها قصة (عامر بن الطفيل) و(أربد بن ربيعة) لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة، فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر، فأبى عليهما رسول الله ﷺ، فقال له عامر بن الطفيل لعنه الله: أما والله لأملأنها عليك خيلًا جردًا، ورجالاً مردًا، فقال له رسول الله ﷺ: «يأبى الله ذلك وأبناء قَيْلَةَ» يعني الأنصار – ثم إنهما همَّا بالفتك برسول الله ﷺ فجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه، فحماه الله تعالى منهما وعصمه، فخرجا من المدينة، فانطلقا في أحياء العرب يجمعان الناس لحربه، عليه الصلاة والسلام، فأرسل الله على (أربد) سحابة فيها صاعقة فأحرقته، وأما (عامر بن الطفيل) فأرسل الله عليه الطاعون،

فخرجت فيه غدة عظيمة، فجعل يقول: يا أهل عامر غدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية! حتى ماتا لعنهما الله، وأنزل الله في مثل ذلك: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ (الرعد: 13)(1) ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي يشكون في عظمته وأنه لا إله إلا هو.

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾: قال ابن جرير: شديدة مماحلته في عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى في كفره. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى:

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ (النمل: 50، 51)

وعن علي ﷺ ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي شديد الأخذ، وقال مجاهد: شديد القوة.

14- ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾.

من الدعاء ما يحظى بالإجابة وما يكون دعاء حقًا، وهو دعاء من يملك الإجابة، أي دعاء الله ﷻ، فهو سبحانه يسمع الداعي ويستجيب له، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: 186).

---

(1) روى هذه القصة الحافظ الطبراني عن عطاء بن يسار عن ابن عباس مفصلة أكثر من هذا، اهـ نقلًا عن مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق: محمد علي الصابوني 2 – 275.

وقال سبحانه: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ (غافر: 60).

ومـن الدعاء مـا يتجه به الداعي إلـى الأصنام والنجـوم وغيرها من المخلوقات التي لا تملك الإجابة، فالأصنام لا تسـمع، وغيرها من الملائكـة أو الجـن أو البشـر لا يملكـون لأنفسـهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فكيف بغيرهم؟!

﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴾ (فاطر: 14).

وهـذا القسـم من الدعاء جدير بأن يسمى دعاء الباطـل، وهو الذي لا يهتـدي إلـى هـدف الإجابـة كدعـاء مـن لا يسـمع أو لا يقـدر على الاستجابة.

لقد ذكر الله في الآيات السـابقة أنه عليم بكل شـيء، قدير على كل شـيء، ثـم ذكر في هـذه الآية أن له حقيقـة الدعاء والاسـتجابة فهو مجيب الدعاء كما أنه عليم قدير.

وقـد ذُكـر ذلك في الآية بطريقـي الإثبات والنفـي، أعني إثبات حق الدعاء لنفسـه ونفيـه عن غيره. أمـا الأول فقولـه: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ ﴾ وتقديم الظرف يفيد الحصر، ويؤيده ما بعده من نفيه عن غيره.

أما الثاني فقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ ﴾.

وقـد أخبـر فيـه أن الذيـن يدعوهـم المشـركون مـن دون اللـه لا يستجيبون لهم بشيء، ثم صورة معبرة تؤكد ضلال من يدعو غير اللـه، وهي صـورة ملهوف ظمآن يمد ذراعيه ويبسـط كفيـه إلى بئر

سحيقة فيها ماء وفمه مفتوح يلهث بالدعاء، يطلب الماء ليبلغ فاه فلا يبلغه، وما هو ببالغه، بعد الجهد واللهفة والعناء، وكذلك دعاء الكافرين بالله الواحد، حين يدعون الشركاء.

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ (الرعد: 14).

فهذا الدعاء للأصنام ليس له من الدعاء إلا صورته كما أن باسط كفيه إلى الماء ليس له إلا صورة الطلب ببسط الكفين، ولن ينتقل الماء إلى فمه.

(ومن هنا نعلم أن هذا الاستثناء «إلا كباسط كفيه...» إلخ.. لا ينتقض به عموم النفي في المستثنى منه ولا يتضمن إلا صورة الاستثناء، فهو يفيد تقوية الحكم في جانب المستثنى منه، فإن مفاده أن الذين يدعون من دون الله لا يستجاب لهم إلا كما يستجاب لباسط كفيه إلى الماء ولن يستجاب له، وبعبارة أخرى: لن ينالوا بدعائهم إلا عدم الإجابة؛ أي لن ينالوا شيئًا ألبتة.

وهذا من لطيف كلامه تعالى[1]: ويناظر من وجه قوله سبحانه: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ﴾ (الرعد: 16).

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ أي في ضياع وانحراف، فإن الأصل في الدعاء أن يتوجه به الإنسان إلى من يملك الإجابة وهو الله ﷻ:

(1) تفسير الميزان للسيد محمد حسين الطباطبائي 11- 350 بتصرف.

فمن دعا غير الله فقد ضل دعاؤه وانحرف وضاع، والضلال: هو الخروج عن الطريق وسلوك ما لا يوصل إلى المطلوب.

قال الطبري: ﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴾: وما دعاء من كفر بالله ما يدعو من الأوثان والآلهة إلا في ضلال، يقول: إلا في غير استقامة ولا هدى، لأنه يشرك بالله.

15- ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ (الرعد: 15).

كل من في الكون خاضع لأمر الله وإرادته، إذ إنه يعيش في ملكه، ويسير وفق قانونه، المؤمن يخضع لله طاعة وإيمانًا، وغير المؤمن يخضع كرهًا وإرغامًا فإذا مسه الضر أو خاف الموت أو الغرق لجأ إلى الله داعيًا مستجيرًا.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ (الإسراء: 67).

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ (العنكبوت: 65).

وقال سبحانه: ﴿ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (يونس: 22).

وفي ظلال القرآن ما يأتي:

«والسياق يعبر عن الخضوع لمشيئة الله بالسجود، وهو أقصى رمز للعبودية، ثم يضم إلى شخوص من في السموات والأرض ظلالهم

كذلك، ظلالهم بالغدو في الصباح، وبالآصال عند انكسار الأشعة وامتداد الظلال، يضم هذه الظلال إلى الشخوص في السجود والخضوع والامتثال، وهي في ذاتها حقيقة، فالظلال تبع للشخوص، ثم تلقي هذه الحقيقة ظلها على المشهد فإذا هو عجب، وإذا الإيمان أو غير الإيمان سواء. كلها تسجد لله.. وأولئك الخائبون يدعون آلهة من دون الله»[1].

(1) في ظلال القرآن: جزء 13 صفحة (2052).

النص العاشر: نِعَم الله لا تحصى

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (إبراهيم: 32 - 34).

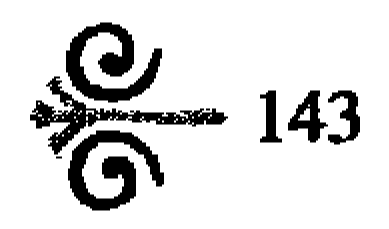
المفردات والجمل:

﴿ دَآئِبَيْنِ ﴾: يتعاقبان في اختلافهما عليكم، وقيل: في طاعة الله ﷻ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ ﴾ للسكن ﴿وَٱلنَّهَارَ ﴾ للتصرف فيه لمعاشكم.

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ قيل: هذا على معنى التكثير، كقوله ﷻ: ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (الأنعام: 44).

وقيل: ليس شيء إلا وقد سأله بعض الناس فأوتي بعضهم شيئًا، وأوتي آخر شيئًا.

﴿لَا تُحْصُوهَآ ﴾: لا تطيقوا إحصاء عددها.



﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾: إن الإنسان الذي بدل نعمة الله كفرًا لظلوم كفار في شكره غير من أنعم عليه إذ وضع الشكر في غير مكانه.

﴿كَفَّارٌ﴾: جَحود لنعمة الله بصرفه العبادة إلى غير من أنعم عليه.

التفسير:

لقد عدَّد الله نعمه على البشر كافة مؤمنهم وكافرهم، صالحهم وطالحهم، برهم وفاجرهم، طائعهم وعاصيهم، وإنها لرحمة من الله وسماحة وفضل أن يتيح للكافر والفاجر والعاصي نعمه في هذه الأرض كالمؤمن والبار والطائع، لعلهم يشكرون، ويعرض هذه النعم في أضخم مجالي الكون وأبرزها، ويضعها داخل إطار من مشاهد الوجود العظيمة.

1- فقد جعل سبحانه السماء سقفًا محفوظًا.
2- وجعل الأرض مهادًا وفراشًا.
3- وأنزل من السماء ماء فأخرج به الكثير من الثمرات، مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع.
4- وسخر الفلك بأن جعلها على تيار ماء البحر تجري عليه بأمره سبحانه وفق نواميسه وسننه.
5- وسخر البحر ليستفيد به المسافر من إقليم إلى إقليم لجلب ما هنا إلى هناك وما هناك إلى هنا، وليستخرج الإنسان منه الحلَى والأسماك واللؤلؤ والمرجان.

6- وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقًا للعباد، ومن الأنهار يشرب الإنسان والحيوان والنبات وتزدهر الحياة.

7- وسخر الشمس تمدنا بالضياء والدفء، وتؤثر في تبخر المياه وإنضاج الزرع وتكامل الحياة.

8- وسخر القمر نورًا يدور حول الأرض باعتباره تابعًا لها، ومقدار دورته الزمنية 29 يومًا تقريبًا ليعلم الناس عدد السنين والحساب.

9- وسخر الله الليل سكنًا وراحة ونومًا وهدوءًا.

10- وسخر الله النهار للحركة والسعي والعمل.

11- وهو سبحانه يجيب الدعاء، ويعطي العباد من كل ما سألوه وما لم يسألوه، ويهيئ لهم جميع ما يحتاجون إليه في جميع أحوالهم مما يسألونه بلسان مقالهم، أو بلسان حالهم.

12- وأنعُمُ الله على الإنسان لا تُحْصَى ولا تُعَدُّ، فهناك السمع والبصر واللسان واليد والرجل والقلب، والهداية والعقل والفكر، والذرية والأكل والشرب، والإخراج والسير والركوب والنوم واليقظة، والتعليم والتعلم والسفر والإقامة، والحياة والموت والبعث والجزاء... إلى غير ذلك من النعم التي لا حصر لها ولا عدد.

روى البخاريُّ في صحيحه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهم لك الحمد غير مكفي ولا مودع ولا مستغنًى عنه ربَّنا**».

ورُوي في الأثر أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك عليّ؟.. فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود. أي حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر المنعم. وقال الإمام الشافعيّ رحمه

الله: الحمد لله الذي لا يؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها.

وقال القائل في ذلك:

لَوْ كُلُّ جارحةٍ مِنِّي لها لغةٌ

تُثني عليكَ بما أَوْلَيْتَ من حَسَنِ

لَكانَ ما زادَ شُكري إذْ شَكَرْتُ بِهِ

إليكَ أبلغَ في الإحسانِ والمِنَنِ[1]

---

(1) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق: محمد علي الصابوني 2 - 301.

النص الحادي عشر: نظام وتقدير

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ (الحجر: 16 – 22).

المفردات والجمل:

﴿ بُرُوجًا ﴾: من الكواكب، أو هي منازل الشمس والقمر.

﴿ وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾: لمن نظر إليها.

﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ ﴾: لكن من يسترق السمع من الشياطين، ليستمع ما يتحدث به في السماء.

﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ﴾: فيتبعه شهاب من النار.



﴿ مُّبِينٌ ﴾: بيِّن أثره فيه، إما أن يحرق النجم الجنيَّ وإما أنْ يفسده ويخبله.

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾: بسطناها.

﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾: أثبتنا فيها جبالًا ثابتة.

﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾: معلوم مقدور.

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾: جمع معيشة.

﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾: قيل: العبيد والإماء، والدواب والأنعام، وقيل: الوحش.

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ ﴾: يعني من الأمطار. ﴿ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾: حده ومبلغه.

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ ﴾: جمع ريح ﴿ لَوَٰقِحَ ﴾: تلقح الشجر، وتَمْرِي السحاب أي تستخرج منه المطر. ﴿ فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾ لشرب أرضكم.

﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾: بمانعين، يقول: ولستم بخازني الماء الذي أنزلناه من السماء فتمنعوه من أسقيه؛ لأن ذلك بيدي، أو أن الله ييسر للمطر الذهاب إلى الأنهار والمحيطات فيخزنه بمعرفته لينتفع به الناس بعد ذلك، ولو وكل للإنسان أمر المطر وتخزينه لعجز عن ذلك؛ لأن الله الحكيم هو المدبر لكل أمر موزون.

التفسير:

هذه لوحة هادفة ترسم السماء وزينتها، وحراسها وشهبها، كما تصف الأرض وجبالها ونباتها ونظامها ومعايشها، وتصف الرياح

والمطر وخزائن الأرزاق، وأفضال الله على العباد، وقدرته المبدعة، ودقة التنظيم والتقدير وتكشف عن عظمة القدرة على هذا الخلق الكبير.

16- ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ (الحجر: 16):

والبروج: مجموعات النجوم المعروفة بالدلو والحوت والحمل والثور والجوزاء والأسد والسرطان والعذراء والميزان والعقرب والقوس والجدي.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ (الفرقان: 61).

قال مجاهد وقتادة: البروج هنا هي النجوم والكواكب، ومنهم من قال: هي منازل النجوم والكواكب التي تنتقل فيها في مدارها.

وهي في كل حال شاهدة بالقدرة والدقة، والنظام والإبداع.

قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ (الواقعة: 75، 76).

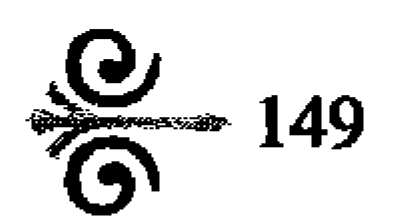
وقد ذكر المفسرون للنجوم ثلاث فوائد:

الأولى: أنها زينة للسماء، قال تعالى:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ (الصافات: 6).

الثانية: أنها هداية للسائرين.

قال تعالى: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: 16).



الثالثة: أنها حماية للسماء من الشياطين، فمن أراد استراق السمع منهم رُميَ بالشهب أو النيازك، وقد حكى القرآن عن الجن قولهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ (الجن: 9).

واستراق السمع، ورجم الشياطين بالشهب، غيب من الغيب، نؤمن به ونفوض حقيقة المراد منه إلى الله تعالى، وقد وردت به نصوص القرآن والسنة الصحيحة، فقد كانت الشياطين تسترق السمع وتصعد إلى السماء فتسمع الملاك يتحدث عن أمور قضيت في السماء، فيحملها الجني إلى الكهان فيخبرهم بها، ثم يخبر الكاهن بها الناس، فلما أرسل الله محمدًا ﷺ، شُدِّدَت الحراسة على السماء فمن حاول استراق السمع من الجن قتل أو خبل.

17- قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾:

ورجيم بمعنى مرجوم، أي مطرود ومُبْعَد من رحمة الله، لا ينال السماء ولا يدنسها ولا ينفث فيها من شره ورجسه وغوايته، فالشيطان موكل بهذه الأرض وحدها، وبالغاوين من أبناء آدم فيها، أما السماء - وهي رمز للسمو والارتفاع - فهو مطرود عنها، مطارد لا ينالها ولا يدنسها، إلا محاولة منه تُردّ كلما حاولها.

18- ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾:

أي حاول التسمع لأخبار السماء، فإنه يرمى بشهاب من النيازك ظاهر بيّن أثره، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ

إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ ﴾ (الصافات: 6 - 10).

وقد روى ابن جرير عن ابن عباس: أن الشياطين كانت تسترق السمع، وتسمع أخبار السماء، فلما أرسل الله محمدًا ﷺ جعل الشيطان إذا حاول استراق السمع جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه، فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله، فقال: ما هو إلا من أمر قد حدث، فبعث جنوده فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي بين جبلي نخلة، قال وكيع: يعني بطن نخلة، قال: فرجعوا إلى إبليس فأخبروه فقال: هذا الذي حدث(1).

وقد آمن نفر من الجن عند استماعهم القرآن من النبي ﷺ، ونزلت سورة الجن تقول: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ ﴾ (الجن: 1، 2).

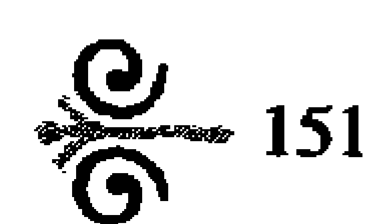
إن الإنسان ليس وحده في هذا الكون، فهناك الملائكة، وهم عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وهناك الجن وهم خلق غيبيٌّ لا نراهم، وهم يروننا، منهم الصالح ومنهم الطالح، وقد آمن بعضهم برسالة النبي ﷺ واتبعه.

وحديث القرآن عن الملائكة وعن الجن، لم يكن بالكثرة التي تحدث بها عن الإنسان.

---

(1) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وانظر مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق: محمد علي الصابوني 3 - 175.



والمسلم مطالب بالإيمان بالغيب، وبما ورد في القرآن، ومطالب بتفويض حقيقة المراد من النصوص المتشابهة إلى الله تعالى.

19- ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾:

إن يد القدرة المبدعة التي زينت السماء وحفظتها قد بسطت الأرض، وحفظت توازنها بالجبال الراسيات الثوابت، وأرسلت الماء إلى الأرض، فتمت حياة الأرض بالنبات الموزون بميزان الحكمة بلا زيادة ولا نقصان.

(أو بمعنى مستحسن متناسب، من قولهم: كلام موزون، وقد ذكر الشريف الرضي[1] أن العرب استعملته بهذا المعنى كقول عمر بن أبي ربيعة:

وحديث ألذه هو مما
تشتهيه النفوس يوزن وزنا)[2]

وجاء في تفسير المراغي:

«أن كل نبات قد وزنت عناصره وقدرت تقديرًا، فترى العنصر الواحد يختلف في نبات عنه في آخر، بواسطة امتصاص الغذاء من العروق الضاربة في الأرض، ومنها يرفع إلى الساق والأغصان والأوراق والأزاهير، وهناك عنصر البوتاس تراه يدخل في حب الذرة الذي نأكله بمقدار 32٪ وفي القصب 34.3٪ وفي البرسيم 34.6٪ وفي البطاطس بمقدار 61.5٪. وبهذا التفاوت صلح القصب

(1) انظر أمالي المرتضى (ج 1 ص 14 طبعة الحلبي).

(2) تفسير القاسمي 10 – 3752.

لأن يكـون سـكرًا، والبرسـيم لأن يكـون قوتًـا للبهائـم، والـذرة والبطاطس لأن تكونا قوتًا للإنسان» (1).

فسـبحانك اللهم أبدعت نظام الكون وجعلت كل شـيء في الحياة موزونًا بقدر معلوم لتتدبر نظم الحياة، ونعرف قدرة المنشـئ الذي لم يخلق شيئًا جزافًا بل أبدع ودبر، وخلق كل شيء فقدره تقديرًا.

20- ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾:

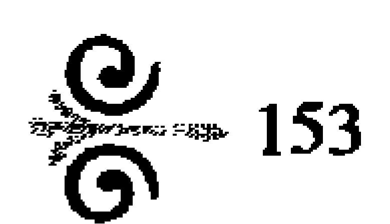
أي جعلنـا لكـم فـي الأرض أرزاقًـا مؤهلـة للعيـش والحيـاة فيها، وأنواع معايشـكم من غذاء وماء ولباس ودواء قد سخرناها لكم في الأرض، فـلا السـمك فـي البحـر غذيتمـوه، ولا الطيـر فـي الجـو ربيتمـوه، ولا غيرهـا مـن أشـجار الجبـال والغابـات وحيـوان البر والبحر خلقتموه.

﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾: أنتـم تعيشـون على أرزاق الله التي جعلها لكـم فـي الأرض، وما أنتـم إلا أمة من هذه الأمـم التي لا تحصى، أمة لا ترزق سواها إنما الله يرزقها ويرزق سواها، ثم يتفضل عليها فيجعل لمنفعتها ومتاعها وخدماتها أممًا أخرى تعيش من رزق الله ولا تكلفها شيئًا.

21- ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾:

ومـا مـن شـيء إلا ونحن قـادرون على إيجـاده، وتكويـن أضعاف ما وجد منه، شـبه اقتداره على كل شـيء وإيجاده بالخزائن المودعة فيها

(1) تفسير المراغي 14 – 15 بتصرف.



الأشياء، المعدة لإخراج ما يشاء منها، وما يخرجه إلا بقدر معلوم، استعارة تمثيلية[1] فقد ضرب الخزائن مثلًا لاقتداره على كل مقدور.

قال في ظلال القرآن:

«هذه الأرزاق - ككل شيء - مقدرة في علم الله تابعة لأمره ومشيئته، يصرفها حيث يشاء، وكما يريد في الوقت الذي يريده حسب سنته التي ارتضاها وأجراها في الناس والأرزاق:

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾:

فما من مخلوق يقدر على شيء أو يملك شيئًا، إنما خزائن كل شيء، مصادره وموارده، عند الله في علاه ينزله على الخلق في عوالمهم (بقدر معلوم) فليس من شيء ينزل جزافًا، وليس من شيء يتم اعتباطًا. ومدلول هذا النص المحكم: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يتجلى بوضوح أكثر كلما تقدم الإنسان في المعرفة، وكلما اهتدى إلى أسرار تركيب هذا الكون وتكوينه، ومدلول ﴿خَزَائِنُهُ﴾ يتجلى في صورة أقرب بعد ما كشف الإنسان طبيعة العناصر التي يتألف منها الكون الماديُّ، وطبيعة تركيبها وتحليلها - إلى حد ما - وعرف مثلًا أن خزائن الماء الأساسية هي ذرات الأيدروجين والأكسجين، وأن من خزائن الرزق المتمثل في النبات الأخضر كله ذلك الآزوت

---

(1) انظر تفسير القاسمي 10 - 3753، وتفسير النسفي 2- 271..

الـذي فـي الهـواء، وذلك الكربـون وذلك الأكسـجين المركب في ثاني أكسـيد الكربون، وتلك الأشـعة التي ترسل بها الشمس أيضًا، ومثـل هـذا كثير يوضح دلالـة خزائن الله التي توصَّل الإنسـان إلى معرفة شيء منها، وهو شيء على كثرته قليل قليل...»[1].

22- ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾:

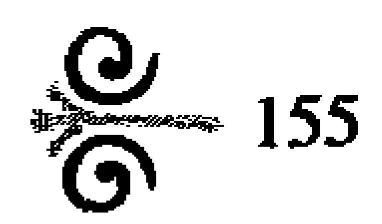
مـن قدرة الإلـه الخالق أنه أبدع نظام السـماء، وأبدع نظام الأرض، وأبـدع نظامًـا متكامـلاً فـي هـذا الكـون، وعنـده خزائـن الأرزاق ومواعيدها المناسبة، ومن هذه الأرزاق:

أنـه سـخر الريـاح حوامـل بالسـحاب؛ لأنهـا تحمل السـحاب في جوفهـا، والريـاح تنطلق وفـق نواميس كونيـة، وتحمل المـاء وفقًا لهذه النواميس، وتسـقط الماء كذلك بحسبها، ولكن من الذي قدر هذا كله من الأسـاس؟ لقـد قدره الخالق، ووضـع الناموس الكليَّ الذي تنشأ عنه كل الظواهر.

فهو سـبحانه خالق الإنسـان، وخالق الكون، وبيـده الخلق والأمر، قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (الروم: 48).

(1) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب - الجزء 14 - صفحة 2134.



وقال عز شأنه:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ (الواقعة: 68 – 70).

قال القاسمي:

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾: أي تلقح السحاب؛ أي تجعلها حوامل بالماء، وذلك أن السحاب بخار تصير بإصابته الهواء البارد حوامل للماء[1] ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾: أي فأنزلنا من السحاب مطرًا فأسقيناكم ذلك المطر لشرب زرعكم ومواشيكم، وفي ذلك استقامة أمور معايشكم، وتدبير شئون حياتكم كما قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (الأنبياء: 30).

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾: أي بقادرين على إيجاده وإنزاله، و(الخزن): اتخاذ الخزائن، يستعار للقدرة كما مر، أو بحافظين له في أمكنة ينابيعه، من سهول وجبال وعيون وآبار، بل هو تعالى وحده الذي حفظه وسلكه ينابيع في الأرض، وجعله عذبًا، ورحم العباد بسقياه.

---

(1) تفسير القاسمي 10 – 3753.

النص الثاني عشر: نِعمٌ لا تُحصى

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (النحل: 10 – 18).

المفردات والجمل:

10- ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾: منه أشجاركم، وحياة غروسكم.

﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾: ترعون، يقال: أسام فلان فلانًا إبله يسمها إسامةً، إذا أرعاها، وسوَّمها يسوِّمها أيضًا، وسامت هي إذا رعت، فهي سائمة.

13- ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ ﴾: خلق لكم وسخر لكم.

﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥٓ ﴾: من الدواب والثمار، نعم الله متظاهرة عليكم فاشكروها له.

14- ﴿ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾: هو السمك ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾: اللؤلؤ والمرجان، ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ ﴾: يعني: السفن ﴿ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ أي مواقر محملات، والمخر في كلام العرب: صوت هبوب الريح إذا اشتد.

﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: أثبت ﴿ رَوَٰسِىَ ﴾: جمع راسية، وهي الثوابت من الأرض من الجبال، ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾: يعني لئلا تميد بكم، والميد: هو الاضطراب، ﴿ وَسُبُلًا ﴾: طرقًا.

16- ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ﴾ قيل: معالم الطرق في النهار، وكل علامة استدل بها على الطريق من الجبال والفجاج وغيرها داخلة فيها.

﴿ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾: نجومًا تهتدون بها ليلكم في سبلكم.

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ ﴾: هذه الخلائق العجيبة المذكورة، وهو الله ﷻ، ﴿ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ يعني الأوثان والأصنام.

18- ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾: ولا تطيقوا أداء شكرها.

التفسير:

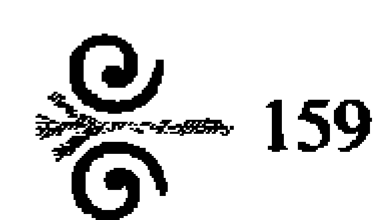
امتن الله على عباده بطائفة من النعم:

10- فقد أنزل الماء من السماء، فانتفع به الخلق في عدد من المنافع، فهو شراب يشربونه، وتتوقف عليه حياتهم، وهو حياة للنبات والزرع والشجر، ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أي ترعون أنعامكم، ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي.

11- ينبت الله بالماء الزرع الذي فيه قوت للإنسان، والزيتون الذي فيه إدامه، ﴿ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ يخرجها بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها ﴿ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي دلالة وحجة على وحدانية الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ (النمل: 60).

12- من مظاهر نعم الله أيضًا تسخير ﴿ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ يتعاقبان، ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ ﴾ لإصلاح ما نيط بهما صلاحه في هذا الكون ﴿ وَٱلنُّجُومُ ﴾ ليهتديَ الناس بها في ظلمات البر والبحر، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾:

إن في ذلك التسخير لدلالات واضحات لقوم يعقلون حجج الله ويفهمون ما نبههم إليه بها.



13- وما خلق لكم في الأرض من عجائب الأمور ومختلف الأشياء من معادن وحيوان ونبات على اختلاف أجناسها وأشكالها ومنافعها وخواصها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

14- امتنَّ الله على عباده فيما سبق بنزول الماء وإنبات النبات، ثم امتن عليهم بتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم... والآن يمن عليهم بطائفة ثالثة من النعم وهي تسخير البحر المتلاطم الأمواج، وتذليله للركوب وحمل السفن والبضائع من مكان إلى مكان، ومن البحر نستخرج السمك لحمًا طريًّا مستساغًا من الماء المالح، ونستخرج الحلية بأنواعها كاللؤلؤ والمرجان.

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾: وترى السفن جواريَ فيه تَشُقُّه بحيزومها ومقدمها، مقبلة مدبرة من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى آخر، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى هنا، وما هنا إلى هناك.

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾: أي ولتطلبوا فضل الله ورزقه بركوبه للتجارة، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ربكم على ما أنعم به عليكم.

15- وهذه طائفة رابعة من نعم الله:

فقد حفظ الله توازن الأرض بالجبال الراسية المستقرة، ولهذه الجبال أيادٍ بيضاء في حفظ ماء الشتاء للصيف، (وهي سبب الرطوبة الدائمة على وجه الأرض، ومن هذا التدبير عمارة الكون ووجود النبات والحيوان فيه)(1).

(1) من إشارات العلوم في القرآن الكريم للأستاذ عبد العزيز سيد الأهل، دار النهضة الحديثة، بيروت ص 90، نقلاً عن مسكويه.

وقد سرد الجاحظ منافع الجبال في أن الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها لمن يحتاج في القيظ إليه، ويذوب ما ذاب منه فتجري منه العيون الغزيرة التي تتجمع منها الأنهار العظام، وينبت منها ضروب من النبات والعقاقير التي لا ينبت منها في السهل، ويكون فيها الكهوف ومعاقل للوحوش من السباع العادية، وتتخذ فيها القلاع والحصون المنيعة لتتحرز من العدو، وينحت منها الحجارة للبناء.... ويوجد فيها معادن لضروب من الجواهر، وعسى أن يكون فيها خلال أخرى لا يعرفها إلا المقدر لها في سابق علمه المحيط. ثم يقول الجاحظ:

(إن المطر جعل ينحدر على السهل من الجبال ليغشى ما غلظ منها وارتفع فيرويه، ولو كان إنما يأتيها من نواحيها لما علا المواضع المشرفة منها، ولقل ما يزرع من الأرض)(1).

وقد ربط القرآن الكريم بين رسوِّ الجبال وكونها أوتادًا، وبين الأبخرة والسحب ومجاري الأنهار وانبثاق الينابيع وإدرار القوت والرزق وضمان المنافع، ومن عجيب الإعجاز أن هذه الحقائق قد ذُكرت على لسان نبيٍّ أميٍّ، وقد قرن القرآن الكريم بين الجبال والمياه فإذا لم تذكر الأنهار مع الجبال ذكر ما يكون من آثارها من الخصب والنماء والقوت والرزق والمتاع، قال تعالى:

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ (النازعات: 32، 33).

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا﴾ (الرعد: 3).

---

(1) المرجع السابق.

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ (الحجر: 19).

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ (الأنبياء: 30 - 31).

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ (النمل: 61).

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ (لقمان: 10).

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ (فصلت: 10).

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (ق: 7).

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾ (المرسلات: 27).

والجبال مظهر من مظاهر القدرة وآية النعمة، وهي تسبح بحمد الله، وتدل على قدرته وحكمته، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ (سبأ: 10).

وقد هبط الوحي على النبي في غار حراء على ربوة جبل مرتفع، وتمت الهجرة من خلال غار ثور على ربوة جبل شاهق والطور وجبل الجليل وأبو قبيس، هتف على روابيها أصوات الرسالات، ولأمر ما أهبط آدم على ربوة، وعرضت الأمانة على الجبال، وأرسيت سفينة نوح على الجوديِّ، وقُطِّعت على الجبال طير

إبراهيم، وسخرت الجبال لداود يسبحن، ونتق الجبل لموسى، وكان مأوى أهل الكهف في الرقيم، ولأمر ما كان نسك المسلمين في الحج حول الجبال، فهم يسعون بين الصفا والمروة، ويجتمعون يوم عرفة في الوقوف على جبل عرفات، ولعل الجبال أبعد عن صخب الحياة، وأعون على الهدوء والخشوع والإخبات والإنابة، وأدعى إلى التأمل والصفاء، وخلو الإنسان إلى نفسه، وسماعه صوت الضمير، وحنينه للتأمل الهادئ، والذكر والتفكر، فهي محضن من محاضن طهارة الأرواح، ودار للعبادة والصفاء.

وإذا عدنا إلى الآية الكريمة رأيناها ربطت بين الجبال وبين الأنهار والطرق أو السبل، وكلها نعم تهدي الإنسان إلى مصالحه ومنافعه، وتلهمه عبادة ربه والتسبيح بحمده.

16- ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾:

بثّ الله في الأرض الجبال والأنهار والسبل، كما بث فيها علامات لهداية السائر، وهي معالم الطرق التي يهتدي بها السالكون في الأرض من جبال ومرتفعات ومنفرجات، ونحو ذلك مما يستدل به المسافرون بحرًا وبرًّا وجوًّا، كما يهتدون بالنجوم في ظلال الليل لمعرفة القبلة والجهات الأصلية والفرعية.

كما أن مطالع الدراري في البروج، وتقلب القمر في المنازل، وجريان الشمس في مستقرها، كل ذلك دلالات على أوقات الغرس والزرع، والنماء والحصاد، ونظم الادخار والاقتصاد، وعلى حركات الفصول والرياح والبرد والحر.

وقد جرى علم الفلك عند العرب وغيرهم مجاري طويلة، وتبعه الأدب العربي خاصة في أشواطه، فتحدثا عن النجوم وأشكالها واجتماعها وتفرقها ومطالعها ومغاربها وأضوائها. ومن أعظم ما يصل القديم بالجديد، ويعرض فكرة الإنسان ولهفته التي لم تخمد من الشوق إلى الرحلة للفضاء قول إخوان الصفا قديمًا:

«إن العاقل إذا نظر في علم النجوم، وفكر في سعة هذه الأفلاك، وسرعة دورانها وعظم هذه الكواكب، وعجيب حركاتها وأقسام هذه البروج وغرائب أوصافها، تشوقت نفسه إلى الصعود إلى الفلك والنظر إلى ما هناك معاينة»[1].

«ولم يَأْلُ القرآن نصحًا في أن يَسُوق الناس إلى تتبع النجوم ومواقعها، وحبك السماء وبروجها، ومنازل القمر حتى يبلغ عرجونه، وجريان الشمس حتى تستوي في مستقرها، ولم يكن القسم بمواقع النجوم إلا قضية جامعة خطيرة تنادي قلب العالم، وتنبه عين الساهر»[2].

«ولم تكن الإبرة الممغنطة، وحساب الاتجاهات التي تسير عليها السفن منذ كشوف الحضارة، وتشق بها الطائرات عباب الجو في زماننا، إلا اهتداء بالنجوم وتقلبًا مع ترددها طالعة وغاربة ومقبلة ومدبرة ومشرِّقة ومغرِّبة ومعتدلة ومائلة، فهي أصل من أصول الحساب لاختراق العباب، أو شق السحاب»[3].

---

(1) إشارات العلوم في القرآن الكريم للأستاذ عبد العزيز سيد الأهل، دار النهضة الحديثة، بيروت ص 112.

(2) المرجع السابق ص 105.

(3) من إشارات العلوم في القرآن الكريم، تأليف الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل، ص 107.

17- ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾:

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ ﴾ كل شيء ولا سيما تلك المصنوعات المذكورة، والخلائق العجيبة التي عددناها عليكم، ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ شيئًا ولا ينعم نعمًا صغيرة ولا كبيرة.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾: فما يحتاج الأمر إلى أكثر من التذكر؛ فيتضح الأمر ويتجلى اليقين.

18- ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾:

وإن تعدوا نعم الله لا تحصوا عددها، فضلاً عن أن تستطيعوا القيام بشكرها، فإن العبد مهما أتعب نفسه في طاعته، وبالغ في شكران نعمه، فإنه يكون مقصرًا؛ فنعم الله كثيرة، وعقل الإنسان قاصر عن الإحاطة بها، ومن ثم فهو يتجاوز عن ذلك التقصير، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فهو عليم بالإنسان وضعفه، ﴿لَغَفُورٌ﴾ للمقصرين والتائبين، ﴿رَّحِيمٌ ﴾ لا يعجل بقطع نعمه عنكم بل يمهلكم ويؤجل عقوبته عنكم مع استحقاقكم لها.

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (النحل: 61).

قال بعض الحكماء: إن أي جزء من البدن إذا اعتراه الألم نغص على الإنسان النعم، وتمنى أن ينفق الدنيا لو كانت في ملكه حتى يزول عنه ذلك الألم، وهو سبحانه وتعالى يدبر جسم الإنسان على

الوجه الملائم له، مع أنه لا علم للإنسان بكيفية هذا التدبير، فكيف يطيق حصر نعمه عليه، أو يقدر على إحصائها أو يتمكن من أداء شكرها ؟

ربنا هذه نواصينا بيدك، خاضعة لعظم نعمك، معترفة بالعجز عن تأدية الشكر لشيء منها، لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، ولا نطيق التعبير بالشكر لك، فتجاوز عنا، واغفر لنا، وأسبل ذيول سترك على عوراتنا، فإنك إلا تفعل نهلك لتقصيرنا في شكر نعمك، فكيف بما فرط منا من التساهل في الائتمار بأوامرك، والانتهاء عن مناهيك؟

العفو يُرْجَى من بني آدم
فكيف لا يُرْجَى من الربِّ؟! (1)

(1) تفسير المراغي 14 - 65.

النص الثالث عشر: الشفاء

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (النحل: 65 – 69).

المفردات والجمل:

65- ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: هذا القول فيتدبرونه.

66- ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾: يعني الأنعام، وجاء الهاء موحدًا في ﴿بُطُونِهِۦ﴾ بعد ذكر الأنعام، وهي جمع؛ لأن النعم والأنعام شيء واحد، والنعم والأنعام جمعان، فرد الكلام في قوله ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ إلى التذكير مرادًا به معنى النعم.

﴿خَالِصًا﴾: خلص من مخالطة الفرث؛ (ما في الكرش) والدم...

﴿سَآئِغًا﴾: يسوغ لمن شربه فلا يغص به.

67- ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾: نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر.
﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾: ثمرًا وزبيبًا وخلًا وعسلًا، وغير ذلك من الحلال.

68- ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾: ألهم إلهامًا ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾: يعني يبنون من السقوف ويرفعون من البناء.

69- ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾: طرق ربك، ﴿ذُلُلًا﴾: مذللة لا يتوعر عليها، ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾: منه أحمر وأبيض، وغير ذلك من الألوان.
﴿فِيهِ شِفَآءٌ﴾: من الأدواء.

التفسير:

تعرض الآيات معرضًا إلهيًا في تناسق ظاهر: إنزال الماء من السماء، وإخراج اللبن من بين فرث ودم، واستخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب، والعسل من بطون النحل، إنها كلها أشربة تخرج من أجسام مختلفة: الماء، اللبن، السكر، العسل.

65- من نعم الله أنه أنزل من السماء مطرًا، فأنبت به أنواعًا مختلفة من النبات، في أرض ميتة يابسة فأحياها الله بالماء، إن هذا الإحياء دليل واضح وحجة قاطعة على وحدانية الله وقدرته، وعلى الحياة بعد الموت، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت: 39).

66- وعبـرة أخرى من الأنعام التي ينتفع الإنسـان بلحومهـا وألبانها ثم كيف يستخلص هـذا اللبن الأبيـض المفيـد: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾.

«فهـذا اللبـن الذي تدره ضـروع الأنعام مِمَّ هو؟ إنه مستخلص من بيـن فـرث ودم، والفـرث لا يتبقـى فـي الكـرش بعـد الهضـم، وامتصـاص الأمعـاء للعصارة التـي تتحول إلى دم، هـذا الدم الذي يذهب إلى كل خلية في الجسم فإذا صار إلى غدد اللبن في الضرع تحول إلى لبن ببديع صنع الله.

وعملية تحول الخلاصات الغذائية في الجسـم إلى دم، وتغذية كل خليـة بالمـواد التي تحتـاج إليها من مـواد هذا الـدم، عملية عجيبة فائقـة العجب، وهي تتم في الجسـم فـي كل ثانية، كما تتم عمليات الاحتـراق، وفـي كل لحظـة تتم في هـذا الجهاز الغريـب عمليات هدم وبناء مسـتمرة لا تكف حتى تفارق الروح الجسـد، ولا يملك إنسـان سـويُّ الشـعورِ أن يقـف أمـام هـذه العمليـات العجيبـة ثم لا تهتـف كل ذرة فيـه بتسـبيح اللـه الخالـق المبـدع لهـذا الجهـاز الإنسانيِّ، الذي لا يقاس إليه أعقد جهاز من صنع الإنسان، ولا إلى خلية واحدة من خلاياه التي لا تحصى.

ووراء الوصـف العـام لعمليـات الامتصاص والتحـول والاحتراق تفصيـلات تديـر العقل، وعمل الخلية الواحدة في الجسـم في هذه العملية عجب لا ينقضي التأمل فيه[1].

(1) في ظلال القرآن لسيد قطب 14 - 2180، 2181.

شهادة مستشرق

يكتب المستشرق موريس بوكاي عن هذه الآية فيقول:

«لكي نفهم معنى هذه الآية من وجهة النظر العلمية فلا بد من الاستعانة بمعلومات علم وظائف الأعضاء: تأتي المواد الأساسية التي تتكفل بتغذية الجسم عامة من تفاعلات كيميائية تحدث في القناة الهضمية، وتأتي هذه المواد من عناصر موجودة في محتوى الأمعاء، وعندما تصل هذه المواد الموجودة بالأمعاء إلى المرحلة المطلوبة في التفاعل الكيميائيِّ، فإنها تمر عبر جدار الأمعاء نحو الدورة العامة، ويتم هذا الانتقال بطريقتين: إما مباشرة بواسطة ما يسمى بالأوعية اللمفاوية، وإما بشكل غير مباشر بواسطة الدورة البابية، التي تقود هذه المواد إلى الكبد حيث تقع عليها بعض التعديلات ثم تخرج من الكبد لتذهب أخيرًا إلى الدورة الدموية بهذا الشكل، إذن يمر كل شيء بالدورة الدموية.

والغدد الثديية هي التي تفرز مكونات اللبن، وتتغذى هذه الغدد، إذا جاز القول، بمنتجات هضم الأغذية التي تأتي إليها بواسطة الدم الدائر، الدم إذن يلعب دور المحصل والناقل للمواد المستخرجة من الأغذية، ومغذي الغدد الثديية منتجة اللبن مثلما يغذي أيَّ عضو آخر، كل شيء يحدث هنا إذًا ابتداء من مواجهة محتوى الأمعاء مع الدم في الجدار الأمعائي نفسه، هذه المعلومة المحددة تعد اليوم من مكتسبات الكيمياء وفسيولوجيا الهضم، وكانت غير معروفة مطلقًا في عصر النبي ﷺ. إن معرفتها ترجع إلى العصر الحديث، أما اكتشاف الدورة الدموية فهو من عمل هارفي Harvey ، وقد تم هذا الاكتشاف بعد عشرة قرون تقريبًا من تنزيل القرآن.

إنـي أعتقـد أن وجود الآية القرآنية التي تشـير إلى تلـك المعلومات لا يمكن تفسيره وضعيًّا، وذلك بالنظر إلى بعد العصر الذي صيغت فيه هذه المعلومات»[1].

إن وجـود هـذه الحقيقـة وكثيـر غيرهـا يثبـت أن هـذا الوحـي هـو مـن عنـد اللـه، فالبشـرية كلهـا كانـت تجهـل يومـذاك أمثـال هـذه الحقيقة.

وهنـاك حقيقـة أخرى تجاور هـذه الحقيقة تتعلق بالنحـل، كما ذكر القـرآن في مواضع أخرى حقائق عـن العنكبوت والطيور تتعلق بالنظام المحكـم المعجز الذي يتحكم في السـلوك الحيواني، ويتفق مع وجهة النظـر العلميـة. وصدق اللـه العظيـم: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 82).

67- ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾:

قـال النسـفيُّ: «هنـا محـذوف تقديـره: ونسـقيكم مـن ثمـرات النخيـل والأعنـاب أي مـن عصيرهمـا، وحـذف لدلالـة نسـقيكم قبله عليه».

ونعـم الله أشـمل مـن أن تكون مشـروبة أو مطعومـة، فمن ثمرات النخيل والأعناب ما يؤكل، ومنه ما يشرب: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

---

(1) موريـس بوكاي، دراسـة الكتب المقدسـة فـي ضوء المعـارف الحديثة، الترجمة العربية لدار المعارف بالقاهرة ص 224.



(السكر): مصدر سمي به الخمر بمعنى السُّكر، كالرَّشد والرُّشد، قال الفراء: السكر الخمر نفسها، والرزق الحسن الزبيب والتمر وما أشبههما، ولا يقال: الخمر محرمة، فكيف ذكرها الله في معرض الأنعام؟ لأن هذه السورة مكية، وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة، فكان نزول هذه الآية في الوقت الذي كانت فيه الخمر غير محرمة. وأجاب الرازيُّ بجواب ثانٍ، وهو: أنه لا حاجة إلى التزام هذا النسخ، وذلك لأنه تعالى ذكر ما في هذه الأشياء من المنافع، وخاطب المشركين بها، والخمر من أشربتهم، فهي منفعة في حقهم، قال: ثم إنه تعالى نبه في هذه الآية أيضًا على تحريمها، وذلك لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر، فوجب ألَّا يكون السكر رزقًا حسنًا.

وقال ابن عباس: السكر ما حُرِّم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما، وفي رواية: السكر حرامه والرزق الحسن حلاله، يعني ما يبس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء، وهو الدبس، وخل ونبيذ حلال يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك[1]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: إن في ذلك لآية باهرة لمن يستعملون عقولهم في التأمل، والعقل أشرف ما في الإنسان؛ ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولهم.

---

(1) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق: محمد علي الصابوني، المجلد الثاني ص 336.

وقد دلت الآية على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب كما هو مذهب الجمهور.

وفي (فتح البيان): قد حمل السكر جماعة من الحنفية على ما يسكر من الأنبذة، وعلى ما ذهب ثلثاه بالطبخ حتى يشتد إلى حد السكر كما في الكشاف.

وقالوا: إنما يمنُّ الله على عباده بما أحله لا بما حرمه عليهم. وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر.

68، 69- ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾:

المراد من الوحي الإلهام والهداية إلى بنائها تلك البيوت العجيبة المسدسة من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض، مما لا يمكن مثله للبشر إلا بأدوات وآلات، وقد أرشدها الله تعالى إلى بناء بيوتها في ثلاثة أمكنة: الجبال والشجر وبيوت الناس، حيث يعرشون؛ أي يبنون العروش جمع (عرش)، وهو البيت الذي يُسْتَظلُّ به كالعريش، وليس للنحل بيت في غير هذه الأمكنة: الجبال والشجر وبيوت الناس، والنحل نوعان: جبلية تسكن في الجبال والفيافي ولا يتعهدها أحد من الناس، وأهلية

تـأوي إلـى البيـوت وتتعهـد فـي الخلايـا، ومن بديـع الإلهـام فيها اتخاذهـا البيـوت قبـل المرعى، فهي تتخذهـا أولًا، فإذا اسـتقر لها بيـت خرجت منـه فرعت وأكلت من الثمرات، ثـم أوت إلى بيوتها ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي مـن كل ثمـرة تشـتهينها، حلوها ومُرِّها ﴿ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ ﴾ أي فاسلكي الطرق التي ألهمك الله أن تسلكيها وتدخلي فيها لطلب الثمار، ولا تعسر عليك وإن توعرت، ولا تضلي عن العودة منها وإن بعدت.

فهـي تسـلك هـذا الجـو العظيـم، والبـراري الشاسـعة، والأوديـة والجبـال الشـاهقة، ثم تعـود كل واحدة منها إلى بيتهـا لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة.

﴿ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ ﴾ أي يخـرج مـن بطونهـا عسـل مختلف الألوان، فتـارةً يكون أبيض، وأخـرى أصفر، وحينًا أحمر بحسب اختلاف المرعى.

﴿ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ ﴾ لأنـه نافع لكثير من الأمراض، وكثيرًا ما يدخل في تركيب العقاقير والأدوية.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فـي إلهـام اللـه لهـذه الـدواب الضعيفـة الخلقـة، فتقع في حرارة عبقة، وزهرة أنقة، ثم تصدر عنها بما تحفظه رضابًا، وتلفظه شرابًا..

وفـي كل شيء لـه آيـةٌ   تـدل على أنـه الواحـدُ

مملكة النحل:

تتبع العلماء أحوال النحل، وكتبوا عنها مؤلفات بلغات متعددة، وقد وصلوا من ذلك إلى الأمور الآتية:

1- يعيش النحل في جماعات كبيرة وقد يصل عدد بعضها إلى نحو خمسين ألف نحلة، وتسكن كل جماعة منها في بيت خاص يسمى خلية.

2- إن كل خلية يكون فيها نحلة واحدة كبيرة تسمى الملكة أو اليعسوب، وهي أكبرهم جثة، وأمرها نافذ فيهم، وعدد يتراوح بين أربعمائة نحلة وخمسمائة يسمى الذكور، وعدد آخر من خمسة عشر ألفًا إلى خمسين ألف نحلة، ويسمى الشغالات أو العاملات.

3- تعيش هذه الفصائل الثلاث في كل خلية عيشة تعاونية، على أدق ما يكون نظامًا، فعلى الملكة وحدها وضع البيض الذي يخرج منه نحل الخلية كلها، فهي أم النحل، وعلى الذكور تلقيح الملكات، وليس لها عمل آخر. وعلى الشغالة خدمة الخلية وخدمة الملكات وخدمة الذكور، فتنطلق في المزارع طوال النهار لجمع رحيق الأزهار، ثم تعود إلى الخلية فتفرز عسلًا يتغذى به سكان الخلية صغارًا وكبارًا، وتفرز الشمع الذي تبني به بيوتًا سداسية الشكل تخزن في بعضها العسل، وفي بعض آخر منها تربي صغار النحل، ولا يمكن لمهندس حاذق أن يبني مثل هذه البيوت حتى يستعين بالآلات كالمسطرة والفرجار (البرجل).

قال الجوهري: ألهمها الله أن تبني بيوتًا على شكل سداسي، حتى لا يحصل فيه خلل ولا فرجة ضائعة، كما عليها أن تنظف الخلية وتخفق بأجنحتها لتساعد على تهويتها، وعليها الدفاع عن المملكة وحراستها من الأعداء كالنمل والزنابير وبعض الطيور[1].

والمعروف أن النحل يملك وسيلة للتخاطب وذلك عن طريق الرقص، إن النحل قادر على أن يعرف بهذا الشكل الاتجاه الذي يجب أن يتخذه والمسافة التي توجد عليها الزهور التي سيمتص رحيقها، وتثبت تجربة (فون فريش) الشهيرة دلالة حركات الحشرات التي يقصد بها نقل المعلومات بين النحل العامل وبعضه[2].

وهناك نظام عصبي رائع هو قاعدة سلوك النحل، ويشكل هذا النظام أمثلة غاية في الجمال عن النظام الراقي لسلوك النحلة، وفي الأثر: (المؤمن كالنحلة) أي عالية الهمة، ولا تقع إلا على طيب، وإذا وقعت على شيء لم تكسره، وهي خفيفة التكاليف، كثيرة المنافع.

من إحياء علوم الدين للغزالي:

يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي: «انظر إلى النحل كيف أوحى الله إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتًا، وكيف استخرج

---

(1) تفسير المراغي 14 – 104.

(2) موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة.

مـن لعابهـا الشـمع والعسـل، وجعـل أحدهمـا ضيـاء والآخـر شـفاء!
ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار، واحتراسها من
النجاسـات والأقـذار، وطاعتهـا لواحـد مـن جماعتهـا وهـو أكبرهـا
شـخصًا، وهـو أميرها، ثم ما سـخر اللـه لأميرها من العـدل والإنصاف
بينهـا، حتـى إنـه ليقتـل منهـا على بـاب المنفـذ كل مـا وقع منهـا على
نجاسـة، لقضيـت مـن ذلـك العجـب، إن كنـت بصيـرًا فـي نفسـك،
وفارغًـا مـن هم بطنك وفرجك، وشـهوات نفسـك في معـاداة أقرانك
ومـوالاة إخوانـك! ثـم دع عنك جميع ذلـك، وانظر إلى بنيانهـا بيتًا من
الشـمع، واختيارهـا من جميع الأشـكال الشـكل المسـدس، فـلا تبني
مسـتديرًا ولا مربعًـا ولا مخمسًـا، بـل مسدسًـا؛ لخاصيـة فـي الشـكل
المسدس.

فانظـر كيـف ألهم الله تعالى النحل، على صغر جرمه، ذلك لطفًا به،
وعنايـة بوجـوده فيمـا هو محتـاج إليه، ليهنأ عيشـه، فسـبحانه ما أعظم
شـأنه، وأوسـع لطفـه وامتنانـه! وفي طبعـه أن يهرب بعضـه من بعض،
ويقاتل بعضه بعضًا في الخلايا، ويلسـع من دنا من الخلية، وربما هلك
الملسـوع، وإذا هلـك شـيء منهـا داخل الخلايـا أخرجتـه الأحياء إلى
الخـارج، وفي طبعـه أيضًا النظافة؛ فلذلك يخرج رجيعه من الخلية لأنه
منتـن الريـح، وهـو يعمـل زماني الربيـع والخريـف، والـذي يعمله في
الربيـع أجـود، والصغير أعمل من الكبير، وهو يشـرب من الماء ما كان
صافيًـا عذبًـا يطلبه حيث كان، ولا يأكل من العسـل إلا قدر شـبعه، وإذا
قل العسـل في الخلية، قذفه بالماء ليكثر خوفًا على نفسه من نفاده، لأنه

إذا نفد أفسد النحل بيوت الملوك، وبيوت الذكور، وربما قتلت ما كان منها هناك»(1).

قال حكيم من اليونان لتلاميذه: كونوا كالنحل في الخلايا. قالوا: وكيف النحل في الخلايا؟ قال: إنها لا تترك عندها بطالًا إلا نفته وأبعدته وأقصته عن الخلية؛ لأنه يضيق المكان، ويفني العسل، ويعلم النشيط الكسل.

(حديث صحيح):

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه. فقال: «**اسْقِهِ عسلا**». فذهب فسقاه عسلًا، فقال: يا رسول الله، سقيته عسلًا ما زاده إلا استطلاقًا. قال: «**اذهب فاسقه عسلًا**». فذهب فسقاه عسلًا، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقًا. فقال رسول الله ﷺ: «**صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلًا**». فذهب فسقاه عسلًا فبرأ (2).

---

(1) تفسير القاسمي: 10 - 3829، نقلاً عن: إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي.

(2) أخرجه البخاري في: 76 - كتاب الطب 4 - باب الدواء بالعسل وقول الله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ حديث 2251.
وأخرجه مسلم في 39 - كتاب السلام حديث رقم 91.

النص الرابع عشر: تهديد

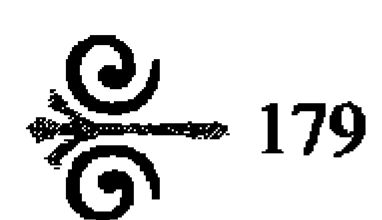
﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (الإسراء: 66 – 69).

المفردات والجمل:

66– ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى ﴾: يُجري ويسيِّر.

67– ﴿ضَلَّ مَن ﴾: جار عن طريقكم فلم يغثكم، ولم تجدوا غير الله ﴿مَن تَدۡعُونَ ﴾: من الأنداد ﴿إِلَّآ إِيَّاهُۖ ﴾: لم يجدوا غير الله مغيثًا.

﴿أَعۡرَضۡتُمۡۚ ﴾: عمـا دعاكم إليه من خلـع الأنداد، ﴿كَفُورًا ﴾: جاحدًا لنعم ربه.



68- ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾: إذا خرجتم من البحر كما فعل بقوم لوط. ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾: حجارة، فيمطركم بحجارة من السماء. ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾: منعة ولا ناصرًا.

69- ﴿ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ ﴾: تقصف ما مرّت به، قصف فلان ظهر فلان إذا كسره. ﴿ تَبِيعًا ﴾: نصيرًا ثائرًا به؛ أي ولا يخاف أن يتبع بشيء من ذلك.

المعنى الإجمالي[1]:

بدأت الآية بذكر بعض نعمه تعالى في البر والبحر على الإنسان، فهو الذي يجري له الفلك في البحر، لتنقل أرزاقه وأقواته من المسافات البعيدة، ولكن مع هذا هو كفور للنعمة، إذا مسه الضر دعا ربه، وإذا أمن أعرض عنه وعبد الأصنام والأوثان، فهل يأمن أن يخسف به الأرض، أو يرسل عليه حاصبًا من الريح في البر، أو قاصفًا من الريح في البحر فيغرقه بكفره؟

التفسير:

66- ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾:

ربكم الذي يجري لكم السفن في البحر لتسهيل نقل أقواتكم وحاجاتكم، من إقليم إلى آخر من أقصى المعمورة إلى أدناها،

(1) مقتبس من كتاب «تفسير سورة الإسراء» للدكتور عبد الله محمود شحاتة، مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ص 193 - 196. واقتبست تفسير هذه الآيات منه أيضًا.

ولتطلبوا الربح بالتجارة والحصول على ما ليس عندكم من محصولات البشر والأمم، ولتنتقلوا من قطر إلى آخر، ابتغاء الرزق أو السياحة ورؤية مظاهر الكون ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ حيث سهل لكم أسباب ذلك.

67- ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

والسياق يعرض هذا المشهد، مشهد الفلك في البحر نموذجًا للحظات الشدة والحرج؛ لأن الشعور بقدرة الله في الخضم أقوى وأشد حساسية، حيث تصبح الفلك نقطة من الخشب أو المعدن تائهة في الخضم، تتقاذفها الأمواج والتيارات، والناس متشبثون بهذه النقطة على كف الرحمن.

إنه مشهد يحس به من كابده، ويحس بالقلوب الخافقة الواجفة، المتعلقة بكل هزة وبكل رجفة في الفلك صغيرة كانت أو كبيرةً، وحتى عابرات المحيط الجبارة، التي تبدو في بعض اللحظات كالريشة في مهب الريح على ثبج الموج الجبار.

والتعبير يلمس القلوب لمسة قوية، وهو يشعر الناس أن يد الله تزجي لهم الفلك في البحر ليبتغوا من فضله.

ثم ينتقل بهم من الإزجاء الرخي للاضطراب العتي، حين ينسى الركب في هذا الفلك المتناوح بين الأمواج كل قوة وكل سند وكل مجير إلا الله، فيتجهون إليه وحده في لحظة الخطر، لا يدعون أحدًا سواه ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

وخلاصة ذلك أنكم إذا مسكم الضر دعوتم الله منيبين إليه مخلصين له الدين.

«وهذه الآية مما يستدل به على الرجوع إلى الفطرة الصحيحة، وقد استدل لكثير من الأصول بها، كما يعلم ذلك من كلام الأئمة في مسائل شتى، كمسألة وجود الخالق وعلوه، والمعاد وغيرها[1].

﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ ﴾ من الغرق ﴿ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾: أي من عجيب أمركم أنكم حين دعوتموه وأغاثكم، وأجاب دعاءكم ونجاكم من الهول، أعرضتم وعدتم إلى ما كنتم عليه فنسيتم لحظة الشدة، وتقاذفتكم الأهواء، وجرفتكم الشهوات وجحدتم فضل الله عليكم.

﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ أي وكانت سجية الإنسان وطبيعته، أن ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله.

وخلاصة ما سلف: إنكم حين الشدائد تجأرون طالبين رحمته، وحين الرخاء تعرضون عنه.

وهنا يستجيش السياق وجدان المخاطبين بتصوير الخطر الذي تركوه في البحر، وهو يلاحقهم إلى البر، أو هم يعودون إليه في البحر، ليشعروا أن الأمن والفرار لا يكونان إلا في جوار الله وحماه، لا في البحر ولا في البر، لا في الموجة الرخية والريح المواتية، ولا في الملجأ الحصين والمنزل المريح.

---

(1) تفسير القاسمي: 10 - 3949.

68، 69- ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

إن البشر في قبضة الله في كل لحظة، وفي كل بقعة، إنهم في قبضته في البر كما هم في قبضته في البحر، فكيف يأمنون ؟

كيف يأمنون أن يخسف بهم جانب البر بزلزال أو بركان، أو بغيرهما من الأسباب المسخرة لقدرة الله؟ أو يرسل عليهم عاصفة بركانية تقذفهم بالحمم والماء والطين والأحجار، فتهلكهم دون أن يجدوا من دون الله وكيلًا يحميهم ويدافع عنهم؟

أم كيف يأمنون أن يردهم الله إلى البحر فيرسل عليهم ريحًا قاصفة، تقصف الصواري، وتحطم السفن، فيغرقهم بسبب كفرهم وإعراضهم، فلا يجدون من يطالب بعدهم بتبعة إغراقهم؟!

«ألا إنها الغفلة أن يعرض الناس عن ربهم ويكفروا، ثم يأمنوا أخذه وكيده، وهم يتوجهون إليه وحده في الشدة ثم ينسونه بعد النجاة، كأنها آخر شدة يمكن أن يأخذهم بها الله»[1].

وقد كرم الله الإنسان على كثير من خلقه، كرمه بخلقته على تلك الهيئة بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان.

(1) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب 51 - 53.

وكرمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته، والتى استأهل بها الخلافة في الأرض، يغير فيها ويبدل، وينتج فيها وينشئ، ويركب فيها ويحلل، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة.

وكرمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض، وإمداده بعون القوى الكونية في الكواكب والأفلاك.

وكرمه بذلك الاستقبال الفخم، استقبله به الوجود، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة، ويعلن فيه الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان.

وكرمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملأ الأعلى الباقي في الأرض وهو القرآن.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: 70).

النص الخامس عشر: الخلق

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأنبياء: 30 – 33).

المفردات والجمل:

30– ﴿ كَانَتَا رَتْقًا ﴾: ملتصقتين فرفع الله السماء، ووضع الأرض، وفصل بينهما بالهواء.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾: أحيينا بالماء الذي ننزله من السماء كل شيء والنبات والشجر .

31– ﴿ رَوَٰسِىَ ﴾: جبالًا راسية ثابتة.

﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾: ألا تتكفأ بهم.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾: في الأرض؛ لأن الجبال من الأرض.

﴿ فِجَاجًا ﴾: أعلامًا ومسالك. ﴿ سُبُلًا ﴾: طرقًا.

﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾: ليهتدوا أثناء السير فيها.

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا ﴾: للأرض، ﴿ مَّحْفُوظًا ﴾: من كل شيطان رجيم ﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾: عن حجج الله عليهم، ودلالات ربوبيته في خلقها وشمسها، وقمرها ونجومها، معرضون عن التفكير بها والاعتبار.

33- ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ ﴾: يعني في مدار خاص به، قال بعضهم: هو حديدة الرحى ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾: ينطلقون ويتحركون ويعومون مرتبطين بنظام هذا الكون.

التفسير:

30- يمن الله على عباده بخلق هذا الكون، وإيجاده من العدم «والمعنى ألم يعلموا أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة لا فتق فيها ولا انفصال، وهو ما يسمى في عرف علماء الفلك بالسديم، وبلغة القرآن بالدخان ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ بفصل بعضهما عن بعض، فكان منهما ما هو سماء ومنهما ما هو أرض»(1).

وقد نقل ابن كثير عن ابن عباس وغيره من أعلام التفسير قولهم: (كانت السموات رتقًا لا تمطر، وكانت الأرض رتقًا لا تنبت، وكانتا ملتصقتين ففصل الله بينهما بالهواء، فكان في ذلك فتق السماء بالمطر، وفتق الأرض بالنبات).

---

(1) انظر تفسير النص السادس، والعبارة من تفسير المنار.

وقيل: (الرتق): مجاز عن العدم، و(الفتق): مجاز عن الإيجاد والإظهار، كقوله تعالى: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1]. وقال بعض علماء الفلك:

معنى ﴿ كَانَتَا رَتْقًا ﴾: أي شيئًا واحدًا، ومعنى ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ فصلنا بعضهما عن بعض.

قال: فتدل الآية على أن الأرض خلقت كباقي الكواكب السيارة من كل وجه. أي أنها إحدى هذه السيارات، وهي مثلها في المادة وكيفية الخلق وكونها تسير حول الشمس، وتستمد النور والحرارة منها، وكونها مسكونة بحيوانات كالكواكب الأخرى، وكونها كروية الشكل، فالسيارات أو السموات هي متماثلة من جميع الوجوه، وكلها مخلوقة من مادة واحدة وهي مادة الشمس، وعلى طريقة واحدة. اهـ. كلامه[2].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ صيرنا كل شيء حي بسبب الماء لا يحيا دونه، فيدخل فيه النبات والشجر؛ لأنه من الماء صار ناميًا، وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر، وإسناد الحياة إلى ظهور النبات معروف في آيات شتى كقوله تعالى: ﴿ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ (الروم: 19). وخص بعضهم الشيء بالحيوان، لما ورد في الآية 45 من سورة النور

(1) الأنعام: 14، وانظر تفسير القاسمي 11 - 4266.

(2) تفسير القاسمي 11 - 4267.



﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ ولا ضرورة إليه، بل العموم أدل على القدرة، وأعظم في العبرة، وأبلغ في الخطاب، وألطف في المعنى[1].

31- ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾:

أي ألقينا في الأرض جبالاً راسية حتى تحفظ توازنها فلا تضطرب ولا تختل، ولولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب مما في جوفها من المواد الدائمة الجيشان.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾:

أي جعلنا في الأرض طرقًا ليهتدوا أثناء السير فيها، وقال ابن كثير: جعلنا ثغرًا في الجبال يسلكون فيها طرقًا من قطر إلى قطر، ومن إقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة ثغرة؛ ليسلك الناس فيها من هنا إلى هنا، ولهذا قال: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

32- ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾:

بارك الله في الأرض، وحفظ توازنها بالجبال، وقدر فيها أرزاقًا بالماء والفضاء والهواء.

وجعل السماء سقفًا وغطاء لحفظ الأرض، وحفظ الله السماء من الخلل والفطور والتشقق، كما حفظها من الشياطين بالشهب، قال تعالى: ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ (الحجر: 17). ﴿ وَهُمْ عَنْ

---

(1) انظر تفسير القاسمي 11 - 4268.

ﺀَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴾ أي لا يتفكرون فيما خلق الله في السماء من الارتفاع الباهر، والاتساع العظيم، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها، من هذه الشمس التي تقطع بكماله في يوم وليلة؛ فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيرها.

وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴾ (يوسف: 105).

33- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾.

الله ﴿خَلَقَ ٱلَّيۡلَ﴾ ليسكن الإنسان في ظلامه ويهدأ، وخلق ﴿ ٱلنَّهَارَ﴾ مبصرًا ليسعى فيه على رزقه وينشط لعلمه، وخلق الله الشمس لتكون سراجًا للنهار، ولتمد الناس والكون بالدفء والحرارة، وخلق الله ﴿ٱلۡقَمَرَ﴾: نورًا لليل، ويرتبط بالقمر المد والجزر، وقد سخر الله هذه الكائنات، وأبدع نظامها، ويسر لها حركتها، ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾: كل واحد منهما يجري في الفلك كالسباح في الماء، قال في ظلال القرآن: (والليل والنهار ظاهرتان كونيتان، والشمس والقمر جرمان هائلان لهما علاقة وثيقة بحياة الإنسان في الأرض، وبالحياة كلها.. والتأمل في توالي الليل والنهار، وفي حركة الشمس والقمر بهذه الدقة التي لا تختل مرة، وبهذا الاطراد الذي لا يكف لحظة، جدير بأن يهدي القلب إلى وحدة الناموس ووحدة الإرادة ووحدة الخالق المدبر القدير).

النص السادس عشر: تسخير الريح

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (الأنبياء: 78 – 82).

المفـــردات والجمـــل:

78- ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ ﴾: حرث الأرض، وجائز أن يكون زرعًا وكرْمًا: دخلت ليلاً فرعته وأفسدته.

79- ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ ﴾: أي القضية في ذلك، أي ألهمنا سليمان فقه القضاء في هذه المشكلة ﴿ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾: قد قضينا أنَّا فاعلون ذلك، ومسخرو الجبال والطير مع داود في أم الكتاب.



80- ﴿ صَنْعَةَ لَبُوسٍ ﴾: اللبوس عند العرب: السلاح كله، سواء أكان درعًا أم جوشنًا (الزرد الذي يلبس على الصدر) أو رمحًا، واللبوس في هذا الموضع هو الدرع، وقيل: كان داود عليه السلام أول من سرد الدرع (صنعها). ﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾: لتحرزكم إذا لقيتم فيه أعداءكم، والبأس: القتال.

81- ﴿ عَاصِفَةً ﴾: شديدة ﴿ ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾: بالشام.

82- ﴿ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ ﴾: في البحر ﴿ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾: من البنيان، والمحاريب والتماثيل ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾: لا يصعب علينا حفظ أعمالهم وأعدادهم.

التفسيـــــر:

تفيد هذه الآيات تجاوب الكون مع المؤمنين، فالجبال تسبح مع تسبيح داود، والطير تقف عندما تسمع صوته، وتردد نشيده، وقد أعطاه الله جمال الصوت، وحلو الكلام، فاستمال بصوته الجماد والحيوان.

وفي ذلك ما يفيد أن الكون كله خاضع للقدرة، مستجيب لنداء العظمة الإلهية، يردد ألحان التوحيد، ونغمات التسبيح، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾.

78- تفيد الآية الأولى والثانية قصة مشهورة في كتب التفسير والحديث تفصيلها كما يأتي:

دخل رجلان على نبي الله داود، أحدهما صاحب حرث (أي حقل وقيل حديقة كَرْم)، والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن غنم هذا قد نفشت في حرثي - أي انطلقت فيه ليلاً - فلم تبق منه شيئًا، فحكم داود لصاحب الحرث أن يأخذ غنم خصمه مقابل حرثه، حيث كان الحرث أغلى ثمنًا من قيمة الغنم.

ومر صاحب الغنم بسليمان فأخبره بقضاء داود، فدخل سليمان على أبيه فقال: عدل الملك وغير ذلك كان أرفق. فقال داود: كيف؟

قال سليمان: ادفع الغنم إلى صاحب الحرث لينتفع بها، وادفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان، ثم يعيد كل منهما إلى صاحبه ما تحت يده، فيأخذ صاحب الحرث حرثه، وصاحب الغنم غنمه.

فقال داود: القضاء ما قضيت. وأمضى حكم سليمان[1].

وقد كان حكم داود وسليمان اجتهادًا منهما، والمجتهد إذا أصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر واحد، ولذلك قال سبحانه:

﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ لقد اتجه داود إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث عن الضرر الذي أصابه، وهذا عدل في ذاته، ولكن سليمان اتجه مع العدل إلى البناء والتعمير، وكان هذا توفيقًا من الله له، وكل من داود وسليمان، قد أعطاه الله حكمة وعلمًا كثيرًا، لا سليمان وحده، ففيه دفع ما عسى أن يوهمه

---

(1) ورد ذلك في تفسير ابن جرير، وابن كثير والنسفي والقاسمي وغيرهم.



تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهم، من عدم كون حكم داود حكمًا شرعيًّا، والآية تدل على رفع الإثم عن المخطئ، بعد أن يفرغ طاقته في الاجتهاد.

وفي الصحيحين وغيرهما: **«إن الحاكم إذا اجتهد فأصاب له أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر»**[1].

قال الحسن: لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا، ولكن الله حمد هذا بصوابه، وأثنى على هذا باجتهاده.

وروى الإمام أحمد، والنسائي، والبخاري، ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«بينما امرأتان معهما ابنان لهما، إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى فخرجتا، فدعاهما سليمان، فقال هاتوا السكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى: يرحمك الله، هو ابنها لا تشقه، فقضى به للصغرى»**.

قال السيوطي في الإكليل:

استدل بها على جواز الاجتهاد في الأحكام ووقوعه للأنبياء، وأن المجتهد قد يخطئ، وأنه مأجور مع الخطأ غير آثم، لأنه تعالى أخبر بأن إدراك الحق مع سليمان، ثم أثنى عليهما، واستدل بها من قال برجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاد إلى أرجح منه، وفيها تضمين أرباب المواشي ما أفسدت بالليل دون النهار، لأن النفش

---

(1) أخرجه البخاري في: 96 - كتاب الاعتصام، 21 - باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، الحديث رقم «2593» عن عمرو بن العاص، وأخرجه مسلم في: 30 كتاب الأقضية، حديث رقم 15.

لا يكون إلا بالليل، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن شريح والزهري وقتادة، ومن عمم الضمان فسره بالرعي مطلقًا، وذهب قوم، منهم الحسن، إلى أن صاحب الزرع تدفع إليه الماشية، ينتفع بدرها وصوفها حتى يعود الزرع كما كان، كما حكم به سليمان في هذه الواقعة، إذ لم يرد في شرعنا نسخ مقطوع به عندهم. انتهى.

وفي السنن[1]: «القضاة ثلاثة، قاض في الجنة، وقاضيان في النار، رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار» ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾: أي سخرنا الجبال والطير يقدسن الله معه، بصوت يتمثل له. أو يخلق فيها، قال ابن كثير: وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه تأويبًا، ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري لقراءته، وقال: «**لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود**»، قال أبو موسى: يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرًا[2].

وقال أبو عثمان الهندي: ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا مزمار مثل صوت أبي موسى ﷺ. وتقديم الجبال على الطير،

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الأقضية، وباب في القاضي يخطئ، حديث رقم 3573 عن بريدة. وأخرجه ابن ماجه في 13 - كتاب الأحكام، 3 باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق، حديث رقم 2315، وانظر تفسير القاسمي 11 - 4293.

(2) أخرجه البخاري في: 66 - كتاب فضائل القرآن ، 31 - باب حسن الصوت بالقراءة، حديث رقم 2097، وأخرجه مسلم في 6 - كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

لأن تسبيحها أعجب وأدل على القدرة، وأدخل في الإعجاز، لأنها جماد، والتذييل بقوله: ﴿ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ إشارة إلى أنه ليس ببدع في جانب القدرة الإلهية، وإن كان عند المخاطبين عجيبًا وهذه الآية كقوله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ (ص: 17 - 19).

وقد جاء في إحياء علوم الدين للغزالي، نماذج رائعة من عبادة داود وذكره وبكائه، فذكر أنه كان يبكي حتى نبت المرعى من بكائه، فقال يومًا: يا ربي أما ترحم بكائي. فقال الله عز وجل: يا داود ذكرت بكاءك ونسيت خطيئتك. فقال: يا ربي، وكيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجاري، وسكن هبوب الرياح، وأظلني الطير، وأنست الوحوش إلى محرابي!! إلهي ما هذه الوحشة التي بيني وبينك!! قال الله عز وجل: يا داود ذاك أنس الطاعة، وهذه وحشة المعصية، يا داود، آدم خلق من خلقي، خلقته بيدي، وأسكنته فسيح جنتي، وشكا إليَّ الوحدة فزوجته حواء أمتي، عصاني فأخرجته عريانَ ذليلًا.

قال داود: يا رب إذا تبت إليك أتقبلني؟ فقال الله تعالى: يا داود، أطعتنا فأطعناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك.

80- ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾:

تلك هي صنعة الدروع حلقًا متداخلة، بعد أن كانت تصنع صفيحة واحدة جامدة، والزرد المتداخل أيسر استعمالاً، وأكثر مرونة، ويبدو أن داود هو الذي ابتدع هذا النوع من الدروع بتعليم الله، والله يمن على الناس أن علم داود هذه الصناعة لوقايتهم في الحرب، ولهذا قال: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾: أي لتحفظكم من جراحات قتالكم، ثم يسألهم سؤال توجيه وتخصيص ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾: أي هلاَّ شكرتم صاحب الأفضال والنعم بدلاً من أن تتجهوا إلى سواه، وقريب من هذه الآية قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ (سبأ: 10، 11)

أي طوع الله الحديد لداود، ليعمل منه دروعًا سابغة على الجسم تحميه من الأعداء و﴿ٱلسَّرْدِ﴾: المسامير التي في الحلق أي ضبط اتساع الحلقة والمسامير التي تربطها بقدر متناسب معها، فلا توسع الحلقة فتغلق المسمار، ولا تغلظ المسمار فتقدَّ الحلقة.

81- ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ أنعم الله على داود وابنه سليمان بنعم متعددة، وقد ذكر الله هذه النعم في غير موضع من القرآن الكريم، وفي هذه الآية والآية التي تليها حديث عن نعم الله على سليمان وتسخير الريح لخدمته، وتسخير الجن والشياطين في طاعته.

وفي تفسير ابن كثير وغيره من كتب التفسير، نجد روايات وأقاويل حول سليمان، وحول بساط الريح، ومعظم هذه الآيات

والتصورات مستمدة من الإسرائيليات، وكتاب ربنا غني في فهمه وفي تبيان مراده عن اللجوء إلى الإسرائيليات، وخير ما فسر القرآن هو القرآن أو السنة الصحيحة.

قال تعالى:

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (ص: 36)، أي طوَّعنا له الريح تسير حسب أمره لينة رخوة حيث أراد، وقال سبحانه:

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (سبأ: 12)، أي سخرنا لسليمان الريح ﴿غُدُوُّهَا﴾: إلى انتصاف النهار مسيرة شهر ﴿وَرَوَاحُهَا﴾: شهر من انتصاف النهار إلى الليل فكان يسير في كل يوم مسيرة شهرين، ﴿ وَأَسَلْنَا ﴾: أجرينا كما يسيل الماء ﴿ لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾: عين النحاس ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾: يطيعه ويعمل بين يديه ما يأمره ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾: بأمره وتسخيره ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾: ومن يعدل منهم عن طاعة سليمان يتعرض لعذاب أليم.

وصفوة القول:

أن الله سخر لسليمان الريح تسير بأمره إلى الأرض المباركة وهي بيت المقدس، والله عالم بما تقتضيه الحكمة البالغة في ذلك.

قال النسفي:

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ ﴾: أي وسخرنا له الريح ﴿عَاصِفَةً﴾: حال، أي شديدة الهبوب، ووصفت في موضع آخر بالرخاء؛ لأنها تجري باختياره، فكانت في وقت رخاء وفي وقت عاصفة؛ لهبوبها على حكم إرادته ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾: بأمر سليمان ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾: بكثرة الأنهار والثمار والأشجار، والمراد الشام، وكان منزله بها، وتحمله الريح من نواحي الأرض إليها. ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾: وقد أحاط علمنا بكل شيء، فتجري الأشياء كلها على ما يقتضيه علمنا.

﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾: سخر الله الجن والشياطين لسليمان عليه السلام، ليغوصوا في أعماق البحر أو أعماق اليابسة، ويستخرجوا كنوزها المخبوءة لسليمان، أو ليعملوا أعمالاً غير هذا وذاك، فالجن كل ما خفي، وقد قررت النصوص القرآنية أن هناك خلقًا يسمون الجن خافين علينا، فمن هؤلاء سخر الله لسليمان من يغوصون له، ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ ﴾ أي غير ذلك كبناء المدن والقصور، واختراع الصنائع العجيبة كالجواب. ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[1].

---

(1) سورة (سبأ: 13) ﴿مَّحَٰرِيبَ﴾: جمع محراب والمحراب، مقدم كل مجلس ومصلى وبنيان، ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾: صور من نحاس وزجاج، ﴿وَجِفَانٍ﴾ ينحتونها له، جمع جفنة وهي القصعة، ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾: جمع جابية والجابية: الحوض الذي يجبى فيه الماء (أي يجمع)، ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾: ثابتات في أماكنهن لا يحولن لعظمهن ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾: اشكروا ربكم بطاعتكم إياه...

﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾: أي حفظهم الله فلا يهربون ولا يفسدون، لا يخرجون على طاعة عبده، وهو القاهر فوق عباده يسخرهم حيث يشاء كيف يشاء.

وقد أشارت آيات أخرى إلى أن الله أطلق يد سليمان في حكمهم ومعاقبة من شاء منهم وإطلاق سراح من شاء، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾(1).

---

(1) سورة (ص: 37 – 39). ومعنى ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ ﴾: وسخرنا له الشياطين وسلطناه عليها، ﴿ كُلَّ بَنَّآءٍ ﴾ يبني له ما يشاء ﴿وَغَوَّاصٍ﴾: يغوص في البحر يستخرج له الحلي، ﴿ وَءَاخَرِينَ ﴾: يعني مردة الشياطين ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مجموعي الأيدي إلى أعناقهم ﴿ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾: في السلاسل والأغلال.
﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا ﴾: هذا الذي أعطيناك من الملك وسخرنا لك ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾: أعط من شئت مما أعطيناك، أو امنع من شئت، لا حساب عليك فإنك موفق لمرضاة الله، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي في الدار الآخرة.

النص السابع عشر: التسخير

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ (الحج: 63 – 66).

المفردات والجمل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾: باستخراج النبات من الأرض بذلك الماء، وغير ذلك من ابتداع ما شاء.

التفسير:

63- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾: امتن الله على عباده بإنزال الماء، وإنبات النبات،

وإثـراء الحياة، فالمـاء مصدر الحياة والبهجة والنمو والسـعادة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: 30).

قال في ظلال القرآن:

ونزول الماء من السـماء ورؤية الأرض مخضرة بين عشية وصباح ظاهـرة واقعـة مكررة، قد تذهـب الألفة بجدتها فـي النفوس، فأما حين يتفتح الحس الشـاعر، فإن هذا المشهد في الأرض يستجيش في القلب شـتى المشـاعر والأحاسيس، وإن القلب ليحس أحيانًا أن هذا النبت الصغير الطالع من سـواد الطين، بخضرته وغضارته، أطفال صغار تبتسـم في غزارة لهذا الوجود الشـائق البهيج، وتكاد مـن الفرحـة بالنور تطير، والذي يحس على هذا النحو يسـتطيع أن يـدرك مـا فـي التعقيـب بقولـه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾... مـن لطف وعمق ومشـاكلة للون هذا الإحساس، ولحقيقة هذا المشهد وطبيعتـه فمن اللطـف الإلهي ذلـك الدبيب اللطيـف، دبيب النبتة الصغيـرة مـن جـوف الثرى، وهـي نحيلـــة ضئيلـــة، ويـد القدرة تمدهـا إلـى الهـواء، وتمدهـا بالشـوق إلـى الارتفاع علـى جاذبية الأرض وثقلـة الطين... وبالخبـرة الإلهية يتم تدبير الأمر في إنزال المـاء بقدر في الوقـت المناسـب وبالقدر المطلـوب ويتم امتزاج المـاء بالتربـة، وبخلايـا النبـات الحيـة، المتطلعـة إلـى الانطلاق والنور.

64- ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾: إن كل مـا فـي السـموات والأرض خاضع لمشـيئته،

مستجيب لإرادته، وهو سبحانه غني عن الجميع، وهو المحمود على آلائه، المشكور على نعمائه، المستحق للحمد من الجميع.

وفي السنة المطهرة أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يذكر الله قائلا: «**اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ضياء السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لا إله إلا أنت، وعدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنبيون حق ومحمد ﷺ حق**».

65- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: لقد سخر الله للإنسان الجبال والأنهار والبحار، والفضاء والهواء، وأمد الله الإنسان بمقومات الحياة، وأعطاه العقل لاستخراج كنوز الأرض والانتفاع بها، وخلق الله التوافق والتجانس بين نواميس الأرض وفطرة الإنسان..

ولا يزال العلم يهديه إلى غريب الأمور مما لم يخطر لأسلافه على بال. ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: 13) أي من إحسانه وفضله وامتنانه..

﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾: أي وسخر لكم السفن تجري في البحر برفق وتؤدة حاملة ما تريدون من نائي الأصقاع وبعيد المسافات، من سلع وحيوان وأناس، وبذلك يتم تبادل مرافق الحياة بالأخذ والعطاء.



﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾: وهو الذي خلق الكون وَفْقَ هذا النظام الذي اختاره له، وحكم فيه تلك النواميس التي تظل بها النجوم والكواكب مرفوعة متباعدة، لا تسقط ولا تصطدم بعضها ببعض، فالقدرة الإلهية تحفظ هذا الكون بنظامه البديع، وتنسيقه الرائع، ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فإذا اقتربت الساعة اختل نظام الكون وفقد تماسكه وترابطه وانسجامه. كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الانفطار: 1، 2).

فهو سبحانه يتفضل على عباده بالنعم، ثم يتولاهم بالحفظ والرعاية، ويسخر لهم نظام الكون على نسق يمكنهم من السعي والحياة والاستقرار والسعادة: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل: 53).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾:

1- لقد خلق الله الإنسان من العدم، ورزقه السمع والبصر وسائر الحواس، ويسَّر له أسباب الحياة.

2- ثم يمنُّ الله على الإنسان بالموت بعد انتهاء أجله، وخروج الروح سر من أسرار القدرة، ونعمة من الله على عباده.

3- ثم يمن الله على الإنسان بالحياة مرة أخرى بالبعث والنشور، وهناك يجد الحساب والجزاء، والثواب والعقاب، والملك في ذلك اليوم لله وحده سبحانه وتعالى.

4- والإنسان لم يوجه همته إلى جميع هذه النعم، فنسي فضل الله في الخلق والموت وفي الإعادة.

ونحو الآية قوله تعالى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: 28).

النص الثامن عشر: العِبرة

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (المؤمنون: 17 - 22).

المفردات والجمل:

﴿ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾: سبع سموات، والعرب تسمي كل شيء، فوق «طريقة». ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾: أي خلقنا الإنسان والكون، وأحاط علمنا بكل شيء، أو: لم نغفل عن حفظ الكون، والإبقاء على نظامه واتزانه ﴿ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾: أي بنظام مسبق وقوانين متكاملة ﴿ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: جعلنا في الأرض قابلية إليه، تمسكه وينتفع به الإنسان والحيوان والنبات ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾: يمكن ألا تمطر أصلاً،

ويمكن أن نجعل الماء يغور إلى مدى لا تصلون إليه، أو يفسد ويضر كما تفعل السيول المدمرة.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾: شجرة منصوبة عطفًا على ﴿جَنَّٰتٍ﴾ يعني بها شجرة الزيتون ﴿مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾: والطور هو الجبل الذي كُلِّمَ عليه موسى بن عمران ﴿تَنۢبُتُ﴾: تثمر ﴿بِٱلدُّهْنِ﴾: الدهن هو الزيت ﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾: ما تأتدمون به.

التفسير:

أَنعُمُ الله على عباده لا تعد ولا تحصى، فهو الذي خلق الإنسان من سلالة من طين.. ثم سوَّاه خلقًا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين، في هذه الآيات نجد ألوانًا من النعم:

17- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾:

والطرائق هي الطبقات بعضها فوق بعض، أو وراء بعض، وقد يكون المقصود هنا سبع مدارات فلكية، أو سبع مجموعات نجمية كالمجموعة الشمسية، أو سبع كتل سديمية، والسدم - كما يقول الفلكيون - هي التي تكون منها المجموعة النجمية، وعلى أية حال فهي سبع خلائق فلكية فوق البشر - أي أن مستواها أعلى من مستوى الأرض في هذا الفضاء - خلقها الله بتدبير وحكمة، وحفظها بناموس ملحوظ.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾: أي ما كنا مهملين أمر الخلق، بل نحفظه وندبر أمره، حتى يبلغ منتهى ما قدر له من الكمال حسبما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة.

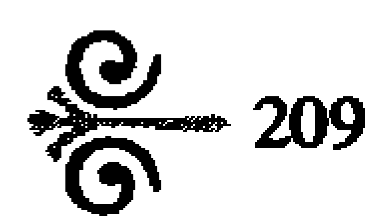
18- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾:

أنزلنا من السماء ماء بحكمة وتدبير، فلا ننزله كثيرًا فيغرق ويفسد، ولا ضئيلاً فيكون الجدب والمحل، ولا في غير أوانه فيذهب بددًا بلا فائدة، بل ننزله بتقدير وحكمة فينتفع الناس ببعضه، ويذهب البعض الآخر إلى الآبار والعيون والأنهار فينتفع الناس به عند الحاجة ، قال تعالى: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي جعلناه قارًّا فيها، يتفجر من الأماكن التي أراد سبحانه إحياءها، كقوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الزمر: 21).

وتفيد النظريات الحديثة: أن المياه الجوفية ناشئة من المياه السطحية الآتية من المطر، وأنها تتسرب إلى باطن الأرض فتحفظ هناك.

وكان المظنون إلى وقت قريب أنه لا علاقة بين المياه الجوفية والمياه السطحية، ولكن ها هو ذا القرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾: أي إزالته بالتغوير في طبقات الأرض البعيدة أو بغير ذلك من الأسباب. قال الزمخشري: فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء، ويقيدوها بالشكر الدائم، ويخافوا نفارها إذا لم تشكر.

19- ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾:



فأنشأنا لكم بالماء بساتين فيها نخيل وأعناب وغير ذلك من سائر النباتات والثمار، فالنخيل والأعناب نموذج لنظائر كثيرة تحيا بالماء ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾: أي لكم في الجنات فواكه كثيرة تتمتعون بها زيادة على ثمرات النخيل والأعناب.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: أي ومن زرع الجنات وثمارها ترزقون وتحصلون معايشكم. قال تعالى:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ (عبس: 24 – 32).

20- ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾: أي وأنشأنا لكم شجرة الزيتون التي تنبت في هذا الجبل بتلك البقعة المباركة، وتثمر زيتونًا تصنع منه الزيوت التي يدهن بها، وتتخذ إدامًا للآكلين..

قال القاسمي: ﴿وَشَجَرَةً﴾ بالنصب عطف على ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وقرئت مرفوعة على الابتداء أي ومما أنشئ لكم شجرة. اهـ.. وهي من أكثر الشجر فائدة بزيتها وطعامها وخشبها، وهي تنبت من الماء الذي أسكن في الأرض وعليه تعيش.

﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾: (الصبغ) كالصباغ ما يصطبغ به من الإدام، ويختص بكل إدام مائع، يقال: (صبغ اللقمة): دهنها وغمسها، وكل ما غمس فقد صبغ، كذا في المصباح والتاج.

21- ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾..

إن في خلق الأنعام عبرًا من وجوه شتى:

1- ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾: فتنتفعون بألبانها على ضروب شتى، فتتخذون منها القشدة والسمن والجبن ونحوها.

2- ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ ﴾: فتأخذون أصوافها وأشعارها وأوبارها وتتخذونها ملابس وفرشًا للدفء وبيوتًا في الصحارى ونحوها مما جرى هذا المجرى ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾: أي تأكلون منها بعد ذبحها، فكما انتفعتم بها وهي حية تنتفعون بها بعد الذبح بالأكل.

22- ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾: فالأنعام تحمل الإنسان من بلد إلى بلد، ويسمى الجمل سفينة الصحراء، حيث يركبه الإنسان ويحمل عليه أمتعته كما سخر الله للإنسان الفلك وهي السفن، تحمله وتحمل أمتعته من مكان إلى آخر، فتروج التجارة وينتفع الناس بما عند الآخرين.

قال تعالى: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (النحل: 5 - 8).

النص التاسع عشر: آيات مُبينات

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (44) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (46)﴾ (النور: 41 – 46).

المفـــردات والجمـــل:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ﴾: إلى آخر الآية، الصلاة لبني آدم، والتسبيح صلاة غيرهم من الخلق، ويجوز أن يكون التسبيح بلسان الحال، بمعنى أن جميع من في الكون ينطق بقدرة الله الخالق المبدع لهذا الكون.

﴿ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖ ﴾: في الهواء تُسبِّح ربها، ﴿ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ ﴾: كل من ذكر من الخلق قد علم ﴿ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ ﴾: الذي كلفه وألزمه، أو كل قد علم الدور الذي يقوم به ناموس هذا الكون، مما يدل على عظمة الإله فهو تسبيح بلسان الحال أو بلسان المقال، وقيل: كل مصل ومسبح منهم قد علم الله صلاته وتسبيحه.

﴿ يُزۡجِي سَحَابٗا ﴾: يسوق سحابًا ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ﴾: يجمع كل متفرقه.

﴿ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا ﴾: متراكمًا بعضه على بعض ﴿ فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ ﴾: ﴿ ٱلۡوَدۡقَ ﴾: المطر، ﴿ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ ﴾: من خلال السحاب.

﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ ﴾: في السماء مخلوقة هناك، ﴿ مِنۢ بَرَدٖ ﴾: هن من برد، كما يقال: جبال من طين، ﴿ فَيُصِيبُ ﴾: يعذب به، ويجوز أن يكون المعنى: يغيث به ويرحم به، ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم أو عقابًا لهم ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾: يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار.

التفسير:

تشتمل هذه الآيات على ألوان من قدرة الله سبحانه وتعالى:

41- ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾: إن جميع الكون خاضع لقدرة الله، فالسماء عالية، والأرض مبسوطة، والجبال راسية، والليل مظلم، والنهار مضيء، والشمس سراج، والقمر نور،

والنجم زاهر، والهواء والفضاء والسحاب والنبات والإنسان والحيوان، كل ما خلقه الله له رسالة يؤديها في هذا الكون، ولسان حاله ينطق بقدرة الصانع سبحانه، كل مخلوق له صلاة يؤديها، وتسبيح يقوم به، وكان النبي - ﷺ - يسمع تسبيح الحصى بين يديه، وكان داود عليه السلام يسمع تسبيح الجبال وترديدها لدعائه وصلاته، أو كل قد علم اللهُ صلاته وتسبيحه على اختلاف ألسنتهم وأدوارهم، قد علم وسمع صلاتهم وتسبيحهم، وهو العليم بكل ما كان وما يكون في هذا الكون.

42- ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾: بيد الله ملك السماء وما فيها، وبيده ملك الأرض وما عليها، وإليه المصير يوم القيامة حيث يرجع إليه الخلائق أجمعون ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وينادي الرب جل جلاله: لمن الملك اليوم؟ فيكون الجواب: لله الواحد القهار.

43- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾: إن يد الله تزجي السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان، ثم يؤلف بينه ويجمع بين متفرقه، فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة فتشاهد المطر ينزل من خلال السحاب، والسحب في تراكمها بعضها فوق بعض أشبه بالجبال الضخمة الكثيفة فيها قطع البرد الثلجية الصغيرة.. ومشهد السحب كالجبال، يبدو كما يبدو لراكب الطائرة، وهي

تعلو فوق السحب أو تسير بينها، فإذا المشهد مشهد الجبال حقًّا، بضخامتها ومساقطها، وارتفاعها وانخفاضها، وإنه لتعبير مصور للحقيقة التي لم يرها الإنسان إلا بعدما ركب الطائرات.

وهذه الجبال مسخرة بأمر الله، وفق ناموسه الذي يحكم الكون، ووفق هذا الناموس يصيب الله بالمطر من يشاء، ويصرفه عمن يشاء .. وتكملة المشهد الضخم ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾: يضيء البرق بشدة وسرعة، حتى ليكاد البرق أن يخطف الأبصار، وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة، إذ فيه توليد الضد من الضد، ففيه توليد النار من الماء.

44- ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾:

يتتابع الليل وراء النهار، والنهار وراء الليل، في حركة مستمرة، ويزيد الليل في الشتاء وينقص في الصيف، ويختلف الليل والنهار وتتغير أحوالهما بالحرارة والبرودة، والزيادة والنقصان، وفي مظهر الشروق والغروب والضحى والظهيرة عبرة لأصحاب البصيرة، إذ يتأملون في مظاهر هذا الكون، وتنفس الصباح، وتشابك النجوم، وتألق البدر، فيتجدد إحساسهم مع التأمل والتفكر والتدبر في بديع صنع الله.

45- ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾:

خلق الله كل حيوان يدب على الأرض من ماء مخصوص هو النطفة، وفيه تنزيل للغالب منزلة الكل لأن من الحيوانات ما لا يتولد من نطفة.

أو كل حيـوان خلق من ماء هو جزء مادته، وخص الماء بالذكر من بين ما يتركب منه من المواد، لظهور احتياج الحيوان إليه ولا سيما بعد كمال تركيبه.

ثم فصل أقسام الحيوان مما يدب على وجه الأرض فقال: ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ ﴾ كالحيـات والسـمك وغيرهمـا مـن الزواحف ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ﴾ كالإنسـان والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ ﴾ كالأنعام والوحوش.

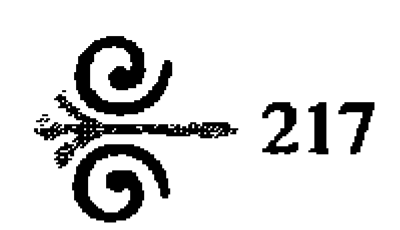
﴿ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ ﴾: غيـر مقيـد بشـكل ولا هيئـة، فاختـلاف هذه الحيوانـات فـي الأعضـاء والقـوى ومقاديـر الأبـدان والأعمـال والأخلاق - لابد أن يكون بتدبير إله قادر عليم حكيم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾: فهـو الخالـق المبـدع، الـذي قـدر فهدى والذي خلق الزوجين الذكر والأنثى، من نطفة إذا تمنى.

46- ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾:

لقـد أبـدع الله آيات الخلق، وأحكم صنع هـذا الكون، وأنزل على عبـاده آيـات القـرآن واضحـة، تذكرهـم ببديـع صنع اللـه، وتفتح قلوبهم وعقولهم على أسرار هذا الكون، وجميل مشاهده.

فمن تأمل في هذا الخلق أيقن أن وراء الصنعة البديعة صانعًا قادرًا هو رب العالمين.

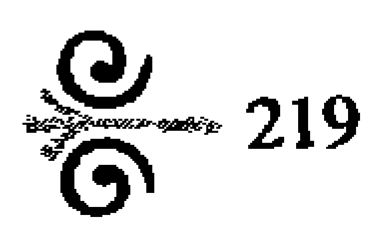


النص العشرون: الظّل

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ (الفرقان: 45 – 54).

المفردات والجمل:

45- ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾: من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.



﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾: دائمًا لا يزول، ممدودًا، لا تذهبه الشمس ولا تنقصه ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾: دللناكم عليه بالشمس عند طلوعها، بأنه خلق من خلق ربكم، يوجده إذا شاء، ويفنيه إذا أراد.

46- ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا﴾: يعني الظل، بالشمس التي تنسخه.
﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾: خفيفًا سهلاً، من اليسر.

47- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾: سترًا تستترون به كما تستترون بالثياب التي تلبسونها ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾: راحة للأبدان والجوارح ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾: يقظة وحياة من قولهم: (نشر الميت) أي بعث، إذ النوم أخو الموت.

48- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾: الملقحة ﴿بُشْرًۢا﴾: وهي في قراءة (نشرًا) بالنون يعني حياة ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾: أمام الحيا والغيث (المطر).

49- ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ﴾: بالمطر ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾: أرضًا قحطة لا تنبت، ﴿أَنْعَٰمًا﴾: من البهائم ﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾: جمع واحدُهُ: إنسي.

50- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾: يعني قسمنا هذا الماء الذي أنزلناه من السماء بين عبادي ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ نعمتي عليهم ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾: إلا جحودًا لنعمتي عليهم.

52- ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: فيما يدعونك إليه ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾: يعني بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾: حتى ينقادوا له طوعًا وكرهًا.

53- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ﴾: خلط ﴿ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾: مرج أحدهما في الآخر وأفاضه فيه، ﴿ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾: شديد العذوبة، يقال: هذا ماء فرات، أي شديد العذوبة، يعني: مياه الأنهار والأمطار.

﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾: مرٌّ: يعني: ماء البحر.

﴿ بَرْزَخًا ﴾: حاجزًا، يمنع كل واحد منهما من إفساد الآخر.

﴿ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾: لا تختلط ملوحة هذا بعذوبة هذا.

54- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾: من النطف ﴿ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا ﴾: فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم تزوج فيصير صهرًا.

﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾: على خلق ما يشاء.

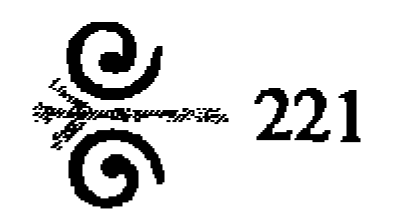
التفسير:

ساق الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات عددًا من الأدلة الكونية لإثبات الألوهية والقدرة له سبحانه وتعالى:

الظل:

الظل نعمة من نعم الله، ففيه حماية من هجير الشمس، وهو لون من ألوان الرحمة بالعباد والمخلوقات.

والظل هو لون النهار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، أو هو خيال الأشياء الهارب من أشعة الشمس، من وقت شروقها إلى أن تنزلق للزوال.



والظل تابع مقهور يتبع الشمس في مدى ما تبلغ إليه من علو وهبوط فإذا ارتفعت قصر وإذا انحطت طال، فالشمس دليل على ثبوت الظل، وإن كانا متعاكسين، كل منهما يسير في اتجاه مغاير للآخر، فهما دليلان بالتضاد لا بالاتفاق.

وقد أشار القرآن إلى الرابط بين الشمس والظل، فإذا أشرقت الشمس غرب الظل وإذا غربت شرق، فكأنها الحجة تبطله، والبرهان الذي ينسخه.

وقد لاحظ أبو علي ابن الهيثم انكسار الضوء فحاول أن يقيس به طبقة الهواء، ثم لاءم بين الظلال ومواقيت الصلاة المفروضة.

فلاحظ أن الفجر والعشاء جعلا في الفريضة على مسافتين متساويتين، من أفقى الشروق والغروب، بينما كانت الصلوات الأخرى في قياسات مختلفة الأشكال والظلال.

ولاحظ ابن الهيثم أن الفجر يبدأ حينما تصبح الشمس على تسع عشرة درجة تحت أفق الشروق، وأن الشفق يذوب ويتلاشى، حينما تصير الشمس على الدرجة نفسها تحت أفق الغروب، وكذلك ابتعدت أوائل الفجر عن الشروق بقدر ما ابتعدت أوائل العشاء عن الغروب.

ثم سايرت الصلوات كلها أشكال الظل: فالفجر في أوله، والظهر في أضأله والعصر في مضاعفه، والمغرب في آخره، والعشاء حين ينقضي خبره ويغيب أثره، وكأن الصلوات كلها نهارية، لأنها تتبع مساير الظلال.

الظل في الآخرة:

امتن الله على عباده بالظل الظليل في الآخرة، قال تعالى:

﴿ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ (النساء: 57).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ (المرسلات: 41).

وقال سبحانه: ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ ﴾ (الرعد: 35).

وقال عز شأنه: ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾ (يس: 56).

وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ (الواقعة: 27 - 30).

وقال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ (الإنسان: 14).

وروى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل ذكر الله تعالى خاليًا ففاضت عيناه، ورجلان تحابًا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين**».

وروى أبو موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف**».

ظل الدنيا:

امتن الله على عباده بالظل الذي يلجأ إليه الإنسان فيحميه من هجير الشمس، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم

مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ (النحل: 81).

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾ (النحل: 48).

إن حركة الشمس، وحركة الأرض حول الشمس، هي التي تتسبب في ظهور الظل وانبساطه وانقباضه، والقرآن الكريم يلفت النظر إلى هذه الظاهرة ليتأمل الإنسان في آثار القدرة، ولا يغفل عما بين يديه من دلائل باهرة ونعم كثيرة.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾:

انظر إلى نعمة الله كيف بسط الظل الوارف في هذا الكون، في فترة من فترات النهار، ولو شاء الله لجعله ثابتًا على حال واحدة لا يتغير، ولكنه جعله متغيرًا في ساعات النهار المختلفة، وفي الفصول المتعاقبة، ومن ثم اتُّخذ مقياسًا للزمن منذ القدم، فاتخذ المصريون (المسلات) وقاسوا بها أوقات النهار على أوضاع مختلفة، واتخذ العرب المزاول لمعرفة أوقات الصلاة، فقالوا يجب الظهر عند الزوال: أي إذا تحول الظل إلى جانب المشرق، والعصر حين بلوغ ظلٍّ كل شيء مثله أو مثليه، والمغرب إذا غربت الشمس، والعشاء عند غياب الشفق، والفجر عند ظهور الضوء معترضًا في السماء.

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾:

ثــم أنزلنــاه بضوء الشــمس يســيرًا يســيرًا، ومحوناه على مهــل جزءًا فجزءًا بحسب سير الشمس.

***

وكان القبـض خفيفًـا يسـيرًا رحمة بالأبصـار أن تعشـى؛ لكي ينفلق النور والظلمة في لين وخفاء.

ونلحـظ أن هناك وصلة بين النهـار والليل، وبين الليل والنهار، وهي قنطـرة شـبه الظـل، التي هي بيـن الظـل والنـور، ولكنها أقـرب للضوء وأدنى إليه.

(ولا ريـب في أن تداول النور والظلمة للأمكنة على قنطرة من الظل وشـبه الظـل، إنما هو قاعدة مـن الطبيعة للترتيل والترسـيل، جزءًا جزءًا لا جملـة، فـي تمهيـد خفـي للنقلة والتحـول، حتـى لا تفـزع القلوب، ولا تضطرب العقول).

47- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾:

امتـن اللـه على عبـاده بظـلام الليل الذي يسـتر الأشـياء والأحياء، فتبـدو هـذه الدنيـا وكأنهـا تلبس الليل وتتشـح بظلامـه، وفي الليل تنقطـع الحركة، وينـام الناس وكثير من الحيـوان والطيور والهوام، والنـوم انقطـاع عن الحـس والوعي والشـعور، وفي النهـار يتنفس الصباح وتدب الحياة والحركة فهي نشور من ذلك الموت الصغير، الذي يتداول الحياة على هذه الأرض مع البعث والنشور.

48- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾:



الحياة على وجه الأرض كلها تعيش على ماء المطر، إما مباشرة وإما بما ينشئه من جداول وأنهار، وعيون وآبار، والله سبحانه يسوق الرياح بشرًا بين يدي رحمته، أي تسبق المطر، وتبشر بقدوم رحمة الله بالأمطار، وأنزل الله من السماء ماء طاهرًا في ذاته مطهرًا لمن يستعمله.

49- ﴿ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾:

الماء حياة الأرض بالزرع والثمر، وعليه تتوقف حياة الحيوان والإنسان، وقد قدم الله حياة الأرض على سقي الأنعام والإنسان، فالأرض أمُّنا الحنون إذا اخضرت وأثمرت أنبتت الأشجار والثمار والنخيل والأعناب، فيستفيد من ذلك الإنسان والحيوان. قال الكرخي: خص الأنعام بالذكر لأنها ذخيرتنا، ومدار معاش أكثر أهل المدر، ولذلك قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها إحياء الأرض، فإنها سبب لحياتها وتعيُّشها، فتقدم ما هو سبب حياتهم ومعاشهم.

50- ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾:

ولقد كررنا هذا القول الذي هو ذكر إنشاء السحاب وإنزال المطر ﴿بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي ليتفكروا ويعتبروا، فعرضنا عليهم من صور شتى، وأساليب متعددة، ولفتات متنوعة، وخاطبنا به مشاعرهم ومداركهم، وأرواحهم وأذهانهم، ودخلنا عليهم به من كل باب من أبواب نفوسهم وبكل وسيلة تستجيش ضمائرهم. ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾: أي كفران النعمة وجحودها.

51- ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾: أي نبيًّا ينـذر أهلها فيخف عليك أعباء النبوة، ولكن لم نشـأ ذلك، فلم نفعله، بل قصرنا الأمر عليك لتتوحد الرسالة الأخيرة ويعمَّ نورها المشارق والمغارب.

حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: 1) وفي هذا إجلال للرسول وتعظيم له، وتفضيل له على سائر الرسل.

52- ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾:

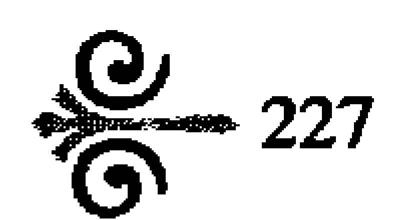
فلا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه من الملاينة وعدم التعريض بآلهتهم، بل اجهر بدعوتك، واصدع بما تؤمر، وأعرض عن المشركين.

(وأراد بهذا النهي تهييجه، وتهييج المؤمنين وتحريكهم، أي إثارة غيرته وغيرتهم وإلا فإطاعته لهم غير متصورة)[1]. وقال أبو السعود: كأنه نهي له عليه الصلاة والسلام، عن المداراة لهم والتلطف معهم، أي لأن في ذلك إضعافًا للحق وتغشية عليه، وطول أمد في سريانه.

ولذا قال: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾: أي بالقرآن وما نزل إليك من الحق ﴿جِهَادًا كَبِيرًا ﴾: أي لا يخالطه فتور، بأن تلزمهم بالحجج والآيات، وتدعوهم إلى النظر في سائر الأوقات، وهذه الآية من أصرح الأدلة على وجوب مجادلة المبطلين،

---

(1) تفسير القاسمي 12 – 4583.



وقرب منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ (التحريم: 9)

ولقد كان القرآن يهز قلوب المشركين، ويدحض حججهم، ويناجي قلوبهم وعقولهم ووجدانهم، ويفعل في نفوسهم ما لا تفعله الجيوش المقاتلة، حتى تواصوا بعدم السماع إليه، خشية تأثيره على النفوس.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ (فصلت: 26)

واعترف الكفار بقوة القرآن وبلاغته وقدرته وتأثيره في القلوب، حتى قال أحدهم: (لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا، ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإن فرعه لجناة، وما يقول هذا بشر).

(وإن في القرآن من الحق الفطري البسيط، لما يصل القلب مباشرة بالنبع الأصيل، فيصعب أن يقف لهذا النبع الفوار، وأن يصد عنه تدفق التيار، وإن فيه من مشاهد القيامة، ومن القصص، ومن مشاهد الكون الناطقة، ومن مصارع الغابرين، ومن قوة التشخيص والتمثيل لما يهز القلب هزًّا لا يملك معه قرارًا)[1].

53- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴾.

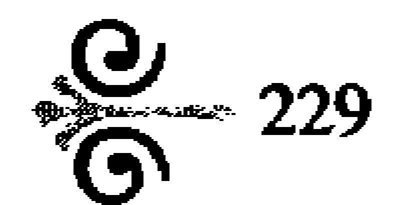
(1) في ظلال القرآن 19 - 2571.

وهـو الذي تـرك البحرين: الفـرات العذب، والملـح المر يجريان ويلتقيان فلا يختلطان ولا يمتزجان، بل يكون بينهما برزخ وحاجز مـن طبيعتهمـا التي فطرهـا الله، فمجـاري الأنهار غالبًـا أعلى من سـطح البحر، ولا يقع العكس إلا شـذوذًا وبهذا التقدير الدقيق، لا يطغـى البحـر - وهو أضخـم وأغزر - على النهر الـذي منه الحياة للنـاس والأنعـام والنبات، ولا يكـون هذا التقديـر مصادفة عابرة، وهـو يطّـرد هذا الاطـراد، إنما يتـم بـإرادة الخالق الذي أنشـأ هذا الكـون لغاية تحققها نواميسـه فـي دقة وإحـكام.. (وقد روعي في نواميـس هـذا الكـون ألا تطغى ميـاه المحيطات الملحـة، لا على الأنهـار ولا علـى اليابسـة، حتـى في حـالات المد والجـزر، التي تحـدث من جاذبية القمر للماء الذي على سـطح الأرض، ويرتفع بهـا المـاء ارتفاعًـا عظيمًـا، قـد يصـل إلـى سـتين قدمًا فـي بعض الأماكـن، بل إن قشـرة الأرض تنحني مرتين نحو الخارج، مسـافة عـدة بوصات بسـبب جاذبيـة القمر، ويبـدو لنا كل شـيء منتظمًا، لدرجـة أننا لا ندرك القـوة الهائلة التي ترفع مسـاحة المحيط كلها عدة أقدام، وتنحني قشرة الأرض التي تبدو لنا صلبة للغاية)[1].

إن اليـد التـي تدبـر هذا الكون، مرجـت البحريـن، وجعلت بينهما برزخًـا وحاجـزًا من طبيعتهمـا، ومن طبيعة هذا الكون المتناسـق، الذي تجري مقاديره بيد الصانع الحكيم، قال تعالى:

---

(1) في ظلال القرآن 19 - 2572، نقلاً عن كتاب: الإنسان لا يقوم وحده: (العلم يدعو إلى الإيمان).



﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾ (الرحمن: 19 - 21).

54- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾

وما أعظم قدرة الله! فقد خلق من جزء صغير من النطفة إنسانًا كاملًا عجيب الصنع بديع الخلق كبير العقل عظيم التفكير، ومن هذه النطفة المذرة خلق الله البشر، وقسمهم قسمين: ذوي نسب أي: ذكورًا ينسب إليهم، فيقال: فلان بن فلان، وفلانة بنت فلان، وذوات صهر أي: إناثًا يُصاهَر بهن. قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ (القيامة: 36 - 40).

(ولو راح الإنسان يدقق في هذا الماء الذي يخلق منه الإنسان لأدركه الدوار، وهو يبحث عن خصائص الإنسان الكاملة، الكامنة في الأجسام الدقيقة البالغة الدقة، التي تحمل عناصر الوراثة للجنس كله، للأبوين وأسرتيهما القريبتين، لتنقلهما إلى الجنين الذكر والجنين الأنثى، كل منهما بحسب ما ترسم له يد القدرة من خلق واتجاه)(1).

---

(1) في ظلال القرآن 19 - 2573.

النص الواحد والعشرون: عالم الغيب

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (النمل: 59 – 65)

المفردات والجمل:

59– ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: على نعمه علينا بالهدى ﴿وَسَلَامٌ﴾: أَمَنَة منه ﴿اصْطَفَىٰ﴾: اختارهم وهم الأنبياء والرسل. أو هم أصحاب محمد ﷺ ووزراؤه.

60- ﴿ حَدَآئِقَ ﴾: جمع حديقة، وهي البستان عليه حائط محوط، فإن لم يكن عليه حائط لم يكن حديقة.

﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾: ذات منظر حسن. ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾: عن الحق، ويجورون عنه عمدًا مع علمهم بأنهم على خطأ.

61- ﴿ قَرَارًا ﴾: ثابتة ساكنة، يستقرون عليها لا تميد بهم.

﴿ خِلَٰلَهَآ ﴾: بين أجزائها، ﴿ رَوَٰسِيَ ﴾: ثوابت الجبال.

﴿ حَاجِزًاۗ ﴾: مانعًا من الاختلاط حتى لا يفسد أحدهما الآخر.

62- ﴿ ٱلْمُضْطَرَّ ﴾: الداعي عند الشدائد والنوازل.

﴿ ٱلسُّوٓءَ ﴾: الضر.

﴿ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ ﴾: أمة بعد أمة، وجيلًا بعد جيل، تخلفون موتاكم فيها، ويستخلف بعد أمواتكم في الأرض خلفاء أحياء منكم يخلفونكم.

63- ﴿ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾: إذا ضللتم، وأظلمت عليكم السبل هداكم بالدلائل السماوية والأرضية.

﴿ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓۗ ﴾: مبشرة بين يدى المطر.

64- ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ﴾: ينشئه من غير أصل ويبتدعه ثم يفنيه إذا شاء ثم يعيده.

﴿ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾: حجتكم على أن شيئًا غير الله يفعل ذلك.

65- ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾: مـن خلقه ﴿الْغَيْبَ﴾: الذي قد استأثر اللـه بعلمه عن السـاعة متـى هي قائمة، وعمـا يقع في غد، وعن كل ما غاب عن الإنسان. ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع.

﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾: ومـا يشـعر الخلائـق السـاكنون فـي السموات والأرض متى يبعثون من قبورهم.

التفسيـــــر:

سورة النمل سورة مكية وقد استعرضت في بدايتها حلقات من قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط استغرقت الآيات من 7- 58.

والآيـات من 59- 65 تجول جولـة هادفة في تثبيت العقيدة، جولة في مشاهد الكون، وأغوار النفس، وأطواء الغيب.

في هذه الجولة يسـتعرض القرآن أمام الناس مشـاهدات في صفحة الكـون، وفـي أطواء النفـس، لا يملكـون تعليلهـا بغير التسـليم بوجود الخالق الواحد المدبر القدير.

ويتوالـى عرض هذه المشـاهدات فـي إيقاعات مؤثـرة تأخذ عليهم أقطار النفس وأقطار المشـاعر، وهو يسـألهم أسـئلة متلاحقة: من خلق السـموات والأرض؟ مـن أنـزل من السـماء مـاء فأنبتنا بـه حدائق ذات بهجـة؟ مـن جعـل الأرض قـرارًا، وجعـل خلالهـا أنهـارًا، وجعـل لها رواسـي، وجعل بيـن البحريـن حاجزًا؟ مـن يجيب المضطـر إذا دعاه، ويكشـف السـوء؟ من يجعلكم خلفاء الأرض؟ من يهديكم في ظلمات البر والبحر؟ من يرسـل الرياح بُشرًا بين يدي رحمته؟ من يبدأ الخلق ثم

يعيده؟ من يرزقكم من السماء والأرض؟ وفي كل مرة يقرعهم: أإله مع الله؟ وهم لا يملكون أن يقولوا: إن إلهًا مع الله يفعل من هذا كله شيئًا، وهم مع هذا يعبدون أربابًا من دون الله!

59- ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

هذه الآية خطاب لرسول الله ﷺ ولكل من يتأتى منه الخطاب أن يبدأ كل أمر ذي بال بحمد الله والسلام على من اصطفاه الله «أو هي خطاب للوط عليه السلام بأن يحمد الله على هلاك كفار قومه، ويسلم على من اصطفاه الله ونجّاه»[1].

قال الزمخشري: أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته، وأن يستفتح بتحميده، والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده، وفيه تعليم حسن، وتوفيق على أدب جميل، وبعث على التيمن بالذكرين، والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين، .... ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرًا عن كابر هذا الأدب. فحمدوا الله عز وجل، وصلوا على رسول الله ﷺ، أمام كل علم مفاد وقبل كل عظة وتذكرة، وفي مفتتح كل خطبة.

ثم قال الزمخشري:

معلوم أن لا خير فيما أشركوه أصلًا حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه، وإنما هو إلزام لهم، وتبكيت وتهكم

(1) تفسير النسفي 3 – 217.

بحالهم، وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله، ولا يؤثر عاقل شيئًا على شيء إلا لداع يدعوه إلى إيثاره، من زيادة خير ومنفعة.

فقيل لهم، مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه، وإنهم لم يؤثروه لزيادة الخير، ولكن هوى وعبثًا، ليتنبهوا إلى الخطأ المفرط ...... ا.هـ.

ثم عدد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله، كما عددها في موضع آخر، ثم قال: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ (الروم: 40).

قال المراغي:

«وقد نبهت الآية المشركين إلى ضلالهم، إذْ آثروا عبادة الأصنام على عبادة الواحد القهار».

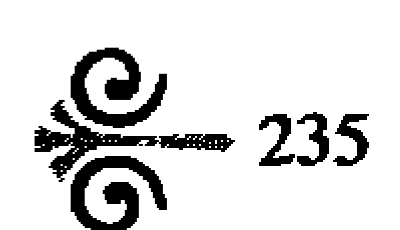
﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي آللّه الذي ذكرت لكم شئونه العظيمة خير أم الذين تشركون به من الأصنام؟»[1].

***

60- ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ...﴾:

في هذه الآية إضراب وانتقال من التبكيت تعريضًا إلى التصريح به خطابًا على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد.

(1) تفسير المراغي، الجزء 20 ص 7.



قال ابن كثير: في هذه الآيات كلها محذوف تقديره أم من يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟

﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾: أي يعدلون عن طريق الحق، أو يجعلون لله عدلاً ونظيرًا.

61- ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾:

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾: أي قارة لا تنكفئ بمن عليها، أو مستقرًا لمن عليها يتمتعون بمنافعها.

﴿ وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾: أي جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة، شقها في خلالها وصرفها فيها، ما بين أنهار كبار وصغار، وبين ذلك بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم.

﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ ﴾: أي جبالًا ترسي الأرض.

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾: أي برزخًا مانعًا من الاختلاط والممازجة حتى لا يفسد هذا بذلك، والحكمة تقتضي بقاء كل منهما على حاله، فالعذبة لسقي الناس والحيوان والنبات والثمار، والملحة تكون مصادر للأمطار.

﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾: في إبداع هذه الكائنات.

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾: أي بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون قدر عظمة الله، ولا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك.

62- ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾:

ينبـه تعالى إلى أنه هو المدعوُّ عند الشـدائد، المرجـوُّ عند النوازل كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ (الإسراء: 67).

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ (النحل: 53).

***

هل هناك من يجيب دعوة المضطر الذي تحركت فيه دوافع الفطرة، أو أحوجـه مـرض أو فقر أو نازلة من نـوازل الدهر إلى التضرع إلى الله وقت اضطراره أن يرفع عنه ما يؤلمه.

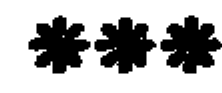
﴿ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾: أي كل ما يسوءه مما يضطر فيه وغيره.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾: أى خلفـاء فيهـا، يخلف بعضكم بعضًـا بالتـوارث أمـة بعـد أمـة وجيـلاً بعـد جيـل، وقومًـا بعـد قـوم، ولـو شـاء لأوجدهـم كلهـم في وقـت واحـد ولـم يجعـل بعضهم من ذرية بعض.

***

﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ ﴾: الذي هذه شئونه، وتلك نِعَمُه؟

﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾: نِعَمَ الله عليكم.



وقد ورد في كتب السنة طائفة من أدعية النبيّ ﷺ مثل قوله ﷺ في دعاء المضطر: «**اللهمّ رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت**».

ومن أدب الدعاء: تقديم التوبة الصادقة، وإخلاص القلب لله، ورفع اليدين إلى السماء، والثناء على الله تعالى، والصلاة على النبيّ ﷺ، وتخير الوقت المناسب والحالة المناسبة، فالوقت المناسب مثل: وقت السحر، وعند سماع الأذان والإقامة، والحالة المناسبة: أي الوقت الذي يشعر فيه الإنسان بصفاء القلب، وحضور الذِّهن وصدق الرغبة في مناجاة الله مثل: الأوقات التي تعقب الصلوات، وحالات الاضطرار واللجوء إلى الله والتشبُّث ببابه، فهو سبحانه يجيب المضطر إذا دعاه.

قال ابن القيم: «إذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب، وصادف انكسارًا بين يدي الرب وذلًا له وتضرعًا، ثم توسل إليه تعالى بأسمائه وصفاته فإن هذا الدعاء لايكاد يُردُّ أبدًا»(1).

وقد وقع سيدنا يونس في ظلام البحر، وظلام بطن الحوت، وظلام الغمِّ، فنادى ربَّه في هذه الظلمات قائلًا: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ (الأنبياء: 87، 88).

63- ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ .....﴾:

(1) تفسير القاسمي 13 – 4679 نقلًا عن (الجواب الكافي) لابن القيم.

مـن يرشـدكم في ظلمات البـر والبحر إذا أظلمت عليكم السـبل؟ فقد جعل الله علامات يهتدي بها من أراد السـير في الليل الحالك حتـى لا يتيـه فـي طريقـه، ولا يحيـد عـن الجـادَّة، قـال تعالـى : ﴿ وَعَلَـٰمَـٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ (النحل: 16)، ومـن يرسـل الرياح أمام الغيث الذي يحيي موات الأرض؟

﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ ﴾ فعل هذا؟

﴿ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ تنـزَّه ربُّنـا المنفـرد بالألوهيـة عن الشركاء والأنداد.

64- ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ.....﴾:

من الذي ينشـئ الخلق بادئ بدء، ويبتدعه على غير مثال سـابق ثم يفنيه إذا شاء ثم يعيده إذا أراد؟

﴿ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ﴾: بشـتى أنـواع الـرزق، بالمطـر والنبـات والحيـوان والهـواء والمـاء والكسـاء والصحـة والتقوى والإيمان والزوجة والأولاد.

﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ ﴾: يفعل هذا حتى يجعل شريكًا له؟

﴿ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَـٰنَكُمۡ ﴾: على صحة ما تدَّعونه من عبادة آلهة أخرى.

﴿ إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِينَ ﴾: إن كان ما تقولونه حقًّا وصدقًا.

***

تلـك هي طريقة القرآن في عرض الحقائق، وحشـد مظاهر الكون كلـه أمـام عين الإنسـان ليوقـظ فِطْرتـه، ويفتـح قلبه بهـذا المنطق

الواضح البسيط، وبهذا الأسلوب الأخَّاذ الذي يأخذ على النفس كل سبيل، فلا تجد بدًّا من الإذعان والتسليم.

65- ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾:

بعد أن أثبت تفرُّده بالألوهية واختصاصه بالقدرة التامة، والرحمة العامة، أعقب ذلك بإثبات أنه سبحانه المتفرد أيضًا بعلم ما يدور في السموات والأرض، وهو المتفرِّد بعلم الغيب، ومعرفة قيام الساعة، وشئون الآخرة وأحوالها، وأمور الدنيا التي لا تقع تحت حسِّنا.

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام: 59).

***

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾: أي وما يدري من في السموات والأرض من خلقه متى هم مبعوثون من قبورهم لقيام الساعة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ (لقمان: 34).

النص الثاني والعشرون: تتابع الليل والنهار

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (القصص: 71 – 73).

المفردات:

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: أي أخبروني.

﴿سَرْمَدًا﴾: دائمًا لا ينقطع ... قال طرفة:

لعمرك ما أمري عليّ بغُمَّة ... نهاري ولا ليلي عليّ بسرمدِ

﴿تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾: تستقرون فيه من متاعب الأعمال.

***

التفسيـــر:

خلـق الله الكـون وأبـدع نظامـه، فالليل والنهـار والشـمس والقمر والريـاح والهـواء والبحار وغيرهـا نِعَـمٌ متكاملة، مصدرهـا رحمة الله وفضله سبحانه بعباده.

ولو اختلَّ شروق الشمس أو القمر لتأثر نظام الكون واضطربت الحياة.

فنعمـة الخلـق متكاملـة، قـال تعالـى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ (الملك: 3).

وقال سبحانه: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: 2).

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد: 8).

71- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾.

هـذه الآية دعوة للتأمُّل في النعـم المتعددة، التي ينعم الله بها على الإنسـان حيـن يجعـل له الليل سـكنًا وهـدوءًا وراحـة، ويجعل له النهار للحركة والعمل والسعي.

وهنـاك نعمـة أخـرى، وهـي نعمـة التغييـر والتبديل والمشـاهدة، مشـاهدة الليل الهادئ والسـكون يلفُّ الكون، والنجوم توصوص في السـماء، والقمر بدر أو هلال أو بيْنَ بَيْنَ، ثم مجيء النور شـيئًا فشـيئًا يطـارد الظـلام، ويغمـر الكـون بالحيـاة، إنهـا نعمـة القدرة الإلهية، وآية الله في رعاية هذا الكون.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾.

أخبروني إن سلب الله عنكم نعمة البصر، فصار الكون ظلامًا حالكًا، أو أخبروني إن استمر الليل بظلامه وقتامه إلى يوم القيامة، من يستطيع أن يأتي لكم بالضياء والنور؟ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ما يقال لكم سماع تدبر وتفكُّر؟

وتلحظ أن القرآن في جانب الليل قال ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وفي جانب النهار قال ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: لأن الإنسان في الظلام يعتمد على سمعه، وفي النهار يعتمد على بصره.

والإنسان في ظلام الليل الطويل يشتاق إلى ضوء الفجر ونور الصباح، وإذا اشتد عليه الهجير ولفح الشمس حنَّ إلى نسمة الليل ورحمة الظلام.

72- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

أي أخبروني إن جعل الله عليكم النهار دائمًا لا ليل معه أبدًا، إلى يوم القيامة، من غيره يستطيع أن يأتيكم بليل تستقرون فيه وتهدءون، وتسكنون إلى بيوتكم وزوجاتكم وأطفالكم؟ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ بعيونكم وقلوبكم شواهد القدرة وآيات العناية الإلهية بكم؟

73- ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

يسَّرَ الله للنَّاس النعمة والرحمة، ودبَّر لهم الليل والنهار، فالليل سكينة وقرار، والنهار نشاط وعمل وابتغاء رزق الله وفضله.

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾: لعل قلب الإنسان يتفكر ويتدبر، ويتأمل في أفضال الله المتلاحقة، ونعمه العديدة، فهو يقلِّب الليل على النهار، ويقلِّب النهار على الليل، ويختار للعباد ما يصلح شئونهم، وما يُيسِّر حياتهم ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: 216).

فهو العليم بما يحتاج إليه الناس، ولذلك أرسل لعباده الرُّسل، وأنزل عليهم الكتب، ويسَّر لهم الشرائع وبيان الحلال والحرام والهدي والرحمة، قال تعالى:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النساء: 26).

النص الثالث والعشرون: آيات الله

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾

وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الروم: 17 - 27).

المفــردات:

17- ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾: فسبحوا الله أيها الناس، أي صلوا له.

﴿ حِينَ تُمْسُونَ ﴾: صلاة المغرب والعشاء.

﴿ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾: صلاة الصبح.

18- ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾: من سكان السماء من الملائكة، وأصناف الخلق من الأرض.

﴿ وَعَشِيًّا ﴾: وسبحوه عشيًا، وذلك في صلاة العصر.

﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾: تدخلون في وقت الظهيرة.

19- ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾: الإنسان من الماء الميت، ﴿ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾: ويخرج الماء الميت من الإنسان، ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾: بعد خرابها، ﴿ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾: من قبوركم إلى موقف الحساب.

20- ﴿ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾: من أبيكم آدم الذي خلقه من تراب.

﴿تَنتَشِرُونَ ﴾: تتصرفون.

23- ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾: مواعظ الله فيعتبرون.

24- ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾: خوفًا للمسافرين أن يتأذوا به، وطمعًا للمقيم في الخصب.

25- ﴿ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ ﴾: بغير عَمَد تُرى.

26- ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴾: مطيعـون للـه فيمـا أراد مـن حياة أو موت، وإن عصاه بعضهم فيما يكتسب بقواه.

27- ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾: معناه وهو عليه هين، ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾: ليس كمثله شيء.

التفسير:

هـذه آيـات كريمـة فيها دلائـل القـدرة الإلهيـة، والرحمـة والعظمة الربانيـة، فيها أنعـم الله تعالى في خلـق الكون وما فيه، وخلق الإنسـان وتيسـير أمـوره، وبيـان القـدرة الإلهية الممسـكة بنظام الكـون كله التي بدأت الخلق ثم تعيده مرة أخرى عند البعث والنشور.

17- ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾:

إذا رأى الإنسان المساء يقبل والنهار يدبر، أو إذا رأى الصباح يطارد الظـلام، أدرك الجلال لمن يمسـك بنظام هذا الكـون، فجعل الليل للراحـة، والنهـار للعمل، وبذلك ينعـم الناس بالحياة، ويشـاهدون بديـع صنـع اللـه. وكان النبـي ﷺ دائـم الذكـر للـه، وكان يقرأ هذه الآيات كل صباح ومساء، ثم يقول في الصباح:

«أصبحنـا وأصبـح الملـك للـه، والحمـد لله لا شـريك لـه، لا إله إلا هـو، وإليـه النشـور، أصبحنـا علـى فطـرة الإسـلام وكلمـة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد ﷺ وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا، وما كان من المشركين».

«اللهم إني أصبحت منك في نعمة وعافية وستر، فأتم عليَّ نعمتك وعافيتك وسترك في الدنيا والآخرة».

«اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر».

***

وفي المساء يقول:

«أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، لا شريك له، لا إله إلا هو، وإليه المصير، أمسينا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص...».

***

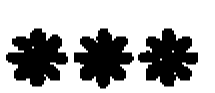
ومن ذلك ترى عناية القرآن والسنة بلفت نظر المؤمن إلى آثار القدرة في هذا الكون، وببعث دلائل الإيمان من صفحات الكون، ومن مشاهد الطبيعة، حتى تتجدد النفس ويقوى اليقين، وهي طريقة أجدى وأنفع من طرائق المتكلمين.

***

18- ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾:

وهذا إرشاد من الله لعباده، إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة، عند المساء وإقبال الليل، وعند الصباح وإسفار الضوء، وهو سبحانه المحمود على ما خلق في السموات والأرض، وهو مستحق للثناء والحمد والتنزيه في جميع الأوقات والأحوال.

***



وقيل: إن الآيتين تشيران إلى أوقات الصلوات الخمس ﴿ حِينَ تُمْسُونَ ﴾: صلاة المغرب والعشاء، ﴿ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾: صلاة الفجر، ﴿ وَعَشِيًّا ﴾: صلاة العصر، وهو معطوف على ﴿ حِينَ تُمْسُونَ ﴾، ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾: صلاة الظهر.

والقول الأكثر أن الصلاة فرضت بمكة، وأن الآية دعوة عامة إلى التأمل في خلق الله، وتذكر آلائه في هذه الأوقات، وهذا التأمل عبادة حقة مدحها القرآن حين قال:

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ (آل عمران: 191).

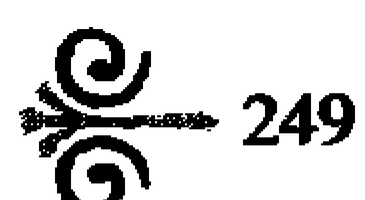
***

19- ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾:

لقد أخرج الله آدم من تراب، وخلق الكون من العدم، وفي كل لحظة يَخرج حي من ميت ويخرج ميت من حي.

فمن ذلك إخراج النبات من الحب، والحب من النبات، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والليل من النهار، والنهار من الليل.

وفي كل لحظة تدب الحياة في جنين إنسان أو حيوان أو طائر، وتسلب الحياة من آخرين، إنها دورة دائبة عجيبة رهيبة لمن يتأملها بالحس الواعي والقلب البصير.



﴿ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ ﴾ بالحياة والماء والزرع، وكما يحيي الله الأرض بعد موتها، يبعث الناس ويخرجهم من قبورهم، بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية، وهو أمر هين يسير على الله القادر.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فصلت: 39).

20- ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾:

لقد خلق الله آدم من تراب، والتراب ميت ساكن، ثم شاء الله أن يتحول التراب إلى طين، ثم إلى حمأ مسنون، ثم ينفخ فيه الروح ثم يصير إنسانًا، يدب على وجه الأرض فيه البصر والسمع والحواس، وفيه العقل والفكر.

فهناك نقلة هائلة من صورة التراب الساكن الزهيد إلى صورة الإنسان المتحرك الجليل القدر الذي يبني المدائن والحصون، ويدور أقطار الأرض، ويكتسب الأموال، وله فكر وغور، ودهاء ومكر، ورأي وعلم، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه، فسبحان من أقدرهم وسيّرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعايش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكر، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة.

روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض،**

جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك»[1].

21- ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم: 21):

من دلائل قدرته أن خلق لكم ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾: من جنسكم، فخلق الله حواء من آدم لتكون له سكنًا وأمنًا، والتعبير القرآني اللطيف يقول: ﴿ لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾: أي تأنسوا بها فإن المجانسة من دواعي التضام والتعارف.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾: أي توادًّا وتراحمًا بعصمة الزواج.

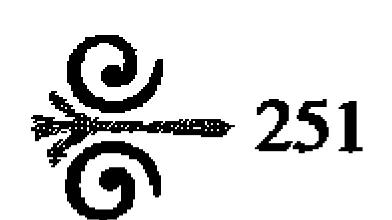
﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾: فيدركون حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقًا للآخر، ملبيًا لحاجته الفطرية: نفسية وعقلية وجسدية، بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار، لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر.

***

22- ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾: (الروم: 22)

---

(1) أخرجه أيضًا: أبو داود والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح.
انظر مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق: محمد على الصابوني 3 – 51.



إن خلق السموات والأرض معناه إنشاء هذا الخلق الهائل الضخم العظيم الدقيق، الذي لا تعرف عنه إلا أقل القليل، هذا الحشد الذي لا يحصى من الأفلاك والمدارات والنجوم والكواكب والسدوم والمجرات، تلك التي لا تزيد أرضنا الصغيرة عن أن تكون ذرة تائهة بينها.

ومع الضخامة الهائلة ذلك التناسق العجيب بين الأفلاك والمدارات والدورات والحركات وما بينها من مسافات وأبعاد تحفظها من التصادم والخلل، والتخلف والاضطراب، وتجعل كل شيء في أمرها بمقدار.

﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾: أي اختلاف لغاتكم اختلافًا لا حدَّ له، فمن عربية إلى فرنسية إلى إنجليزية إلى هندية إلى أوربية إلى صينية إلى نحو ذلك.

واختلاف ألوانكم، كالسواد والبياض وغيرهما، ولهذا الاختلاف وقع التعارف، فجميع أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان، وليس يشبه واحد منهما الآخر بل لابد أن يفارقه بشيء من السمت أو الهيئة أو الكلام ظاهرًا كان أو خفيًا يظهر عند التأمل.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾: والعالمين بكسر اللام جمع عالم؛ أي خبير من علماء الأصوات واللغات أو عالم في الأجناس والسلالات فيتأمل في خلق الإنسان، وما يشتمل عليه من بديع الصنع، والتكوين ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون: 14).

23- ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾: (الروم: 23).

أي ومن علامات قدرته: نومكم بالليل واستغراقكم فيه حتى لا تكون حركة ولا حس وسعيكم للأرزاق نهارًا بمزاولة أسباب المعاش ووسائله.

قال الجاحظ:

«فكر في مقادير الليل والنهار كيف وقعت على ما فيه صلاح هذا الخلق فصار منتهى كل واحد منهما إذا امتد خمس عشرة ساعة لا يجاوز ذلك، أرأيت لو كان النهار مائة ساعة أو مائتين، ألم يكن في ذلك بوار ما على الأرض من حيوان أو نبات، أما الحيوان فكان لا يهدأ أو لا يقر طول هذه المدة من العمل، فلا البهائم كانت تمسك عن الرعي لو دام لها ضوء النهار، ولا الإنسان كان يفْتُر عن العمل والحركة، فكان ذلك ينهكها أجمع، ويؤديها إلى التلف، وأما النبات فكان يدوم عليه حر النهار، ووهج الشمس حتى يجف ويحترق، وكذلك الليل لو امتد مقدار هذه المدة لعاق أصناف الحيوان عن الحركة والتصرف وطلب المعاش، حتى تموت جوعًا، وتخمد الحرارة الطبيعية من النبات حتى يعفن ويفسد، كالذى نراه يحدث على النبات إذا كان في موضع لا تقع عليه الشمس»[1].

---

(1) من كتاب الدلائل والاعتبار للجاحظ.



24- ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾: (الروم: 24).

ومـن آياتـه الدالة على قدرته أنه يريكم البـرق فتخافون مما فيه من الصواعـق وتطمعـون فيما يجلبه من المطر الذي ينزل من السـماء فيحيي الأرض الميتة التي لا زرع فيها ولا شجر.

قال النسـفي: في «﴿ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ ﴾ وجهان: إضمار أن، كما في مصحف ابن مسعود ﷺ، وإنزال الفعل منزلة المصدر، وبهما فسر المثل: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه»(1).

﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾: لتخافوا من قهر سلطانه، وتطمعوا في عظيم إحسانه.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يتفكرون بعقولهم.

جاء في ظلال القرآن «وظاهرة البرق ظاهرة ناشئة من النظام الكوني، ويعللها بعضهم بأنها تنشـأ من انطلاق شـرارة كهربائية بين سـحابتين محملتين بالكهرباء، أو بين سـحابة وجسـم أرضـي كقمة جبل مثلًا، ينشـأ عنهـا تفريغ في الهواء يتمثل في الرعـد الذي يعقب البرق، وفي الغالب يصاحب هذا وذاك تساقط المطر نتيجة لذلك التصادم»(2).

25- ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾: (الروم: 25).

---

(1) تفسير النسفي 3 – 270.

(2) في ظلال القرآن الجزء 21 ص 2765.

ومن آياته قيام السموات والأرض، واستمرار حفظهما ونظامهما على ما هما عليه، ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة، يأهل القبور، اخرجوا، والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف[1].

جاء في تفسير القاسمي:

الدعاء إما على حقيقته، أو الكلام تمثيل، شبه سرعة ترقب حصول ذلك على تعلق إرادته بلا توقف، واحتياج إلى تجشم عمل، بسرعة ترقب الداعي المطاع على دعائه.

26- ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾:

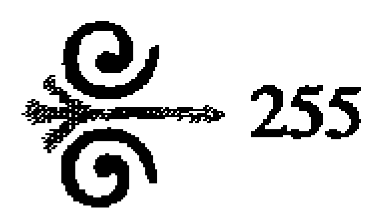
﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾: أي خلقًا وملكًا وتصرفًا.

﴿ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾: أي منقادون لتصرفه لا يتأبون عليه.

«ولقد نرى أن الكثير من الناس لا قانتون لله ولا عابدون، ولكن هذا التقرير إنما يعني خضوع كل من في السموات والأرض لإرادة الله ومشيئته التي تصرفهم وفق السنة المرسومة التي لا تتخلف ولا تحيد، فهم محكومون بهذه السنة ولو كانوا عصاة كافرين، إنما تعصي عقولهم، وتكفر قلوبهم، ولكنهم مع هذا محكومون

---

(1) قال النسفي: وإنما عطف هذا على قيام السموات والأرض بثم بيانًا لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله، وهو أن يقول: يأهل القبور، قوموا فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر كما قال: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ وإذا الأولى للشرط، والثانية للمفاجأة، وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط.



بالناموس مأخوذون بالسنة، يتصرف فيهم خالقهم وفق ما يريد تصرفه بباقي العبيد وهم لا يملكون إلا الخضوع والقنوت»[1].

***

27- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

أي وهو الذي يبدأ الخلق من غير أصل له، فينشئه بعد أن لم يكن شيئًا، ثم يفنيه بعد ذلك، ثم يعيده كما بدأه، وذلك أسهل عليه على حسب ما يدور في عقول المخاطبين، من أن من فعل شيئًا مرة كانت الإعادة أسهل عليه.

روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته. وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد»**[2].

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾: أي الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ما يدانيه فيها كالقدرة العامة والحكمة التامة «وذلك أنه لما جعل ما ذكر أهون عليه على طريق التمثيل، عقبه بهذا، فكأنه

---

(1) في ظلال القرآن الجزء 21 ص 2766.

(2) أخرجه البخاري وأحمد.

قيل: هـذا لتفهم العقول القاصرة أن صفاتـه عجيبة، وقدرته عامة، وحكمته تامة، فكل شـيء بدءًا وإعـادة وإيجادًا وإعدامًا عنده على حد سواء ولا مثل له ولا ند»[1].

﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ﴾: أي الغالـب علـى أمره، الذي لا يعجزه بدء ممكن وإعادته.

﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾: فـي تدبيـر خلقه، وتصريف شـئونه فيمـا أراد وفق الحكمة والسداد.

---

(1) تفسير القاسمى 13 - 4776.

النص الرابع والعشرون: تسخير الرياح

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الروم: 46).

المفردات:

﴿ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾: بالغيث والرحمة.

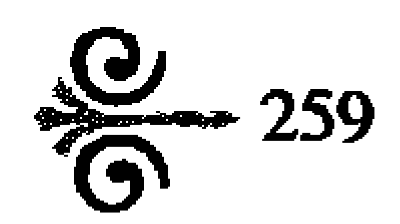
التفسير:

من دلائل قدرته ﴿ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ تبشر بالمطر بعدها، ولهذا قال:

﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾: بآثار هذه البشرى من الخصب والنماء.

﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾: سواء بدفع الرياح لها، أو بتكوين الأنهار من الأمطار فتجري السفن فيها.

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾: في الرحلات التجارية، وفي الزرع والحصاد وفي الأخذ والعطاء، وكله من فضل الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا.



﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾: أي وليعدكم لشكره كفاء ما أسدى إليكم من نعمه التي لا تعد ولا تحصى ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (إبراهيم: 34).

النص الخامس والعشرون: جريان الفلك في البحر

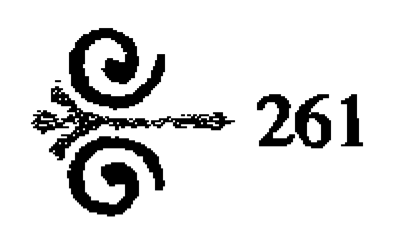
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)﴾ (لقمان: 29 - 32).

المفردات:

﴿يُولِجُ﴾: أي يدخل، والمراد أنه يضيف الليل إلى النهار، والعكس بالعكس فيتفاوت بذلك حال أحدهما زيادة ونقصانًا.

﴿يَجْرِي﴾: أي يسير سيرًا سريعًا.

﴿بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾: أي بما تحمله من الطعام والمتاع ونحوهما نعمة من الله على خلقه.



﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم ﴾: أي غطاهم.

﴿ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾: جمع ظلة شبه به الموج في شدة سواده، وكثرة الماء يركب بعضه بعضًا، قال الراغب: (الظلة): السحابة تظل.

﴿ مُّقْتَصِدٌ ﴾: أي سالك للقصد أي للطريق المستقيم، وهو التوحيد لا يعدل عنه إلى غيره.

﴿ وَمَا يَجْحَدُ ﴾: وما ينكر.

﴿ خَتَّارٍ ﴾: غدار، والختر عند العرب: أقبح الغدر.

قال عمرو بن معد يكرب:

فإنك لو رأيت أبا عمير ... ملأت يديك من غدر وختر

التفسير:

29- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾:

تشير الآية إلى فضل الله ونعمه على العباد، ومنها تتابع الليل والنهار، وطول أحدهما ونقص الآخر، فيطول الليل في الشتاء ويطول النهار في الصيف.

أو المقصود: أن الله يدخل ظلمة الليل في ضوء النهار إذا أقبل الليل، ويدخل ضوء النهار على ظلمة الليل إذا أقبل النهار.

ومشهد دخول الليل في النهار، ودخول النهار في الليل، وتناقصهما وامتدادهما عند اختلاف الفصول مشهد عجيب حقًّا.

ويرتبط حدوث الليل والنهار بتسخير الشمس والقمر وجريانهما المنتظم، ما يقدر على هذا التسخير إلا الله القدير الخبير، وهو الذي يقدر ويعلم جريانهما إلى الوقت المعلوم.

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾: هو مطلع على أعمالكم، وهو مجازيكم بها.

30- ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾:

أي إنما يظهر آياته للناس ليستدلوا بها على أنه هو المستحق للعبادة، وأن كل ما سواه هو الباطل الذي يضمحل ويفنى، قال القاسمي:

﴿ ذَٰلِكَ ﴾: إشارة إلى ما ذكر من سعة العلم، وشمول القدرة، وعجائب الصنع، واختصاص البارئ بها ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ بسبب أنه الحق، وجوده وإلهيته.اهـ.

وفي ظلال القرآن:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾: كل شيء غيره يتبدل، وكل شيء غيره يتحول، وكل شيء غيره تلحقه الزيادة والنقصان، وتتعاوره القوة والضعف، والازدهار والذبول والإقبال والإدبار، وكل شيء غيره يوجد بعد أن لم يكن، ويزول بعد أن يكون، وهو وحده سبحانه الدائم الباقي الذي لا يتغير ولا يتبدل ولا يحول ولايزول.

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾: المرتفع على كل شيء، المتسلط على كل شيء، الخاضع له كل شيء فليس غيره (عَلِيٌّ) ولا (كَبِيرٌ).

***

31- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾:

إن الله هو الذي سخر البحر، وأنزل الماء، ورفع السماء، وسخر الهواء، وسبب الأسباب لسير السفن في البحر وفق النواميس التي أودعها الله البحر والفلك والريح والأرض والسماء ولو اختلت خواص هذه المخلوقات أي اختلال ما جرت الفلك في البحر: لو اختلت كثافة الماء، لو اختلت نسبة ضغط الهواء على سطح البحر، لو اختلت التيارات المائية والهوائية، لو اختلت درجة الحرارة عن الحد الذي يبقي الماء ماء، ويبقي تيارات الماء والهواء في الحدود المناسبة.. لو اختلت نسبة واحدة أي اختلال ما جرت الفلك في الماء.

﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ ﴾: بما تحمله من الأقوات والمتاع من بلد إلى آخر، ومن قطر إلى قطر هو في حاجة إليها لينتفع الناس بما على ظاهر الأرض مما ليس في أيديهم.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾:

أي فيما ذكر لدلائل واضحات لكل ﴿ صَبَّارٍ ﴾ عظيم الصبر في البأساء والضراء ﴿شَكُورٍ ﴾ عظيم الشكر للنعماء بأن يقوم بحقها.

قال عليه الصلاة والسلام: «**الإيمان نصفان : نصف صبر، ونصف شكر**».

قال الشعبي: الصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله، ألم تر إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ (الذاريات: 20).

32- ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾:

تصور الآية طبيعة الإنسان أمام الخطر الداهم، والخوف من الموت، وارتفاع الموج كالظلة، والظلة كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيره.

في هذه الحالة تتعرى النفوس من القوة الخادعة، وتتجرد من القدرة الموهومة التي تحجب عنها في ساعة الرضاء حقيقة فطرتها، وتقطع ما بين هذه الفطرة وخالقها، حتى إذا سقطت هذه الحوائل استقامت الفطرة إلى ربها، واتجهت إلى بارئها وأخلصت له الدين، ونفت كل شريك.

وهذا دليل من دلائل الألوهية، وهو الالتجاء إلى الله في الشدة، والتوجه إليه في الضراء، ودعاؤه عند الاضطرار عندما تنفد كل الوسائط، ولا يبقى إلا باب الرحمن، عندئذ يلجأ المضطر إلى ربه، ويتجه المعرض عن الله إلى الله، حين لا يجد ملجأ من الله

إلا إليـه، عندئـذ يدعون الله مخلصين لـه الدين. ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾. أي بـاق علـى الإيمـان والإخـلاص الـذي كان منه، وقال ابن زيد: المقتصد هو الوسـيط في العمل، يشير إلى قولـه تعالـى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ (فاطر: 32).

﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾:

﴿ خَتَّارٍ ﴾: أي غـدار ناقض للعهد الفطري، ولعقد العزيمة وقت الهول البحري.

﴿كَفُورٍ ﴾: شديد الكفر بعد أن زال الخطر.

وهـذه المبالغـة الوصفيـة تليق هنا بمـن يجحد آيات اللـه بعد هذه المشاهد الكونية، ومنطق الفطرة الخالص الواضح المبين.

النص السادس والعشرون: الأمانة

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ (الأحزاب: 72، 73).

المفـــردات:

﴿ ٱلْأَمَانَةَ ﴾: قيـل: عُنِـي بهـا فرائـض اللـه عـز وجـل مـن الوضوء والغسـل والصلاة والـزكاة والصيام والحج، وغيرها مـن فرائضه، على أنهـا إن أحسـنت أثيبت، وإن ضيعـت عوقبت، فأبت حملها إشـفاقًا من ألا تقوم بذلك. وقيل هي في هذا الموضع : أمانات الناس.

﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾: آدم عليه السلام، أو جنس الإنسان بموجب استعداده الفطري.

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا ﴾: مفرطًا في الظلم.

﴿ جَهُولًا ﴾: مبالغًا في الجهل.

أي بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة.

72- ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾:

«ذهب الجمهور إلى أن الأمانة كل شيء يؤتمن الإنسان عليه من أمر ونهي، وشأن دين ودنيا، فالشرع كله أمانة، ومعنى الآية: إنا عرضنا على هذه المخلوقات العظام أن تحمل الأوامر والنواهي ولها الثواب إن أحسنت والعقاب إن أساءت فأبت هذه المخلوقات وأشفقت، فيحتمل أن يكون هذا بإدراك يخلقه الله لها، ويحتمل أن يكون هذا العرض على من فيها من الملائكة، وحمل الإنسان الأمانة؛ أي التزم القيام بحقها، وهو في ذلك ظلوم لنفسه جهول بقدر ما دخل فيه»[1].

من كلام المفسرين في الآية:

1- فسر بعض السلف الأمانة بالطاعة، وبعضهم بالفرائض والحدود والدين، وبعضهم بمعرفته تعالى، قال ابن كثير: وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب[2].

2- قال النسفي المتوفى 701 هـ:

«وقيل معنى الآية ما كلفه الإنسان، بلغ من عظمه أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه، فأبى حمله وأشفق منه،

---

(1) تفسير الثعالبي، جزء 3 ص 338.

(2) تفسير القاسمي، جزء 13ص 4925، 4926.

وحمله الإنسان على ضعفه، إنه كان ظلومًا جهولاً؛ حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها، وضمنها ثم خاس بضمانه فيها، ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب، وما جاء القرآن إلا على أساليبهم، من ذلك قولهم: لو قيل للشحم أين تذهب لقال أسوي العوج»(1).

3- وقال الفخر الرازي المتوفى 606 هـ:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾: أي التكليف، وهو الأمر بخلاف ما في الطبيعة، واعلم أن هذا النوع من التكليف ليس في السموات ولا في الأرض؛ لأن الأرض والجبل والسماء كلها على ما خلقت عليه:

الجبل لا يطلب منه السير، والأرض لا يطلب منها الصعود، ولا من السماء الهبوط، ولا من الملائكة؛ لأن الملائكة، وإن كانوا مأمورين منهيين عن أشياء، لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا، فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتغل الإنسان بأمر موافق لطبعه.....

ثم يقول الإمام الرازي في تفسير حمل الأمانة: «لم يكن إباؤهن كإباء إبليس في قوله: ﴿ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الحجر: 31)».

من وجهين:

أحدهما: أن هناك السجود كان فرضًا، وها هنا الأمانة كانت عرضًا.

(1) تفسير النسفي 3 – 316.



وثانيهما: أن الإباء كان هناك استكبارًا، وها هنا استصغارًا، استصغرن أنفسهن؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾.

4- نقل ابن كثير آثارًا عن بعض التابعين، أن عرض الأمانة على هذه الأجرام كان حقيقيًا، وأنه قيل لها: إن أحسنت جزيت، وإن أساءت عوقبت، فقلن: يارب، إنا لا نستطيع هذا الأمر، وليس بنا قوة، ولكننا لك مطيعون.

قال الشراح: ولا بد أن يخلق الله فيها فهمًا لخطابه، وأنه كان على سبيل التخيير لها، ولذا عبر بالعرض لا تكليفًا حتى يلزم عصيانها.

5- قال الإمام ابن حزم في (الفصل):

نوقن أنه تعالى لم يعرض على السموات والأرض والجبال الأمانة إلا وقد جعل فيها تمييزًا لما عرض عليها، وقوة تفهم بها الأمانة فيما عرض عليها، فلما أبتها وأشفقت منها سلبها ذلك التمييز وتلك القوة، وأسقط عنها تكليف الأمانة.

6- ذهب جمع من المفسرين إلى ذلك من باب المجاز، كما بينه الزمخشري وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، والنسفي وغيره من المتأخرين.

ويخرج المؤمن من قراءة الآية وأشباهها في القرآن الكريم بأن هذا الكون خاضع لله خضوع القهر والغلبة، فالسماء مرفوعة، والأرض مبسوطة، والجبال راسية، والبحار جارية، وكل شيء في الكون خاضع لنظام متناسق، ولقدرة حكيمة مدبرة.

وقد عرض الله على السماء والأرض والجبال التكاليف الشرعية فأبت طبيعتها؛ لأنها لم تكن فيها طبيعة المقارنة والاختيار، وقَبِل الإنسان الأمانة؛ لأنه زُوِّد بالعقل والإرادة والاختيار، فهو يملك الطاعة والمعصية، ويملك الوفاء والخيانة، ويملك أداء المأمورات واجتناب المنهيات، كما يملك عكس ذلك، فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي زوده الله بالعقل والإرادة، وأرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب لهدايته ومساعدته، فمن أطاع من أفراده فله الجنة، ومن عصى فله النار، ويكون إباء السماء والأرض والجبال معناه عدم استعدادها بالفطرة لذلك، كما تقول: عرضت الحمل على البعير فأباه، أي ليس في تكوين خلقته قدرة على حمله.

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ لاستعداده بالفطرة لحمل الأمانة، وتحمل مسئولية التكليف، فإذا سلب من إنسان العقل سقط عنه التكليف.

لقد كرم الله الإنسان بالعقل، وأسجد له الملائكة، وأمده بالهدى، وفي نفس الوقت أوجد العقل والروح والنفس في جسد من طين له مطالب ونزعات وشهوات وأهواء، ورسالات السماء تدعو إلى صراط مستقيم، معتدل وسط، فللجسم حقه من أكل وشرب ونوم ونكاح، والعقل حارس يدعو الإنسان إلى أن يكون سلوكه في حلال، وبلا إسراف ولا تبذير.

ولكن الإنسان ربما جهل عظمة التبعة فظلم نفسه، وخضع للشهوات والرغبات، وترك الطريق القويم إلى الطريق المعوج.. قال تعالى:

﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾.

تحمل الإنسان الأمانة، إنه كان ظلومًا لنفسه، جهولاً لطاقته التي أودعها الله فيه، أو تحملها لأن من أفراده من يظلم ويجهل، فتتحقق حكمة الله تعالى من الخلق، فالله غفور رحيم: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ (غافر: 3).

ولن تكون هناك مغفرة إلا بعد خطيئة.

فالإنسان العاصي يحقق إرادة عليا من خلق الإنسان هي أن يذنب بعض أفراده ثم يستغفرون، فيغفر لهم الله، وهو الغفور الرحيم.

وفي الأثر: «لو لم تذنبوا لذهب بكم، ثم أتي بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم».

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ ﴾ (هود: 118، 119).

73- ﴿ لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴾.

لقد كانت هناك عدالة إلهية:

كون كامل خاضع لله خضوع القهر والغلبة، وإنسان مزود بآلات الهداية والغواية يحمل جسمًا وعقلاً، ويرسل إليه رسلاً وكتبًا، ويطيع بعض أفراده، ويعصي بعض أفراده عن إرادة واختيار، فهو يتحمل عاقبة اختياره، ويستحق الجزاء من نفس العمل، ليحق العذاب على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات.

(أي كان عاقبة حمل الإنسان للأمانة أن يعذب الله تعالى هؤلاء من أفراده لخيانتهم الأمانة وخروجهم على الطاعة بالكلية)[1].

وليمد الله يد العون للمؤمنين والمؤمنات فيتوب عليهم مما يقعون فيه تحت ضغط ما ركب فيهم من نقص وضعف، وما يقف في طريقهم من حواجز وموانع، وما يشدهم من جواذب وأثقال، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ (ق: 16).

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ (النجم: 32).

وقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ (آل عمران: 135، 136).

(1) تفسير القاسمي 13 – 4925.

الحث على أداء الأمانة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ (النساء: 58).

ومدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ (المؤمنون: 8، وتكررت الآية في سورة المعارج: 32).

من هدي السنة:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا: **«أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمة»** (رواه الإمام أحمد في مسنده[1] والطبراني).

وعن أبي هريرة مرفوعًا: **«أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»** (رواه أبو داود والترمذي).

وروى البخاري عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ لمن سأل عن الساعة: **«إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قال : كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»**[2].

---

(1) انظر المسند ج 2، ص 177 طبعة الحلبي، والحديث رقم 6652 (طبعة دار المعارف).

(2) أخرجه البخاري في: 3 - كتاب العلم. 2 - باب من سئل علمًا وهو مشتغل في حديثه، حديث 52.

النص السابع والعشرون: الحمد لله

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ (سبأ: 1، 2).

المفردات:

﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾: كالذي هو أهله في الدنيا.

﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾: في أمره، (الخبير): بخلقه.

﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ﴾: يدخل ويغيب.

﴿وَمَا يَعۡرُجُ﴾: يصعد إليها.

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾: الرحيم بأهل التوبة من عباده أن يعذبهم بعد توبتهم، الغفور لذنوبهم إذا تابوا منها.

سورة سبأ:

سورة سبأ سورة مكية نزلت بعد سورة لقمان، وقد نزلت سورة سبأ في الفترة ما بين السنة الحادية عشرة والثانية عشرة من حياة الرسول ﷺ

بمكة بعد البعثة، أي أنها نزلت في السنوات الأخيرة من حياة المسلمين بمكة، وعدد آيات سورة سبأ 54 آية.

قصة سبأ:

سميت السورة بهذا الاسم لاشتمالها على قصة سبأ، وهي مدينة من المدن القديمة في اليمن، وكانت عاصمة دولة قديمة بها، وقد خربت عند انهيار سد مأرب بسبب سيل العرم.

***

وقد ضرب الله في سورة سبأ مثلاً للشاكرين بداود وسليمان.

ثم ضرب الله مثلاً للبطر والجحود بمملكة سبأ، وقد سبق أن ذكرت في سورة النمل بالعظمة والقوة، فلما آمنت بلقيس وكفر من جاء بعدها، وأعرضوا عن شكر الله أصابهم الدمار، وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبي اليمن، وكانوا في أرض مخصبة ما تزال منها بقية إلى اليوم، وقد ارتقوا في سلم الحضارة، حتى تحكموا في مياه الأمطار عن طريق سد مأرب، ولكنهم لم يشكروا نعمة الله عليهم، فأرسل الله عليهم السيل الجارف، الذي يحمل في طريقه العرم، وهي الحجارة؛ لشدة تدفقه فتحطم السد، وجفت الجنان واحترقت.

قال تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ (سبأ: 15، 16).

***

1- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

تكررت صيغة الحمد في القرآن الكريم، في أول سورة الفاتحة، وأول سورة الكهف، وفي ثنايا القرآن الكريم نجد اثنتين وستين آية تحمل في ثناياها الحمد لله والإقرار له بالوحدانية والملك، وهناك آيات أخرى تحمل الحمد المعنوي لله، وإن لم تحمل لفظة الحمد.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: خلقًا وملكًا وتصرفًا، فالله محمود لذاته، ولو لم يقم بحمده أحد من هؤلاء البشر، وهو محمود في هذا الوجود الذي يسبح بحمده، ومحمود من شتى الخلائق، ولو شذ بعض البشر عن سائر خلائق الله.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: فهو المعبود أبدًا، المحمود على طول المدى.

قال النسفي:

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: كما هو في الدنيا، إذ النعم في الدارين من المولى، غير أن الحمد هنا واجب لأن الدنيا دار تكليف، والآخرة لا تكليف فيها، وإنما يحمد أهل الجنة سرورًا بالنعم، وتلذذًا بما نالوا من الأجر العظيم بقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ (فاطر: 34).

﴿ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ﴾: الذي أحكم أمور الدارين ودبرها بحكمته، وهو حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

﴿ٱلۡخَبِيرُ ﴾: بخلقه وأعمالهم وسرائرهم، فلا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء.

***

2- ﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ﴾:

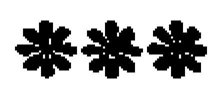
لقد أحاط بكل شيء علمًا، بالقطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبذور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج منها من نبات وبترول ومعادن.

﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ (الأنعام: 59).

﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾: من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والمقادير.

﴿ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ ﴾: ما يصعد إليها من الملائكة والدعوات وأعمال العباد.

﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ﴾: هو الرحيم بإنزال ما يحتاجون إليه (الغفور) لمن تاب إليه.



***

جاء في ظلال القرآن ما يأتي:

«كم من شيء يلج في الأرض! كم من حبة تختبئ في جنبات هذه الأرض! كم من دودة ومن حشرة ومن هامة ومن زاحفة تلج في الأرض في أقطارها المترامية! كم من قطرة ماء ومن ذرة غاز، ومن إشعاع كهرباء تدنس الأرض في أرجائها الفسيحة! وكم مما يلج في الأرض وعين الله ساهرة لا تنام!

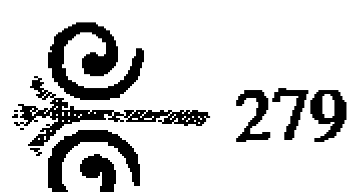
وكم يخرج منها! كم من نبتة تنبثق! وكم من نبع يفور! وكم من بركان يتفجر! وكم من غاز يتصاعد! وكم من مستور ينكشف! وكم من حشرة تخرج من بيتها المستور! وكم وكم مما يرى ومما لا يرى، ومما يعلمه البشر ومما يجهلونه وهو كثير!

وكم مما ينزل من السماء! كم من نقطة مطر! وكم من شهاب ثاقب! وكم من شعاع محرق، وكم من شعاع منير! وكم من قضاء نافذ ومن قدر مقدور! وكم من رحمة تشمل الوجود وتخص بعض العبيد، وكم من رزق يبسطه الله لمن يشاء من عباده ويقدر! وكم وكم مما لا يحصيه إلا الله.

وكم مما يعرج فيها! كم من نفس صاعد من نبات أو حيوان أو إنسان أو خلق آخر مما لا يعرفه الإنسان!

وكم من دعوة إلى الله معلنة ومستترة لم يسمعها إلا الله في علاه!

وكم من روح من أرواح الخلائق التي نعلمها أو نجهلها متوفاة! وكم من ملك يعرج بأمر من روح الله، وكم من روح يرف في هذا الملكوت لا يعلمه إلا الله.



.... وعلم الله الشامل الهائل اللطيف العميق يحيط بهذا كله في كل مكان وفي كل زمان، وكل قلب وما فيه من نوايا وخواطر، وما له من حركات وسكنات تحت عين الله، وهو مع هذا يستر ويغفر ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾.

وإن آية واحدة من القرآن كهذه الآية لمما يوحي بأن هذا القرآن ليس من قول البشر، فمثل هذا الخاطر الكوني لا يخطر بطبيعته على قلب البشر التي لا تشبهها صنعة العبيد»[1].

(1) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، الجزء 22 ص 2892 بتصرف واختصار.

النص الثامن والعشرون: الخلق والقدرة

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ (فاطر: 11 – 14).

المفردات والجمل:

11- ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾: زوج الذكر من الأنثى.



﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾: عند الله مكتوب قبل أن تحمل به أمه وقبل أن تضعه، قد أحصى ذلك كله وعلمه قبل أن يخلقه، لا يزاد فيما كتب له ولا ينقص.

12- ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾: (الفرات) أعذب العذب.

﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾: مر، وهو أشد المياه ملوحة.

﴿وَمِن كُلٍّ﴾: ومن كل البحار.

﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾: السمك.

﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾: يعني: الدر والمرجان.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾: السفن.

﴿مَوَاخِرَ﴾: تمخر الماء بصدرها، وهو خرقها وشقها إياه.

13- ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾: يقال: ولج فلان منزله إذا دخله، وأصل الولوج الدخول؛ فالليل يلج في النهار، والنهار يلج في الليل، فيزيد هذا بنقصان هذا، وهو ولوجهما فيهما.

﴿مِن قِطْمِيرٍ﴾: من قشر نواة فما فوقها، وهي لفافة النواة كسحاة البيضة.

التفسير:

هذه آيات تشير إلى معالم القدرة الإلهية، وتذكر بعض جوانبها مثل خلق الإنسان وتسخير البحار، وتسخير الليل والنهار، والشمس

والقمر بقدرة الإله القادر المالك لهذا الكون، وهو النافع الضار الرازق الباسط المانع المحيي المميت، بيده الخلق والأمر، وهو على كل شيء قدير.

11- ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾:

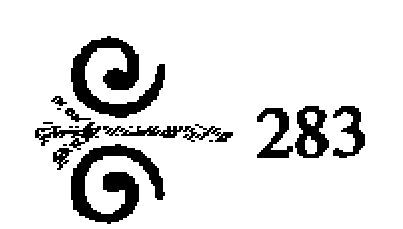
بين القرآن أن الله خلق آدم من تراب، وذكر أنه خلق من طين ومرة أخرى ذكر أنه خلق من حمأ مسنون، ويجمع بين الآيات بأنه إشارة إلى مراحل الخلق فقد بدأ خلقه من تراب، ثم صار التراب طينًا، ثم تغير الطين بطول المكث فصار صلصالاً وحمأ مسنونًا، وقد خلق الله حواء من آدم، ومن آدم وحواء تناسلت البشرية.

قال النسفي:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم ﴾ أي أباكم ﴿ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ ﴾ أنشأكم ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أصنافًا، أو ذكرانًا وإناثًا. اهـ.

(والإشارة إلى النشأة الأولى من التراب تتردد كثيرًا في القرآن، وكذلك الإشارة إلى أولى مراحل الحمل؛ النطفة. والتراب عنصر لا حياة فيه، والنطفة عنصر فيه الحياة، والمعجزة الأولى هي معجزة هذه الحياة التي لا يعلم أحد كيف جاءت، ولا كيف تلبست بالعنصر الأول[1] وما يزال هذا سرًّا مغلقًا على البشر.

(1) في ظلال القرآن جزء 22 ص 2931.



والنقلة من النطفة التي تمثل مرحلة الخلية الواحدة إلى الخلقة الكاملة السوية للجنين حين يتميز الذكر من الأنثى وتتحقق الصورة التي يشير إليها القرآن في هذه الآية ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ سواء كان المقصود جعلكم ذكرًا وأنثى وأنتم أجنة أو كان المقصود جعلكم أزواجًا بعد ولادتكم وتزاوج الذكر والأنثى.

هذه النقلة من النطفة إلى هذين النوعين المتميزين نقلة بعيدة، فأين الخلية الواحدة في النطفة من ذلك الكائن الشديد التركيب والتعقيد الكثير الأجهزة المتعددة الوظائف؟ وأين تلك الخلية المبهمة من ذلك الخلق الحافل بالخصائص المتميزة؟

ومن رحمة الله بالخلق أن جعلهم أصنافًا بقدر معلوم.. بحيث يكاد الفريقان - فريق الذكور وفريق الإناث - يستويان عددًا.. ولو لم يكن كذلك لفني الإنسان والحيوان، إذ إن حفظ النوع لا يتم إلا بتلك المساواة على وجه التقريب ولا تكون المساواة إلا بتدبير وعلم[1] وإلى ذلك أشار سبحانه وتعالى ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾.. أي ولا تحمل الأنثى ولا تضع إلا وهو عليم بذلك لا يخفى عليه، ونحو الآية قوله سبحانه في سورة الرعد:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (الرعد: 8، 9).

---

(1) تفسير المراغي 22-113، 114.

فلا حمل ولا وضع إلا وهو عالم به مدبر له، فلا يخرج شيء عن تدبيره[1].

(والنص يتجاوز إناث الإنسان إلى إناث الحيوان والطير والأسماك والزواحف والحشرات وسواها مما نعلمه ومما لا نعلمه، وكلها تحمل وتضع..)[2].

﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾.

روي عن ابن عباس:

(يقول: ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر، وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ يقول كل ذلك في كتاب عنده[3]).

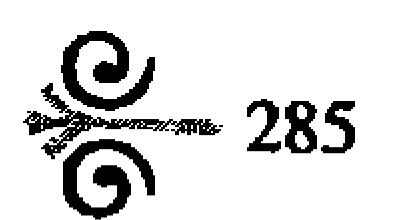
فمن الناس من يعمر طويلاً، ومنهم من يموت كهلاً، ومنهم من يموت شابًّا، ومنهم من يموت يافعًا، ومنهم من يموت طفلاً، ومنهم من ينزل سقطًا، وكل واحد من هؤلاء قد قدر أجله وعمره ورزقه، وشقي أو سعيد، وكتب له ذلك وهو جنين في بطن أمه.

---

(1) تفسير القرطبي 14-333، تفسير البيضاوي ص144.

(2) في ظلال القرآن الجزء 22 ص 2932.

(3) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق: محمد على الصابوني 3-142.



قال المراغي في تفسيره للآية:

«لا أحد يقضى له بطول العمر إلا وهو بالغ ما قدر له، لا يزيد على ذلك ولا ينقص منه، ولا أحد مقدر له قصر العمر بزائد على ما قدر له في الكتاب الذي كتب له[1] وذلك لحفظ الموازين في الأرض حتى ينتظم العمران... ولو لم يكن على هذا النحو لساء حال الكون، إذ يكثر الناس وتزدحم الأرض ويشتد الكرب، ومن ثم تفاوتت الأعمار في جميع الأمصار»[2].

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ الكتاب هو اللوح كما فسره ابن عباس، ويجوز أن يراد بكتاب الله علمه سبحانه وتعالى أو صحيفة الإنسان[3].

«والتعمير يكون بطول الأجل وعد الأعوام، كما يكون بالبركة في العمر والتوفيق إلى إنفاقه مثمرًا واحتشاده بالمشاعر والحركات والأعمال والآثار، وكذلك يكون نقص العمر بقصره في عد السنين أو نزع البركة منه، وإنفاقه في اللهو والعبث والكسل والفراغ، ورب ساعة تعدل عمرًا بما يحتشد فيها من أفكار ومشاعر وبما يتم فيها من أعمال وآثار، ورب عام يمر خاويًا فارغًا لا حساب له في ميزان الحياة ولا وزن له عند الله»[4].

وهناك تفسير لزيادة العمر بأنها توفيق الله للإنسان أن يقضي وقته في عمل نافع أو يرزقه ذرية صالحة تدعو له فينفعه الله بدعائهم.

(1) تفسير المراغي 22-114، تفسير البيضاوي ص144.

(2) تفسير المراغي 22-114.

(3) تفسير الكشاف 3-303، تفسير البيضاوي ص144.

(4) في ظلال القرآن.

روى البخاري ومسلم والنسائي واللفظ له عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»** وفي الحديث الشريف: **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**.

12- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

قارن القرآن بين الهدى والضلال، والظل والحرور، وغير ذلك من المتقابلات فقال سبحانه:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ (فاطر: 19 - 22).

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

خلق الله الأنهار تنساب بين العباد بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار يشرب منها الإنسان والحيوان، وينبت النبات الذي فيه غذاء لهما. وماء الأنهار عذب فرات، وخلق البحار ماؤها ملح أجاج مختلف عن العذب السائغ، ومع ذلك فللبحار فائدة أخرى هي سير السفن الكبار فيها كما يستخرج منها اللؤلؤ والمرجان.

***

وإرادة التنويع في خلق الماء واضحة ووراءها حكمة ظاهرة... فالعذب اليسير التناول للاستخدام والانتفاع وهو قوام الحياة لكل حي.

وأما الجانب الملح المر فلوجوده حكم متعددة، فهو بمثابة مصفاة تمتص السموم المتصاعدة من بيئة الحياة والأحياء، ومن سطحه المتسع يتصاعد البخار ويتكاثف ثم يعود مطرًا.

يقول (أ. كريسي موريسون):

«وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور - ومعظمها سام - فإن الهواء باق دون تلويث في الواقع ودون تغير نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء - أي المحيط - الذي استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل، والنباتات، وأخيرًا الإنسان نفسه...»[1].

هذا التنسيق الدقيق لا يأتي مصادفة، والإشارة إلى اختلاف البحرين توحي بمعنى القصد في هذه التفرقة.

﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾:

واللحم الطري هو الأسماك والحيوانات البحرية على اختلافها، والحلية من اللؤلؤ والمرجان، كما قال عز وجل: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ (الرحمن: 22).

(1) في ظلال القرآن جزء 22 ص2934، نقلاً عن كتاب: الإنسان لا يقوم وحده، تأليف (أ. كريسي موريسون: رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك) (ترجمة محمود صالح الفلكي بعنوان: العلم يدعو إلى الإيمان).

﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾:

أي تمخره وتشقه بحيزومها وهو مقدمها المسنم الذي يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره[1]. وقال الزمخشري في تفسيره: «شواق للماء بجريها، يقال مخرت السفينة الماء. ويقال للسحاب: بنات مخر؛ لأنها تمخر الهواء، والسفن التي اشتقت منها السفينة قريبة من المخر؛ لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره»[2].

﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾:

بالسفر والتجارة والانتفاع باللحم الطري والحلي واستخدام الماء والسفن في البحار والأنهار[3].

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾: ربكم وقد سخر لكم هذا البحر العظيم تتصرفون فيه كيف شئتم، وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيء منه، فتشكرون من سخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار.

13- ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾:

(1) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق: محمد علي الصابوني 3-142.

(2) تفسير الكشاف 3-304.

(3) في ظلال القرآن جزء 22 ص2934.



مـن قدرة الله تسـخير الليل والنهار يتعاقبـان، ويدخل أحدهما في الآخـر، فيأخـذ هـذا مـن طـول ذاك، ويزيـد هـذا فـي قصـر ذاك فيعتدلان، ثم يتقارضان صيفًا وشتاءً.

وقد يعني إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل ما يلي:

1- مشـهد دخول الليل في النهار، والضياء يغيـب قليلاً قليلاً والظلام يدخـل قليلاً قليـلاً حتى يكون الغروب وما يليه مـن العتمة البطيئة الدبيـب، ومشـهد دخـول النهـار في الليـل حينما يتنفـس الصبح، وينتشـر الضيـاء رويدًا رويدًا، ويتلاشـى الظلام رويـدًا رويدًا حتى تشرق الشمس ويعم الضياء.

2- طـول الليـل وهو يأكل مـن النهار وكأنما يدخل فيـه، وطول النهار وهو يأكل من الليل وكأنما يدخل فيه.

3- وقد يعنيهما معًا بتعبير واحد[1].

﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾:

ذلل الله الشمس والقمر بالطلوع والأفول لمعرفة الحساب وإتمام المنافـع[2]. وجريان الشـمس والقمر ظاهرة ملموسـة محسوسـة، يراها الإنسان كل يوم، فتذكره بالقدرة العليا، التي جعلت الشمس ضيـاء والقمـر نـورًا، وتابعت بينهما ليشـاهد الإنسـان فـي أوقات متلاحقة مناظر الطبيعة المختلفة، ويد الله الحانية تغمر هذا الكون بالعطف والرعاية.

---

(1) في ظلال القرآن جزء 22 ص 2935.

(2) تفسير القرطبي 14-79278.

﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾:

جميع ما في الكون يسير بمقدار معين، وعلى منهاج مقنن محرر، ووفق نظام دقيق محكم، والمقصود بالأجل المسمى هو يوم القيامة.

قال البيضاوي: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هي مدة دوره، أو منتهاه، أو يوم القيامة.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾:

ذلك الذي أرسل الرياح بالسحاب، والذي أحيا الأرض بعد موتها، والذي خلقكم من تراب، والذي جعلكم أزواجًا، والذي يعلم ما تحمل كل أنثى وما تضع، والذي يعلم ما يعمر وما ينقص من عمره، والذي خلق البحر، والذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى.

ذلكم هو الله ربكم، العظيم الجليل الخالق القادر، الواهب الرازق المانع المنعم مالك الملك، وهو على كل شيء قدير.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾:

من تقصدونه من دون الله، لا يملك لكم قليلًا ولا كثيرًا، (القطمير): هو القشرة الرقيقة التي بين الثمرة والنواة، أو هو القمع الذي على رأس النواة، أو هي النكتة البيضاء التي في ظهر النواة تنبت منها النخلة، أو هو شق النواة.

14- ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.



﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾: فهم أصنام أو أوثان أو أشجار أو نجوم أو كواكب أو ملائكة أو جن.

وكلهم لا يملكون بالفعل قطميرًا، وكلهم لا يسمعون لعبادهم، سواء كانوا لا يسمعون أصلًا لأنهم جماد لا أرواح فيها، أو لأنهم لا يسمعون لكلام البشر، كالجن الذين لا يملكون الاستجابة، والملائكة الذين لا يستجيبون للضالين.

﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾:

ولو سمعوا على سبيل الفرض والتمثيل لم ينفعوكم.

وقيل: أي لو جعلنا لهم عقولاً وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم ولما استجابوا لكم على الكفر[1]؛ لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الألوهية ويتبرءون منها.

فكيف تعبدون من لا ينفع ولا يضر، وتَدَعون من بيده النفع والضر.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾:

أي يتبرءون منكم ويقولون: ما كنتم إيانا تعبدون.. بل كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم، وما زينته لكم شياطينكم، ويقرون ببطلان عبادتكم لهم.

***

(1) تفسير القرطبي 14/ 336.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾: أي لا يخبـرك بالأمـر مخبـر، مثـل خبير عظيم أخبرك به، وهو الحق سـبحانه، فإنه الخبير بكنه الأمور دون سـائر المخبرين، والمراد تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم، ونفي ما يدعون لهم من الألوهية[1].

(1) تفسـير القاسمي، وقريب منه في تفسير القرطبي 14/ 336، وابن كثير، والبيضاوي، والمراغي.

النص التاسع والعشرون: ألوان مختلفة

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾ (فاطر: 27، 28).

المفـــردات:

﴿ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾: خضـراء وصفـراء وحمـراء وبيضاء إلى غير ذلك من ألوان الثمار.

﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ ﴾: والجدد هي الطرائق والشعاب.

فالجبـال مختلفة الألوان كذلـك، منها الأبيض والأحمر والأسـود، وكل لون منها بداخله طرائق متعددة من الألوان.

فالجـدد البيض مختلف ألوانهـا فيما بينها، والجـدد الحمر مختلف ألوانهـا فيما بينها، مختلف في درجة اللـون والتظليل والألوان الأخرى المتداخلة فيه.



﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾: غرابيب جمع غربيب وهو الشديد السواد، فالوصف هنا مقدم من تأخير، تقول العرب هو أسود غربيب إذا وصفوه بشدة السواد.

***

التفسير:

يمتن الله على عباده ببديع صنعته، وما أودعه في هذا الكون من جمال، فالنبات مختلف الأشكال والروائح والطعوم، والجبال مجموعات مختلفة منها الأسود والأحمر والأبيض، ومنها الفاتح والفاقع وبين بين.

وقد أراد سبحانه أن يرى الناس جمال الخلق، وأن يتمتعوا بالألوان والأصباغ والأشكال المختلفة، فنعمة البصر ونعمة النظر ونعمة التأمل فيما خلق الله، تقود الإنسان إلى اليقين الكامل والإيمان الصادق وحب الإله المنعم المتفضل.

***

27- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

تأمل أيها الإنسان في قدرة الله، فهو الذي يسوق السحاب، وينزل المطر من السماء، فيخرج بالمطر نباتًا مختلف الألوان والطعوم، قال تعالى:

﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد: 4).

***

ومجموعات الجبال ألوان متعددة، منها الجبال الطوال السود الغرابيب؛ أي حالكة شديدة السواد.

ومنها الجبال البيضاء والحمراء المختلفة في درجة اللون والتظليل والألوان الأخرى المتداخلة فيها.

«واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار، تهز القلب هزًّا، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي، التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية فتراه في الصخرة كما تراه في الثمرة»(1).

28- ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾:

الناس مختلفة الأشكال والألوان، منهم بربر وأحباش في غاية السواد، ومنهم صقالبة وروم وأوروبيون في غاية البياض، ومنهم عرب بين ذلك.

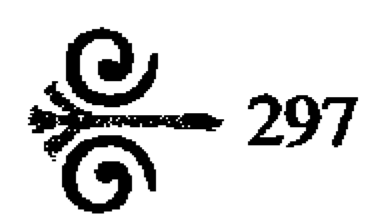
قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ (الروم: 22).

وكذلك ألوان الدواب والأنعام مختلفة أيضًا.

﴿ وَٱلدَّوَآبِّ ﴾: كل ما يدب على القوائم.

---

(1) في ظلال القرآن الجزء 22 صفحة 3942.



﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: هي الإبل والبقر والغنم والماعز، خصصها من الدواب من باب عطف الخاص على العام.

والألوان والأصباغ في الأنعام معرض جميل، كمعرض الصخور، ومعرض الثمار، هذا الكتاب الكوني الجميل الصفحات، العجيب التكوين يفتحه القرآن ويقلب صفحاته أمام عين الإنسان، ليتدبر ويعرف نفسه، فيعرف ربه فيخشى الله حق خشيته.

﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾:

كلما ازداد العالم علمًا، أدرك أن وراء النظام الدقيق في هذا الكون قدرة إلهية عالية تحفظه وتحميه، فازداد خشية لله، وخضوعًا لأحكامه واتباعًا لأوامره.

وعن ابن مسعود ﷺ أنه قال: «**ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية**».

وقال مالك: «إن العلم ليس بكثرة الرواية، إنما العلم نور يجعله الله في القلب».

إن دراسة العلماء والباحثين لطبقات الأرض وصخورها وكنوزها ومحتوياتها، ولطبقات الفضاء والهواء، ومعرفة أسرار الكون ونظامه، امتثال لأمر الله وتلبية لرغبة القرآن الكريم في الحث على العلم والمعرفة.

قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (الزمر: 9).

وقال عز شأنه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: 18).

وقد أقسم الله بالقلم والدواة وهما وسيلة العلم وأداته، فقال تعالى:

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (القلم: 1).

وكانت أول آيات تنزلت من القرآن الكريم دعوة إلى القراءة والتعليم.

قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ (العلق: 1 – 5).

وفي الحديث النبوي الشريف:

«ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وغشيتهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده».

وفي الأثر:

«من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معًا فعليه بالعلم».

ومن وصايا لقمان لابنه:

«يا بني، اطلب العلم فإن افتقرت كان لك مالاً، وإن استغنيت كان لك جمالاً، يا بني، العلم خير من المال، والعلم حاكم والمال

محكوم عليه، والعلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزكو بالإنفاق، والمال ينقص بالإنفاق».

ومما ينسب إلى الإمام علي رضي الله عنه:

الناس من جهة التمثال أكفاء
أبوهم آدم والأم حواء
فإن يكن لهمو في أصلهم شرف
يفاخرون به فالطين والماء
ما الفخر إلا لأهل العلم إنهمو
على الهدى لمن استهدى أدلاء
ففز بعلم تعش حيًا به أبدًا
الناس موتى وأهل العلم أحياء

النص الثلاثون: خلق الأزواج

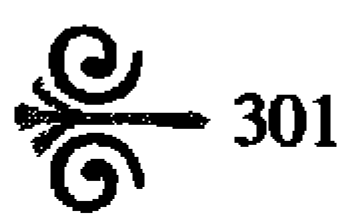
﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (يس: 33 – 40).

المفـــردات:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾: دليل لهؤلاء المشركين على قدرة الله.

﴿ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾: الأرض الهامدة التي لا شيء فيها من النبات.

﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾: أي وما ذلك إلا من رحمة الله تعالى بهم لا بسعيهم ولا بقوتهم.



﴿ خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾: يسر الله تكامل الكون فمن الأنعام أزواج، ومن الإنسان أزواج، ومن النبات والثمار والزروع أزواج.

﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾: ننزع ونذهب عنه النهار.

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾: للنقصان بعد تناهيه وتمامه.

﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾: كعود الشماريخ إذا عتق فإنه يرق ويتقوس ويصفر.

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾: لا يصلح لها أن تدركه، فتكون الأوقات كلها نهارًا.

﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾: فتكون الأوقات كلها ليلاً.

﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾: كل من الشمس والقمر والليل والنهار في مجال خاص به.

التفسير:

تقدم هذه الآيات طائفة من الأدلة الملموسة، والآيات المشاهدة، التي تثبت جلال القدرة، وبديع الصنعة الإلهية.

من هذه الآيات حياة الأرض بالمطر، وإنبات النبات وإنضاج الثمر، ومنها نظام الأزواج من الإنسان والحيوان والنبات والأفلاك وغيرها، ومنها حركة الشمس والقمر والليل والنهار....

وهي ظواهر متكررة، ولكنها تعرض هنا في صورة جديدة على طريقة القرآن في إثارة الوجدان، وإيقاظ الحس والتأمل عند الإنسان.

33، 34- ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾:

الله سبحانه وتعالى خالق الحياة والأحياء، ومن آيات القدرة هذه الأرض الهامدة الخاشعة، التي لا حياة فيها ولا حركة، أحياها الله سبحانه وتعالى بإنزال الماء إليها، وإنبات الحب كالذرة والقمح والشعير، مما يأكله الإنسان والحيوان، وقدم الحب لأنه أساس الطعام، ولولاه لعمت المجاعة واضطربت أحوال الناس، قال تعالى:

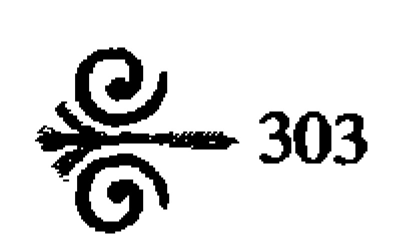
﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٤﴾ ﴾ (سورة قريش 3، 4).

وفوق إطعام الإنسان بالحب، فإن الله تعالى قد منَّ عليه بنعم متعددة تسعد حياته، وتمتع ناظره، وتمده بالحلوى والفاكهة.

﴿ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴾:

وجعلنا في الأرض بساتين من النخيل الذي يثمر البلح والتمر، والأعناب التي تثمر العنب والزبيب، وفجرنا في الأرض عيونًا يشرب منها الإنسان والحيوان، ويستمتع الناس بمنظرها، ويستفيدون بها في النظافة والطهارة.

35- ﴿ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴾:



أحيا الله الأرض بالماء، وأنبت للإنسان الحب والنخيل والأعناب، ليأكل الإنسان من ثمار هذه النباتات، مع أن يده لم تعمل الثمرة، ولكن الله هو الذي أنبتها وأنضجها.

وللآية معنى آخر أشار إليه النص بقوله:

﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ ﴾: أي مما خلقه الله من الثمر.

﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾: أي ومما عملته أيديهم من الغرس والسقي والتلقيح وغير ذلك من الأعمال إلى أن يبلغ الثمر منتهاه يعني أن الثمر في نفسه فعل الله وخلقه، وفيه آثار من كد بني آدم.

وقال القاسمي: ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾: أي وليأكلوا مما عملته أيديهم، وهو ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾: أي خالق هذه النعم الجسام بعبادته وحده، وهو إنكار لعدم قيامهم بواجب الشكر.

36- ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

أتم الله إبداع الكون، فالنبات أزواج، والحيوان أزواج، والإنسان أزواج، وعوالم أخرى خلقها الله متكاملة متناسقة لا يعلمها الإنسان، وإنما أبدع نظامها رب الإنسان.

قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات: 49).

فهناك السماء والأرض، والليل والنهار، والظلام والنور، والشمس والقمر، وأصناف وأنواع موجودة في البر والبحر، والفضاء

والسحاب، فالمطر أثر من آثار تلقيح سحابتين إحداهما موجبة والأخرى سالبة.

«ومن يدري فربما كانت هذه قاعدة الكون كله حتى الجماد، وقد أصبح معلومًا أن الذرة - أصغر ما عرف من قبل من أجزاء المادة - مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربي سالب وموجب يتزاوجان ويتحدان، وكذلك شوهدت ألوف من الثنائيات النجمية، تتألف من نجمين مرتبطين يشد بعضهما بعضًا، ويدوران في مدار واحد كأنهما يوقعان على نغمة رتيبة»[1].

***

37- ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾:

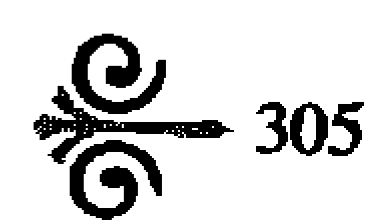
﴿ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ﴾: أي نزيله ونكشفه عن مكانه، استعير لإزالة الضوء، والسلخ كشط الجلد وإزالته عن الحيوان المسلوخ، وفيه إشارة إلى أن النهار طارئ على الليل.

وأن الأصل في الأشياء الظلمة، والنور غلاف طارئ على الظلام، كبيت مظلم أسرج فيه، فإذا غاب السراج أظلم.

«والتعبير القرآني عن هذه الظاهرة تعبير فريد، فهو يصور النهار متلبسًا بالليل، ثم ينزع الله النهار من الليل فإذا هم مظلمون، ولعلنا ندرك شيئًا من سر هذا التعبير الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته، فالأرض الكروية في دورتها حول نفسها في مواجهة

---

(1) في ظلال القرآن جزء 23 ص 2968.



الشمس تمر كل نقطة فيها بالشمس فإذا هذه النقطة نهار، حتى إذا دارت الأرض وانزوت تلك النقطة عن الشمس، انسلخ منها النهار ولفها الظلام، وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام، وكأنما نور النهار ينزع أو يسلخ فيحل محله الظلام، فهو تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير»[1].

38- ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾:

من آيات الله هذه الشمس المسخرة، إنها في حركة مستمرة، وفي مدار معين تقطعه من الشروق إلى الغروب.

«والشمس تدور حول نفسها، وكان المظنون أنها ثابتة في موضعها الذي تدور فيه حول نفسها، ولكن عرف أخيرًا أنها ليست مستقرة في مكانها إنما هي تجري، تجري فعلاً في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل، بسرعة حسبها الفلكيون باثني عشر ميلاً في الثانية، والله ربها الخبير بها وبجريانها وبمصيرها، يقول: إنها تجري لمستقر لها، هذا المستقر الذي ستنتهي إليه لا يعلمه إلا هو سبحانه، ولا يعلم موعده سواه.

وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء، لا يسندها شيء، تدرك طرفًا من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم.

(1) في ظلال القرآن جزء 23 ص 2968.

﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ (1).

إن هـذه الشـمس الهائلـة تسـير فـي مدارهـا خاضعـة لأمـر ربها، وتسـجد تحـت عـرش الرحمـن، أي تظهـر طاعتهـا واسـتجابتها للإله القادر.

***

روى البخـاري عن أبي ذر ﷺ قال: كنت مع النبي ﷺ في المسـجد عند غروب الشـمس، فقال ﷺ: «**يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشـمس؟**» قلـت: الله ورسـوله أعلـم، قال ﷺ: «**فإنهـا تذهب حتى تسـجد تحت العرش**، فذلك قوله تعالى:

﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾.

وقرأ ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم.

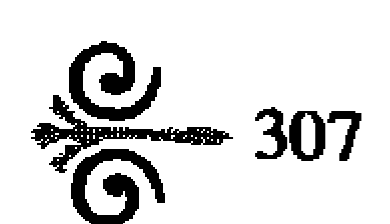
﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ﴾ أي لا قـرار لهـا ولا سـكون، بل هـي سـائرة ليـلاً ونهـارًا لا تفتـر ولا تقـف، كمـا قـال تبـارك وتعالـى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِ ﴾ أي لا يفتـران ولا يقفـان إلـى يوم القيامة(2).

مـن قصـة الإيمـان:

هـذا حـوار بيـن شـيخ مؤمـن، وتلميـذ حائـر يبحـث عـن الحقيقة، قال الشيخ: وعن مواقع النجوم بماذا أحدثك يا حيـران؟ لقد رأى العلماء

(1) في ظلال القرآن جزء 23 ص 2968.

(2) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق: محمد على الصابوني 3/ 163.



أن لهـذه النجـوم مواقـع لا تتبـدل ولا تتغيـر، فظنوهـا ثابتة، وسـموها (الثوابـت) ومنهـا شمسـنا وما هـي بثوابت، كمـا حقق العلمـاء في هذا العصـر، بـل كلهـا تدور وتجـري لمسـتقر لها، فـي مجرييـن مختلفين، متداخـل أحدهما في الآخر كأنهما زوجان مـن النحل مختلطان، ولكن هـذا الجري يتم ويسـتمر في مواقع ومدارات لا تتبدل ولا تتغير، بنسـبة بعضها إلى بعض على كر الدهور بذلك النظام العجيب الذي كان محل القسم العظيم[1].

التلميذ الحيران: والشمس تجري معها أيضًا؟

الشـيخ: كيف لا والشـمس نجـم من جملة نجوم هـذه المجرة، إنها تجـري مثلهـا ومعها أيضًا، سـاحبة وراءها موكبها من السـيارات، ومن جملتها الأرض.

التلميذ الحيران: فرج الله عنك يا مولاي كما فرجت عني، فقد كان العلـم يؤكـد أن النجـوم ثوابـت، وأن الشـمس ثابتـة، وكنـت أجـادل مشـايخي في معنى قوله تعالـى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾.

الشـيخ: ألـم تتعلم يا حيران مـن كل ما قررته لـك، أن حقائق العلم لا يمكـن أن تتنافـى مـع حقائـق الديـن الحـق، إن النجـوم كلهـا تدور وتجـري والشـمس معها تـدور وتجري إنهـم عرفوا من قبـل أنها تدور

(1) يشـير إلـى قولـه سـبحانه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (الواقعة: 75، 76).

علـى محورهـا في مـدة 26 يومًا ولكنهم كانوا يحسـبونها ثابتـة لا تنتقل ولا تجـري، أمـا اليـوم فقد ثبت لهم ثبوتًا لا ريب فيـه، أنها تجري، وأن النظـام الشمسـي كلـه يجـري في السـماء، كمـا تجـري كل النجوم في مجرتنا، وفيما وراءها جريًا عجيبًا لمستقر لها كما قال القرآن[1].

التلميذ الحيران: هل هنالك نجوم أبهر نورًا من شمسنا وأكبر؟

الشـيخ: وما هي شمسـنا هذه يـا حيران في نورها وحجمها بالنسـبة للنجوم الكبرى؟ إن نور شمسـنا يبلغ بتقدير العلماء (ثلاثة آلاف مليون مليـون مليـون مليون شـمعة)، ولكن ما قولك إذا عرفـت أن نور النجم المسـمى (الشـعرى اليمانية) أقوى من نور شمسنا بـ 26 مرة وأن هنالك في النجوم البعيدة شموسًا أقوى من نور شمسنا بمائة مرة.

التلميذ الحيران: يا للهول!

الشـيخ: ومـا قولـك إذا عرفـت أن العلم اكتشـف اليـوم، أن هنالك نجومًا نورها أقوى من نور شمسنا بخمسمائة ألف مرة[2].

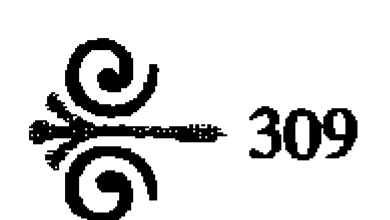
39- ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾:

ظهـور الهـلال فـي أول الشـهر مظهر يثيـر في الإنسـان الإعجاب بالقدرة والعظمة الإلهية.

---

(1) قصـة الإيمـان بين الفلسـفة والعلـم والقـرآن، تأليف الشـيخ: نديم الجسـر، مفتي طرابلس ص307، مطابع المكتب الإسلامي - بيروت.

(2) المرجع السابق ص309.



وكان النبي ﷺ إذا رأى الهلال يقول: **«الحمد لله الذي خلقني وخلقك، وقدر لك منازل، وجعلك آية للناظرين»**.

ويقول أيضًا: **«اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام ربي وربك الله»**.

«هلال يمن وبركة».

والقمر جرم غير منير بذاته، ولكنه يستمد نوره بالانعكاس من الشمس المضيئة بذاتها ليعكسه بدوره إلى الأرض قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (يونس: 5).

قال القاسمي: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾: أي: صيرنا له منازل ينزل كل ليلة في واحد منها ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾: أي: حتى إذا كان في آخر منازله دق واستقوس، وصار كالعذق المقوس اليابس، إذا حال عليه الحول.

فالعرجون هو الشمروخ، وهو العنقود الذي عليه الرطب، ويسمى العذق، بكسر العين، والقديم العتيق، وإذا قدم دق وانحنى واصفر، فشبه به من ثلاثة أوجه[1].

---

(1) تفسير القاسمي جزء 14 من 5: 50.

«وتشـير الآية إلى اختلاف مناظر القمر بالنسـبة إلـى أهل الأرض، فإن نوره مكتسـب من الشـمس يستنير بها نصف كرته تقريبًا، وما يقرب من النصف الآخر غير المسامت للشمس مظلم، ثم يتغير موضع الاستنارة ولا يـزال كذلك حتـى يعود إلى الوضع الأول، ويعرض ذلك! أن يظهر لأهل الأرض في صورة هلال ثم لا يزال ينبسـط عليه النور حتى يتبدر ثم لا يزال ينقص حتى يعود إلى ما كان عليه أوله»[1].

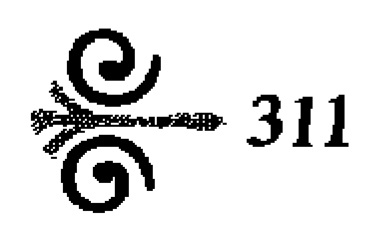
40- ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾:

قضـى اللـه سـبحانه وتعالـى أن يحكم نظام هـذا الكون فالسـماء عالية، والأرض مبسـوطة، والبحار جارية، والشـمس تظهر بالنهار فتملأ الدنيا ضياء والقمر يظهر بالليل فيبدد ظلام الليل.

ولكل نجم أو كوكب فلك أو مدار لا يتجاوزه في جريانه أو دورته والمسـافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة، وبذلك يحفظ الله هذا الكون من التصادم والصدع.

فللشـمس فلـك خاص بهـا، والقمـر له فلـك خاص بـه، وكذلك النجـوم والكواكـب والشـمس لا ينبغي لها أن تـدرك القمر فتظهر بالليل، والليل لا يسبق النهار ولا يأتي قبل أوانه، بل كل حركة في هذا الكون محسوبة بنظام دقيق، وترتيب كامل رائع.

(1) الميزان في تفسير القرآن.



﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾: أي كل مما ذكر يجري في مدار عظيم كالسابح في الماء. قال مجاهد: ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ المعنى أن لا فترة بين الليل والنهار، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخٍ، لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلبًا حثيثًا[1].

قال تعالى: ﴿ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾(الأعراف: 54).

(1) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق: محمد علي الصابوني 3/ 164.

النص الواحد والثلاثون: فعَّال لما يريد

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (يس: 81 - 83).

المفردات:

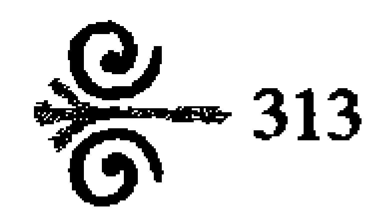
﴿ ٱلْخَلَّٰقُ ﴾: الكثير المخلوقات.

﴿ مَلَكُوتُ ﴾: ملك كل شيء، وزيادة الواو والتاء للمبالغة يعني هو مالك كل شيء.

التفسير:

أنكر كفار مكة البعث والحشر، واستبعدوا أن تعود الحياة إلى الأجسام بعد فنائها وتفتتها.

وقد ساق القرآن في الآيات السابقة شُبه المشركين ورد عليها، قال تعالى:



﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (يس: 78 – 80).

واستمر القرآن يعرض الأدلة والحجج على قدرة الله سبحانه فهو خالق السماء والأرض، قال سبحانه:

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (غافر: 57).

فمن خلق السماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم وأفلاك، ومن خلق الأرض وما فيها من جبال وبحار وعمران، قادر على أن يعيد خلق الناس، وأن يبعثهم بعد موتهم.

81- ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾:

إن السموات والأرض خلق عجيب هائل، فمن خلقهم قادر على أن يخلق مثل هؤلاء البشر، لأن من خلق الأعظم كان سهلاً عليه خلق الأضعف، والبشر خلقهم الله أول مرة، فإعادتهم أمر هين يسير، وليس هناك أمر صعب على الله، ولكن الله سبحانه يقرب فهم القدرة إلى عباده، فيستدل لهم بما ألفوه في حياتهم، وهو أن من يقدر على الكبير يهون عليه عمل الصغير، وقريب من ذلك قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأحقاف: 33).

والله يخلق الكون، ويخلق الإنسان، ويخلق كل شيء بلا كلفة ولا مشقة، ليس هناك صعب ولا سهل، وليس هناك قريب ولا بعيد، فتوجه الإرادة لخلق الشيء كاف وحده لوجوده كائنًا ما يكون.

***

82- ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾:

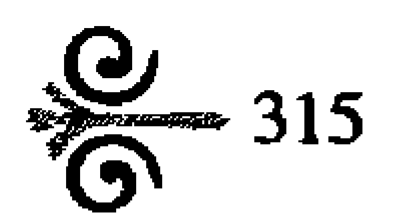
أي إنما يأمر بالشيء أمرًا واحدًا لا يحتاج إلى تكرار وتأكيد، فشأنه الأعلى، وقوله النافذ. قال النسفي: فالحاصل أن المكونات بتخليقه وتكوينه، ولكن عبر عن إيجاده بقوله: كن، من غير أن كان منه كاف ونون، وإما هو بيان لسرعة الإيجاد، كأنه يقول: كما لا يثقل قول «كن» عليكم، فكذلك لا يثقل على الله ابتداء الخلق وإعادتهم.

83- ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

تنزه الله الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو القابض بزمام كل أمر، والمتصرف فيه بلا وازع ولا منازع، قال بعضهم: الملكوت صيغة مبالغة من الملك فهو بمعنى الملك التام، والله هو العليم العلام[1].

---

(1) تفسير القاسمي.



ثم إليه وحده المرجع والمصير بعد الموت، فيجازيكم بأعمالكم.

***

أخرج الإمام أحمد عن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تعالى يقول: يا عبادي كلكم مذنب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم، وكلكم فقير إلا من أغنيت، إني جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء، عطائي كلام، وعذابي كلام، إذا أردت شيئًا فإنما أقول له كن فيكون**».

وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فقرأ السبع الطوال في ركعات، وكان ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «**سمع الله لمن حمده**» ثم قال: «**الحمد لله ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة**» وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فانصرف وقد كادت تنكسر رجلاي[1].

***

خلق الله:

قال الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن:

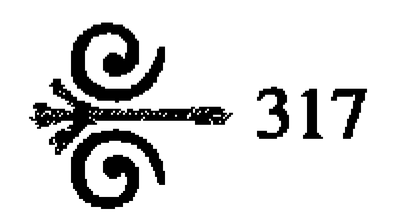
«والسموات والأرض خلق عجيب هائل دقيق.. هذه الأرض التي نعيش عليها، ويشاركنا ملايين من الأجناس والأنواع، ثم لا نبلغ نحن

(1) انظر مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق: محمد علي الصابوني.

شيئًا من حجمها، ولا شيئًا من حقيقتها، ولا نعلم عنها حتى اليوم إلا القليل هذه الأرض كلها تابع صغير مِن توابع الشمس التي تعيش أرضنا الصغيرة على ضوئها وحرارتها.. وهذه الشمس واحدة من مائة مليون في المجرة الواحدة التي تتبعها شمسنا، والتى تؤلف دنيانا القريبة، وفي الكون مجرات أخرى كثيرة، أو دُنْيَيَات كدنيانا القريبة عد الفلكيون حتى اليوم منها مائة مليون مجرة، بمناظيرهم المحدودة، وهم في انتظار المزيد كلما أمكن تكبير المناظير والمراصد، وبين مجرتنا أو دنيانا والمجرة التالية لها نحو خمسين وسبعمائة ألف سنة ضوئية - السنة الضوئية تقدر بستة وعشرين مليون مليون من الأميال - وهناك كتل ضخمة من السدم التي يظن أنه من نثارها كانت تلك الشموس، وهذا هو الجزء الذي يدخل في دائرة معارفنا الصغيرة المحدودة.

تلك الشموس التي لا يحصيها العد، لكل منها فلك تجري فيه، ولمعظمها توابع ذات مدارات حولها، كمدار الأرض حول الشمس.. وكلها تجري وتدور في دقة وفي دأب، لا تتوقف لحظة ولا تضطرب، وإلا تحطم الكون المنظور، واصطدمت هذه الكتل الهائلة السابحة في الفضاء الواسع» (1).

(1) في ظلال القرآن الجزء 23 صفحة 2978.





ملاحق البحث

إتمامًا للفائدة رأيت أن يطلع قارئ هذا البحث على مختارات تتصل به، كتبها أساتذة من أهل الخبرة والاختصاص وتشمل هذه الملاحق ما يأتي:

1- محاضرة للأستاذ الدكتور زغلول راغب النجار عنوانها:

الإنسان والكون

تكلم فيها عن الإنسان وخلافته في الأرض، وعن الكون الذي نعيش فيه، وتحدث على وجه الخصوص عن الآتي:

الأرض - المجموعة الشمسية - الشمس - القمر - النجوم - المجرة - المجرة العظمى - السُّدم - اتساع الكون - كيف تشكلت النجوم والكواكب - وحدة النظام في بناء الذرة والمجموعة الشمسية - الرعاية الإلهية للكون.

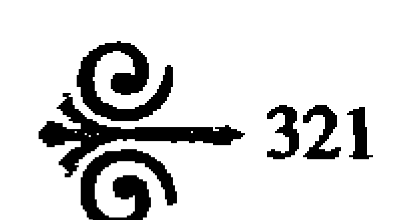
***

2- جزء من مقالة للأستاذ الشيخ محمد الغزالي عنوانها:

الإنسان في القرآن

دعا فيها إلى دراسة الكون والصحراء والمشاركة العلمية الهادفة في البحوث الجادة، وعلوم التقنية والطبيعة ونحوها، وحث على التعاون العربي باعتباره ضرورة حتمية وليس نافلة.





3- خاتمة لكتاب جديد عنوانه:

(القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم)

دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة

تأليف: موريس بوكاي.

أثبت المؤلف في هذه الدراسة اشتمال التوراة والإنجيل على معلومات تخالف المعارف الحديثة، وأن القرآن وثيقة صحيحة لا يحتوي على أي تناقض بين آياته وبين المعارف الحديثة، وقد نقلت هنا خاتمة هذا الكتاب.

***

4- فقرة عنوانها: أخونا الصغير (القمر).

منقولة من كتاب: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن

تأليف: الشيخ نديم الجسر مفتي طرابلس.

ويقع الكتاب في 451 صفحة. وفي آخره تقريظ من عدد كبير من الفضلاء يثني على منهج الكتاب الذي قدم المعارف العلمية الدينية في ثوب عصري جميل.

الملحـق الأول

محاضرة للأستاذ الدكتور زغلول راغب النجار.

ألقيت بتاريخ 19-2-1973 في الموسم الثقافي بــ (أبو ظبي).

***

وقـد حصـل الدكتـور زغلـول راغـب النجـار علـى درجـة دكتوراه الفلسفة في الجيولوجيا من جامعة ويلز ببريطانيا سنة 1963م.

***

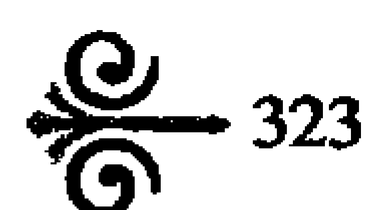
وللدكتـور النجـار نظريـة جديـدة فـي علـم طبقـات الأرض، ولـه تقسيمات جديدة للعصور الجيولوجية أقرتها مؤتمرات علمية دولية.

وهو عضو في كثير من الجمعيات العلمية المحلية والعالمية.

وقـد عمل الدكتور النجار في جامعات عين شـمس والرياض وويلز والكويت، وحصل على درجة الأستاذية سنة 1971م.

الإنســـان والكـــون

إن تعـرف الإنسـان لهذا الكـون ضرورة من ضـرورات وجوده، يرى فيـه عظمـة خالقـه، وقدرتـه وإعجازه فـي إبداع خلقـه، ويرى فيـه ضآلة



وجوده أمام هذا الكون المتناهي في اتساعه، الدائب في حركته، المنطلق في فضائه إلى نهاية لا يعلمها إلا مبدع الكون وخالق الفضاء، ويرى فيه حاجته الماسة إلى رعاية خالقه في كل لحظة من لحظات وجوده، وفي كل آن من آناء عمره؛ ويرى في استقراء قوانينه والتعرف على سننه، ما يمكنه من عمران كوكبه الأرض، وتسخير الطبيعة في سبيل سعادته.

ولذلك نجد القرآن الكريم يحض الناس على التفكير في هذا الكون بأسلوب علمي منهجي سليم، فالتنزيل ينطق:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ (آل عمران: 190، 191).

وفي مقام آخر:

﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر: 57).

وفي موضع ثالث:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١)﴾ (الغاشية: 17 – 21).

والقرآن يردد:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: 53).

ويضيف القرآن الكريم:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ (الأنعام: 75).

ويحصي علماء المسلمين أن بالقرآن من أمثال هذه الآيات المتعلقة بالعلوم الكونية سبعمائة وخمسين آية صريحة، بينما الآيات المتعلقة بأمور الفقه الإسلامي لاتزيد على مائة وخمسين آية.

وفي ذلك المعنى يقول ابن عطاء الله السكندري:

«الكائن في الكون، ولم تفتح له ميادين الغيوب، مسجون بمحيطاته، ومحصور في هيكل ذاته...».

وفي ذلك أيضًا يقول ألبرت أينشتين (صاحب النظرية النسبية):

«إن أعظم خاطرة يمكن أن تجيش بها النفس البشرية وأجملها لهي تلك التي يستشعرها الإنسان عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني والإظلام... إن الذي لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته حي ميت... إنه خفاء لا نستطيع أن نشق حجبه، وإظلام لا نستطيع أن نطلع فجره... ومع ذلك فنحن ندرك أن وراءه الحكمة أحكم ما تكون... ونحس أن وراءه الجمال أجمل ما يكون... وهي حكمة... وهو جمال... لا تستطيع عقولنا القاصرة أن تدركهما إلا في صور لهما بدائية أولية... ولكن هذا الإدراك لهذه الحكمة، وهذا الإحساس بمثل

هـذا الجمـال في أروع مـا يكون الجمـال، هو عندي جوهـر التعبد عند الخلائق».

ثم يستطرد فيقول:

«إن الشعور الديني الذي يستشعره الباحث في الكون هو أقوى حافز على البحث العلمي وأنبله».

ويضيف:

«إن دينـي هـو إعجابي في تواضع بتلـك الروح السـامية التي لا حدَّ لهـا... تلـك التي تتـراءى في التفاصيـل الصغيـرة القليلة التي تسـتطيع عقولنا الضعيفـة العاجزة إدراكها، وهو إيمانـي العاطفي العميق بوجود قدرة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا في هذا الكون المعجز للأفهام».

الإنســــان:

انطلاقًـا مـن ذلـك كلـه كان اختيـاري لموضوعـي الليلة «الإنسـان والكـون». فعلـى الرغم من أن الإنسـان جـزء من هذا الكـون، ومركب مستخلص من مادته، فإنه قد أفرد وحده في مواجهته؛ لأنه هو المخلوق الوحيد المتميز بالعلم والبيان، والعقل والتفكير، ومن ثم بمسئوليته عن كل عمل يعمله.

فهنـاك العالـم المـادي بجُملتـه، وعوالـم الحياة غيـر العاقلـة نباتية وحيوانيـة، وعوالـم الحيـاة العاقلـة غيـر المحسوسـة مسـخرة وغيـر مسخرة... وهناك الإنسان.

والإنسـان كيان روحي عاقـل.. يفكر ويدرك ما يفكر فيه، ويسـتطيع التعبير عن تفكيره ببيان واضح، والإدراك في نفسـه لمعان وقيم للأشياء

والأفعال يجعله قادرًا على العيش في عالم من الأفكار والتصورات والذكريات والعواطف مما يمكنه من إدراك ذاته بصورة متميزة عن كل ما سواها من الكائنات الحية الأخرى، رغم ما بينه وبينها من شبه في البناء وفي بعض الهيئة.

وليست إنسانيته بجسده المادي المعقد البناء، ولا بصفاته التشريحية الخاصة التي تحكمها قوانين المادة ومظاهر الحياة، «أي الجانب البشري في الإنسان». لأنه يعي ذاته والمادة لا تعي ذاتها... وليست بنسبته إلى سلالة معينة من الكائنات «أي السلالة البشرية»، وليست بمعنى كونه إنسيًّا من الإنس أي غير الجن...

فهذه كلها صفات مادية محضة ولكن الإنسانية في الإنسان هي ارتقاء إلى الدرجة التي تؤهله للخلافة في الأرض، واحتمال تبعات التكليف وتحمل الأمانة:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ (الأحزاب: 72).

فالإنسان توازن دقيق بين مادة وروح بينهما عقل يحول دون أن تطغى إحداهما على الأخرى؛ لأنه لو طغت إحداهما على الأخرى لخرج الإنسان عن إطاره الإنساني.

والإنسان يتصل بدوافع الحياة الجسدية، وقوى الغرائز الحيوانية عن طريق نفسه، أما روحه فهي من أمر الله، ويتوسط عقل الإنسان بين قوة روحه وقوة نفسه، فهو وازع النفس ومستلهم الهداية من الروح،

وعلى ذلك فالإنسان يعلو على نفسه بعقله، ويعلو على عقله بروحه؛ لأنه يتصل من جانب النفس بدوافع الحياة الجسدية، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم، وعلمه عند الله.

وواجب العقل أن يدرك ما وسعه إدراكه من جانبه المحدود؛ ولكنه لا يستطيع إدراك الحقيقة المطلقة إلا بإيمان وإلهام.

والإنسان بفضل عقله وإرادته المستنيرة بالعقل هو الكائن الوحيد المتميز بالقدرة على تحصيل العلم الكسبي، واستعداده لكسب المعارف عن طريق التحصيل والتفكير والإلهام.

وهو المخلوق الوحيد القادر على توجيه حياته، وتوجيه قواه وملكاته المادية والروحية، وعلى تسخير الكائنات الأخرى، وتفهم قوانين الطبيعة، والتعرف على سنن الكون.

ومن ثم استخدام كل ذلك في التعرف على خالقه، وفي التعرف على نفسه، وفي فهم رسالته في هذه الحياة.

ومن هنا أفرد الإنسان دون سائر المخلوقات في مواجهة الكون، لأنه مرآة تتجلى فيها ذاته... ويتجلى فيها الكون بأجمعه... وبه من الأعماق ما لا يكاد يصل إليه أحد... وهو مع ذلك جسم مادي خاضع لقوانين المادة.

فهو يتكون أساسًا من الماء مع نسب قليلة من عناصر أخرى لا تكون أكثر من مسمار صغير من الحديد، ورأس عود ثقاب من الكبريت، وكمية قليلة من الكلس... ولا يكمن السر في هذه المواد ذاتها؛ وإنما

يكمـن فـي كيفية تركيبها، فلو اختلفت هذه النسـب قليلاً لأنتجت مركبًا آخر مغايرًا لجسم الإنسان في صفاته وخواصه.

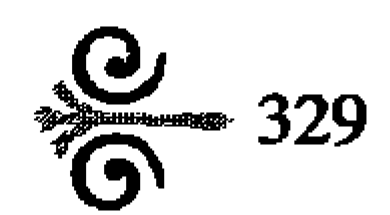
والإنسـان كذلك كيان حي خاضع لقوانين الحياة، من ميلاد، ونمو، وتكاثر، وازدهار، وشيخوخة، وموت... وهذا الكيان الحي بالغ التعقيد دائـم التحـول، يتكـون مـن ألف مليـون مليـون خليـة تنتظمها أنسـجة متخصصـة، وينتظـم كل مجموعة من هذه الأنسـجة أعضـاء معينة لكل منهـا وظيفتـه المحددة، والكل يتعـاون في خدمة هذا الكيـان الحي في نظام غاية في التعقيد والإعجاز.

وجسـم الإنسـان يسـتهلك من خلايـاه حوالـي 125 مليـون خلية في الثانيـة الواحـدة تنهدم ويتكون غيرها في الحال... والإنسـان فوق ذلك كله كيان روحي عاقل يفكر ويدرك ويشعر ويحس ويستخلص.

الكـــون:

أمـا الكـون فهو مجمـوع الموجـودات الكائنة ومـا يرتبط بهـا من قوى وعمليـات متباينـة في المكان والزمان، ولما كان ذلك يشـمل فيما يشـمل، كل المعارف الإنسـانية المختلفة، خرج الناس عن هذا المفهوم الواسع إلى مدلـول أكثـر تحديـدًا، يقتصر على ذلك النظام الشـامل للأجرام السـماوية المـدرك منهـا حسـيًّا، وغيـر المـدرك... أشـكالها وأحجامهـا... مادتهـا وصفاتها... أبعادهـا، وقوى الترابط بينها... بناؤها والهيئات المختلفة التي تنتظمها... وفوق ذلك كله أصلها وعمرها... ماضيها ومصيرها.

وفي ذلك تنقسم الدراسات الكونية إلى قسمين رئيسيين هما:



- علم الكون.
- وعلم أصل الكون.

ولاشك أن التفكير في الكون قد شغل الإنسان منذ أن تفتحت عليه عيناه، ولكن لم يدوَّن من هذا التفكير إلا النزر اليسير، ولم يصلنا من ذلك إلا أقل القليل.

ولاشك أن الأفكار الإنسانية الأولى التي وصلتنا عن الكون مليئة بالخرافات والأساطير التي اختلطت بمعتقدات قديمة مختلفة، ولو أنها لا تخلو من محاولات علمية منهجية لتفسير بعض الظواهر الكونية.

فقد سجل التاريخ أن الحضارة البابلية فيما بين النهرين، والحضارة الفرعونية في مصر القديمة، قد اهتمتا برصد حركات الأجرام السماوية، واستخدام العمليات الرياضية لمعرفة الروابط بينها، وبالفعل فإنهم قد توصلوا إلى بعض المعلومات الدقيقة عن الشمس ومجراها، وعن مراحل القمر المختلفة، وعن ظهور واختفاء بعض الكواكب بصورة دورية... وإن كان قد صاحب هذه الملاحظات بعض التفسيرات الموغلة في الخرافات والأساطير.

وكان الإنسان في الماضي غير البعيد يعتقد أن الأرض هي مركز الكون، ومناط الأهمية فيه، وأن كل ما حولها يدور في فلكها كتابع لها... ولكن تطور المعرفة الإنسانية قد أثبت أن هذه الأرض ما هي إلا هباءة منثورة في الفضاء الكوني الشاسع الذي ينتظمه بناء محكم دقيق... والكون مذهل في اتساعه، مذهل في دقة بنائه، وفي وحدة هذا البناء.. وهو يشمل أرضنا وشمسنا وقمرنا، وغير ذلك من الكواكب،

والكويكبات والأقمار والشـهب والنيازك والنجوم، ما ندرك منها وما لا ندرك، مما يتسع له الفضاء الكوني، ولا يعلم له الإنسان حدودًا.

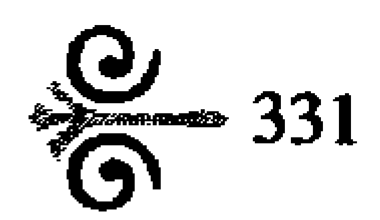
ولمـا كانت معظم معلوماتنا عن الكون مسـتمدة أساسًـا من معرفتنا بـالأرض ومادتها، كان مـن الضروري أن نعرض لـلأرض قبل أن نتابع استعراضنا للكون.

الأرض:

فكوكـب (الأرض) الـذي نعيش عليه شـبه كرة من الصخـر معلقة في الفضاء يبلغ متوسط قطرها 12.740 كيلو متر ومتوسط محيطها 40.042 كيلو متر، ومساحة سطحها 510 ملايين كيلو متر مربع، وحجمها أكثر من مليون مليون كيلو متر مكعب، وكتلتها بما يعادل 6600 مليون مليون مليون طن.

ويغطّى ثلاثة أرباع سـطح الأرض بغلالة مائية يبلغ متوسـط سمكها أربعـة كيلـو متـرات تقريبًا، ويحيـط بالأرض غـلاف هوائي لـه تركيب كيميائي محدد يقدر سمكه بحوالي 1000 كيلومتر وإن كان لا يكاد يحس فوق ارتفاع 40 كيلومترًا من سطحها.

ويحيـا علـى الأرض وفـي مياههـا وتحت هوائهـا من صـور الحياة الحيوانية والنباتية ملايين الملايين من الأحياء ينتظمها حوالي 41 مليون نـوع مـن أنـواع الحيـاة النباتيـة، ونحـو مليـون نـوع مـن أنـواع الحيـاة الحيوانيـة، تنتظمها أجناس محـددة، وعائلات، ورتب وطوائف وقبائل وممالـك، والمادة بيـن الأرض ومائها وهوائها وصـور الحياة عليها في حركة مستمرة لا تتوقف ولا تنقطع.



والأرض ثالثة الكواكب السيارة قربًا من الشمس، ويبلغ متوسط بعدها عنها حوالي 150 مليون كيلو متر، وهي تدور حول الشمس في فلك شبه دائري (إهليلجي) قليل الاستطالة بسرعة مقدارها 29.6 كم/ الثانية، لتتم دورتها هذه في سنة شمسية مقدارها: 16 ثانية و9 دقائق و6 ساعات و365 يومًا.

كما تلف الأرض حول نفسها بسرعة مقدارها 27.8كم/ الدقيقة، يتقاسمه ليل ونهار بتفاوت يزيد وينقص حسب الفصول بسبب ميول محور الأرض عن مستوى مدارها حول الشمس بزاوية مقدارها 30 : 53°.

والأرض كوكب كروي الشكل تقريبًا، ولكن القوة الطاردة المركزية الناتجة عن دوران الأرض قد أدت إلى انبعاجها قليلاً عند خط الاستواء وانبساطها قليلاً عند النقطتين، خاصة القطب الشمالي.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ﴾ (الرعد: 41).

وسطح الأرض ليس تام الاستواء؛ وذلك لأن الصخور المكونة للقشرة الأرضية تختلف كثافتها باختلاف أنواعها وأماكن وجودها.

ولذلك كان من الضروري وجود انبعاجات في القشرة الأرضية؛ حيث تتكون تلك القشرة من صخور خفيفة نسبيًا، وهذه البروزات في القشرة الأرضية كونت القارات التي تكونت في مقابلها انخفاضات في أماكن أخرى من سطح الأرض، حيث تتكون قشرة الأرض من صخور ثقيلة نسبيًا، وهذه المنخفضات شكّلت قيعان البحار والمحيطات.

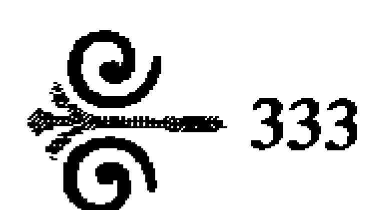
والأرض على ذلك في حالة تعادل معجز، فلولا الجاذبية الأرضية لما تماسكت مكونات الأرض فصارت كرة، ولولا دوران الأرض حول نفسها لما تأثرت بالقوة الطاردة المركزية فأصبحت شبه كرة، ولولا اختلاف كثافة الصخور لما اختلف مستوى سطح شبه الكرة هذه فغارت المحيطات والبحار وارتفعت القارات والجبال، ولولا حركة دائبة في داخل القشرة الأرضية - تعوض أي نقص تتعرض له الكرة الأرضية في أية نقطة من نقاط سطحها بفعل عوامل التعرية من رياح ومياه جارية وغيرهما بحيث أصبح وزن العمود الصخري من مركز الأرض إلى أي نقطة على سطحها (سواء أكانت قمة من أعلى قمم الجبال أم غورًا من أعمق الأغوار) متساويًا تمامًا - لطردت الأوزان الزائدة بفعل القوة الطاردة المركزية، ولما أمكن لكائن أن يحيا على هذه الأرض.

المجموعة الشمسية:

والأرض هي أحد كواكب تسعة تدور حول الشمس مكونة مجموعتنا الشمسية على هيئة حشد من الأجرام السماوية، يتوسطه نجم حار متوهج مضيء ذاته، وهي الشمس تدور حولها هذه الكواكب التسعة:

(عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، أورانوس، نبتون، وبلوتو) بالإضافة إلى كويكبات وأقمار ومذنبات وشهب.

والشمس بقوة جاذبيتها تهيمن على حركة هذه الكواكب حولها، وهي بما تشعه من طاقة مصدر الحرارة والنور على أسطح الكواكب المحيطة بها.



فالشمس تضيء إضاءة ذاتية بسبب نشاطها النووي، أما الكواكب فتضيء نتيجة لانعكاس ضوء الشمس عليها، ولولا الشمس وما تشعه من طاقة لاستحالت الحياة التي نعرفها على سطح الأرض.

وتتراوح المسافة بين الشمس والكواكب السيارة حولها بين 58 مليونًا و6000 مليون كيلومتر، وتختلف الظروف الطبيعية على الكواكب المختلفة في مجموعتنا الشمسية تبعًا لبعدها أو قربها من الشمس، وتبعًا لحجمها، وبالتالي حجم الغلاف الغازي المحيط بها، ولما كانت هذه الظروف مختلفة تمامًا عن الظروف الطبيعية على أرضنا، فليس لدينا دليل مادي على وجود حياة من النوع المعروف لدينا في الكواكب الأخرى.

والكواكب تدور حول الشمس في أفلاك شبه دائرية في الاتجاه نفسه، وفي مساراتها هذه تختلف المسافة بين كل كوكب والشمس، كما تختلف سرعة سير الكوكب الواحد باختلاف هذه المسافة، فكل منها تصل سرعته أقصاها وهو أقرب ما يكون من الشمس، وتقل بالتدريج بابتعاده عنها، وإن حركات الكواكب هذه يحكمها توازن محكم بين قوتين متضادتين، هما قوة جذب الشمس للكوكب، والقوة الطاردة المركزية الناشئة عن دوران الكوكب حول الشمس، والتي تدفعه إلى السير في خط مستقيم بعيدًا عن الشمس، وهذا التعادل الدقيق بين هاتين القوتين، هو الذي يمكّن الكواكب من أن تبقى في أفلاكها الثابتة، ويحفظها من أن تنطلق في الفضاء مبتعدة عن الشمس إلى غير رجعة، أو أن تسقط هاوية في سعير الشمس الملتهبة.

والكواكب في الوقت نفسه تتجاذب فيما بينها تجاذبًا صغيرًا بالنسبة إلى جذب الشمس لها، فتحتفظ بذلك بأبعادها الثابتة فيما بينها.

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس: 40).

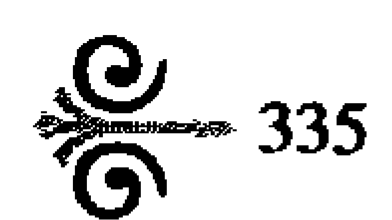
والنهـار والليل يتعاقبان على كل من هـذه الكواكب في مدد متفاوتة حسـب حجمها وسـرعة دوران كل منهـا حول محورهـا، وعلى كوكبنا الأرض بسـبب هذا الدوران حول المحور والحركة الظاهرية للشـمس والقمـر والنجوم عبر السـماء، وسـنة كل مـن هذه الكواكـب هي المدة التـي يسـتغرقها لكي يتـم دورة واحدة حول الشـمس، وتتابـع الفصول على أرضنا نتيجة لميل محور الأرض في دورانها حول الشمس.

الشمـــس:

أمـا شمسـنا فهي النجـم الوحيد فـي مجموعتنا الشمسـية، والنجوم التي نراها في السماء هي في الحقيقة شموس بعيدة عنا.

وشمسنا نجم متواضع من نجوم السماء يبلغ متوسط قطرها حوالي: 1.393.400 كيلـو متـر، وتبلـغ كتلتهـا حوالـي ألفـي مليون مليـون مليون مليـون طـن أي 335 ألف مـرة قدر كتلـة الأرض، ويبلغ متوسـط كثافتها حوالي 1.5 مرة كثافة الماء أي ربع كثافة الأرض تقريبًا.

ونظـرًا للجاذبية الهائلة التي تحدثها الشـمس على ذاتهـا فإن جزيئاتها تتجـاذب كلها فـي اتجاه مركزهـا تجاذبًا تتسـبب عنه ضغـوط هائلة ترفع درجـة حرارتهـا بصـورة مذهلـة، وعلـى ذلك فـإن حجم وكتلة الشـمس الهائلين لا يمكّنان مادتها إلا أن تكون في حالة شبه غازية ملتهبة متوهجة؛ لأن الزيادة في كمية مادة الجسم تؤدي إلى تغير تام في سلوكها.



وعلـى ذلـك فإن السـبب فـي إضاءة أي جـرم سـماوي (كما يضيء النجـم) هو مجـرد تكونه من كتلة وحجم معينين، مما يؤدي إلى نشـاط عمليـة الاندماج النووي، فتنتج طاقة نوويـة تجعل النجم يضيء لآلاف الملايين من السنين.

وتبلـغ درجـة حـرارة السـطح الخارجي للشـمس سـتة آلاف درجة مئويـة تقريبًـا، بينما تتزايد في اتجـاه مركزها إلى حوالي عشـرين مليون درجة مئوية، وبالتحليل الطيفي لأشـعة الشمس تبين أن الشمس تحتوي علـى نفـس العناصر التي تتكون منها الأرض ولكن بنسـبة متفاوتة كثيرًا حيـث الهيدروجيـن معظم كتلة الشـمس، والشـمس في تمدد مسـتمر، ولولا ذلك لانفجرت كقنبلة هيدروجينية هائلة.

والشمس تشـع أضواءها في الفضاء المتسـع منذ نشأتها، وهي تفقد مـن طاقتها في الثانية الواحـدة ما يعادل خمسـمائة وثمانية آلاف مليون مليون قوة حصان.

ولما كان للطاقة كتلة، فإن الشـمس تفقد من كتلتها ما يعادل خمسـة ملايين من الأطنان في كل ثانية، وعلى ذلك فقد حسـب أنه بعد خمسـة آلاف مليـون سـنة من الآن، سـتتوهج الشـمس أكثر من ذلـك ألف مرة ويـزداد حجمها مائة مرة، ثم بعد 15 ألف مليون سـنة من الآن سـتتحول الشـمس إلى ما يعـرف بالنجوم البيضاء القزمـة، وحينئذ تنطفئ جذوتها ويخبو نورها.

هـذا بالطبـع إذا اسـتمرت الأمـور فـي إطارهـا العـادي دون طارئ خارجي يتدخل من إرادة عظمى تهيمن على هذا الكون وتسيره.

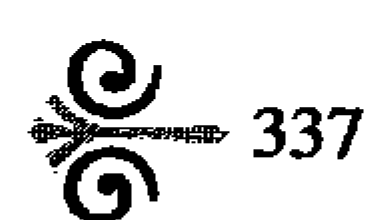
القمـــــر:

أمـا القمـر فهو تابع صغير للأرض يبلغ متوسـط بعـده عنها 380 ألف كيلومتـر، وهـو يدور حول الأرض في فلك شـبه دائري تتراوح مسـافته بين 356 ألفًا و407 آلاف كيلومتر، ويسـتغرق القمر نفس المدة الزمنية في دورانـه حول محوره ليدور دورة كاملة حـول الأرض في 27 يومًا وثلثي يوم. ويبلغ قطر القمر 3476 كيلومترًا، أي حوالي ربع قطر الأرض تقريبًا، وتبلغ مسـاحة سـطحه 38 مليون كيلومتر مربع، أى أقل بكثير من مساحة القارة الآسـيوية، ويبلغ متوسـط كثافـة القمر 3.36جم/ سـم^3، بينما يبلغ متوسط كثافة الأرض 5.5 جم/ سم^3.

ولمـا كانـت كثافـة كل منهما مختلفـة، يمكننا الاسـتنتاج بـأن هناك اختلافًا في التركيب الكيميائي لكل من القمر والأرض.

وقـد دلـت الدراسـات على العينات التي جمعهـا كل مـن رحلتي أبوللـو 11 و12 على أن صخور بحر الهدوء وترابه تختلف بعض الشـيء عـن الأرض بصفة عامة، وهي تشـبه مـادة النيازك الفضائيـة والصخور البازلتية المندفعة من جوف الأرض بفعل البراكين.

والعينـات القمرية تحتـوي بوجه عام على نفس العناصـر الكيميائية الموجـودة في الصخور الأرضية في النيازك، ولكن باختلاف في نسـب العناصـر والمركبـات، فهـي مثلاً تحتوي على نسـب عاليـة من عناصر الكروم والتيتانيوم واليوثريوم والزركومنيوم قد تصل إلى عشرة أضعاف وجودها في الأرض، وإن كان ذلك يؤيد صلة القمر بالأرض وبالنيازك، ولكنها تنفي فرضية انفصال القمر عن الأرض. وتشير الصخور القمرية



إلى تعرضها لعمليات انصهار شديدة؛ إما نتيجة للتأثيرات النيزكية الشديدة، وإما لنشاط بركاني في القمر، أو لانهيار تجاذبي لكرة الغاز الأساسية التي تكوَّن منها القمر، أو نتيجة لتأثير حرارة الشمس، أو نتيجة مزيج من هذه المؤثرات جميعًا أو غيرها.

ولكن دراسات الصخور القمرية أكدت بشكل قاطع أن القمر خال من الماء والحياة، ودلت نتائج تحليل العينات القمرية التي جيء بها من بحر الهدوء أن عمر الصخور يبلغ حوالي 3.500 مليون سنة، وعمر الغبار الذي أخذ من سطح القمر 4.600 مليون سنة. وقد أدى ذلك إلى إعادة النظر في الفرضيات الموضوعة لتفسير أصل القمر على أنه منسلخ عن الأرض من حوض المحيط الهادي، أو أنه جرم جاء من مكان قصي، ووقع أسيرًا لجاذبية الأرض، أو أنه نشأ كتوءم أصغر مستقل عن الأرض وقت نشأتها، وهو الرأي المرجح الآن.

ولم يثبت دليل على وجود مادة عضوية في العينات القمرية، ولم يظهر الإنسان أو الحيوان الذي جرى حقنه بتراب القمر أية ردود فعل يمكن أن تشير إلى أي نوع من الحياة على القمر.

وجاذبية القمر هي سدس جاذبية الأرض تقريبًا مما يجعل القمر بدون غلاف غازي تقريبًا، وإذا كان موجودًا فهو لا يتعدى 1/ 1000.000 من ضغط الغلاف الغازي الأرضي على سطح البحر، ولذلك فليس من الممكن إدراكه، ودرجة الحرارة على سطح القمر تتراوح بين 101 درجة مئوية ظهرًا و 153 درجة مئوية بالليل. وأقصى قدر من سطح القمر يتضح لنا على الأرض يبلغ 59 – من مساحته بينما الجزء الظاهر دائمًا يبلغ 41 – فقط.

النجــــــوم:

ومجموعتنا الشمسية هذه هي جزء بسيط جدًّا من الكون، فإن أقرب النجوم إلينا، غير الشمس، يبعد عن الأرض مسافة لا يمكن التعبير عنها بمقاييسـنا الأرضية المألوفة، ولذا حاول العلماء اكتشـاف طريقة أخرى لقياسها فاسـتخدموا لذلك سرعة الضوء، فإن الضوء يستغرق وقتًا لكي ينتقـل إلينا، ولكنا لا ندرك ذلك لأنه يتحرك بسـرعة هائلة تبلغ 300 ألف كيلومتر في الثانية.

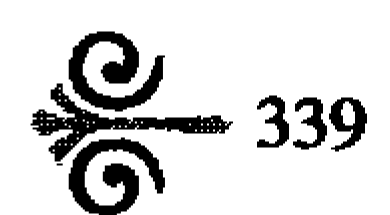
ولذلـك فقـد اختـار العلمـاء السـنة الضوئيـة واعتبروهـا الوحـدة الأساسية في قياس المسافات الكونية.

والسـنة الضوئيـة مقيـاس للمسـافات لا للزمـن، فهـي المسـافة التـي يقطعهـا شـعاع ضوئـي بسـرعة 300 ألـف كيلومتـر فـي الثانيـة في فتـرة مقدارهـا سـنة واحـدة تسـاوي: «$300.000 \times 60 \times 60 \times 24 \times 365 =$ 9.460.800.000.000كم».

وأقرب النجوم إلينا يبعد عن الأرض بهذا المقياس مسـافة 4.4 سـنة ضوئية بينما يبعد عنا النجم القطبي مسافة 400 سنة ضوئية.

وهـذا معناه أنـه عندما ننظر إلى النجم القطبـي فإنا نرى الضوء الذي انبعـث منه منذ 400 سـنة، وفـي هذه اللحظـة التي نحن فيهـا ربما يكون النجـم القطبـي قـد غيَّر مكانـه إلى مكان آخـر، أو ربما يكـون قد انفجر وصار باردًا ومظلمًا، ولكن ذلك لن يدرك إلا بعد 300 سنة أخرى.

ويبلـغ أبعـد النجوم الذي يمكن مشـاهدته بالعين المجـردة عنا نحو مليون سـنة ضوئية، بينما أمكن التعرف بواسـطة أكبر منظار مقرب على نجوم تبعد عنا نحو 20 مليون سنة ضوئية.



وعـدد النجـوم التي يمكـن مشـاهدتها بالعين المجـردة لايزيد على ثلاثـة آلاف نجـم من أية بقعـة على الأرض وفي أي وقـت، بينما يمكن مشـاهدة أكثر من 9000 نجم على مدار السـنة فوق سـطح الأرض كلها، ويمكـن اسـتعمال المناظير المقربة، وآلات التصويـر، وأجهزة التحليل الطيفي، والتلسكوبات الراديووية للتعرف على ملايين النجوم.

وتختلـف النجوم في أحجامها، وفي ألوانها، وفي درجات حرارتها. ويعتقـد العلمـاء أن النجـوم التـي في السـماء تختلف اختلافًـا كبيرًا في أعمارهـا، وأنهـا تمر بـدورة تشـبه دورة الحياة علـى الأرض، فهي تبدأ نجومًـا زرقـاء حـارة ثم تصيـر بيضـاء فصفراء، ثم تسير في آخـر الأمر نجومًـا بـاردة حمـراء، والنجـوم كلها تتحـرك فـي الفضـاء الكوني في اتجاهات ثابتة محددة.

المجـــرة:

وشمسنا نجم متواضع من مجموعة تتألف من ملايين النجوم تعرف باسـم المجرة، والمجـرة التي تتبعها مجموعتنا الشمسـية تعرف باسـم درب اللبانة، وهي عبارة عن حشـد من نجوم يزيد عددها على مائة ألف مليـون نجـم تتحـرك كمجموعـة متماسـكة فـي فلـك محـدد فـي الفضاء الكوني.

ودرب اللبانـة هـذه علـى هيئة قـرص مفرطـح قطره نحو ألف سـنة ضوئيـة، وارتفاعـه نحـو عشـر ذلك، وتقـع مجموعتنـا الشمسـية على بعـد 30 ألـف سـنة ضوئيـة مـن مركزهـا، و20 ألـف سـنة ضوئيـة مـن أقرب أطرافها.

والمجرة كلها تدور كما تدور المجموعة الشمسية، بمعنى أن جميع النجـوم وما حولها من أفـلاك تتحرك في نفس الاتجـاه وحول المركز، ولكـن بسـرعات مختلفة، وفـي مـدارات ثابتة محـددة، فبينمـا تتحرك مجموعتنا الشمسية في فلك شبه دائري بسرعة 140 ميلاً في الثانية، فإنها تستغرق 200 مليون سنة لكي تتم دورة كاملة حول مركز مجرتها.

المجـــرة العظمـــى:

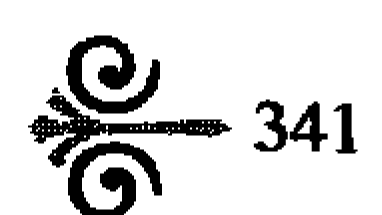
ومجرتنا ذات المائة ألف سـنة ضوئية لا تشمل الكون كله، فقد دلت الدراسـات الحديثـة على أنها جزء مـن قرص أكبر يبلغ قطـره 40 مليون سنة ضوئية، وسمكه بضعة ملايين من السنين الضوئية، ويعرف بالمجرة العظمى أو بالمجموعة المجرية.

وتقـع مجرتنـا بالقـرب من طرف هـذه المجـرة العظمـى التي تضم عشـرات الآلاف من المجرات الأخرى، وأقرب المجرات إلينا في هذه المجموعة المجرية تبعد عنا 750 ألف سنة ضوئية.

فهل هذه المجرة الكبرى هي الكون كله؟

كلا..

فهناك مجـرات عظمى غيرها فـي مجموعات مجرية أكبر، تكشـف الدراسـات كل يوم عن مزيد منها، ويكفي أن نعلم أن بالسـماء من أمثال مجرتنا، (درب اللبانة)، ألف مليون مجرة توجد على هيئة عناقيد ترتبط فيمـا بينهـا بالجاذبية، وتجـري في ركن مـن الفضاء الكونـي قطره 5000 مليون سنة ضوئية.



السـدم:

وهنـاك أيضًـا السـدم التـي تشـبه مجرتنا من حيـث طبيعـة تكوينها، ولكنهـا أكبـر وأوسـع، وأكثـر نجومًا تتفـرق علـى هيئة جـزر كونية في الفضـاء اللانهائـي قـد يصل ضـوء الواحدة منهـا إلـى الأرض بعد مائة بليون سنة ضوئية.

الكــوازار:

وهنـاك الكـوازار، وهـي أجسـام شـبيهة بالنجـوم، تصلنا منهـا أضواء ضعيفة جدًّا، وهي تبدو وكأنها نوع من تجمع المادة لم يسـبق أن عرفه علم الفيزياء وعلم الفلك، وتقدر كتلته بحوالي مائة مليون ضعف كتلة النجم.

اتسـاع الكـون:

والكون بعد ذلك يتسـع باستمرار، والمجرات فيه تتباعد بعضها عن بعـض بسـرعة مذهلـة، وهـي كلمـا بعـدت تتزايد سـرعاتها لكـي تظل محتفظـة بتوازنهـا، والكون في تمـدده يزداد الفضاء بيـن مجراته بحيث يبقى حجم المجرات ثابتًا وعلى ذلك فإن مكاننا المنعزل في هذا الركن مـن الفضاء يزداد عزلة كلما ابتعـد جيراننا عنا ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: 47).

وإذا رجعنا بهذا الاتسـاع مع الزمن إلى الوراء بعملية معاكسـة لسرعة انتشـار المجرات وتشـتتها في الفضاء، يثبت أنها كانت كلها في الماضي البعيـد متقاربة بعضها من بعض، وأن المسـافات بينهـا تقل كلما تقادم بنا

الزمن، حتى نصل إلى الجرم الأول الذي احتوى على كتلة وطاقة الكون المتسع الذي نراه الآن. وليس من السهل تحديد كتلة هذا الجرم الأول وحجمه؛ لأن حجم الكون في وقتنا الحاضر وكتلته غير معروفين تمامًا.

ولكن لما كان من الممكن رصد المادة في الجزء المشاهد لنا من الكون الآن في كتلة ملتئمة، فإن حجمها لن يتجاوز أكثر من ثلاثين مرة حجم الشمس، وبحساب كتلة الجزء المشاهد من الكون توصل العلماء إلى أن السنتيمتر المكعب الواحد من مادة هذا الجسم الأولى كانت تزن ما يقارب من 250 مليون طن، وعلى ذلك فقد كان هذا الجسم الأول الضخم المعقد البناء في حالة غير مستقرة سرعان ما أدت إلى تفككه وأدى إلى نشأة هذا الكون في صورته الحالية.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء: 30).

كيف تشكلت النجوم والكواكب:

ولما كانت مادة هذا الكون كلها واحدة وإن اختلفت نسبها من جرم سماوي إلى آخر، فلماذا يتشكل بعض هذه الأجرام على هيئة أقمار، وبعضها على هيئة كواكب، وبعضها على هيئة نجوم؟

وللإجابة عن ذلك نقول:

إن ما يميز الجرم الفلكي المستقل، عن الأجسام المادية التي يمكن دراستها في المختبر، هو أن الجسم الفلكي متماسك بعضه مع بعض بفعل جاذبيته الخاصة، وقوة الجاذبية يوازنها إجهاد، ولعل الحاجة إلى

توليد هـذا الإجهاد هي التي تقرر حالة المادة، هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى، مثـل تأثير دوران الكوكب والمغناطيسـية والإشـعاع، ففي كتلة مـن الصخـر في حجم القمر توجد المادة في حالة صلبة شـبه خاملة في معظمهـا، أمـا إذا تجمعـت مـادة القمـر فـي كتلة وحجـم يشـبهان كتلة وحجم الأرض، فإن قلبًا مركزيًا سـائلاً (كما يعتقد الآن غالبية العلماء) يتكون لها. ونتيجة للحركة في هذا القلب السـائل، يتولد للأرض مجال مغناطيسـي، وتشـكل قشـرته على هيئة قارات مرتفعة، وجبال شـاهقة، وقيعـان محيطـات منخفضة غائرة، ويسـتطيع بفعل جاذبيتـه أن يحتفظ بغِـلاف هوائـي، وبغِـلاف مائي، بمعنـى أن السـلوك الفيزيائـي للمادة، يمكن أن يعتمد على مجرد كميتها.

أمـا إذا كانت كتلة الجرم الفلكي أكبر من حد معين (بضعة أجزاء من المائة من كتلة الشـمس)، فلا يمكن لهذا الجسـم أن يكون كوكبًا، ذلك لأنـه كـي تصبح مـادة بهذا المقدار في حالـة كثيفة ثابتـة، لا بد أن تكون جميعهـا فـي حالـة غازية، ولا يتمكن جسـم غـازي من الاسـتمرار في توليـد ضغط مركزي كبير، إلا إذا كان حـارًا جدًا في منطقة المركز، وإذا كان المركـز حارًا جـدًا فإن الطاقة يجب أن تتسـرب إلـى خارجه، ولذا يكون الجسـم مضيئًـا، وتكـون نتيجته نجمًـا، وبذلك يتضـح أن مجرد الزيادة في كمية مادة الجسم يؤدي إلى تغير تام في سلوكها، وأن السبب فـي إضـاءة أي نجـم من نجوم السـماء، هـو مجـرد أنه مكون مـن كتلة وحجـم معينيـن، يمكنانه مـن عملية الاندمـاج النووي، وتوليـد الطاقة الحراريـة النووية، فمصدر الطاقة في نجوم الكون هو نواة الذرة، ويبدو لأسباب عديدة أنه لا يمكن أن يوجد أي شيء شبيه بالنجم العادي، وله كتلة تزيد على حوالي مائة ضعف كتلة الشمس.

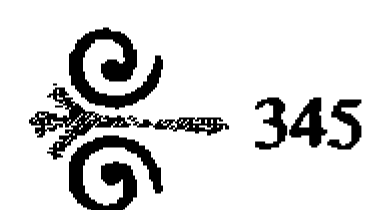
وبالسماء ما يعرف باسـم النجوم البيضاء القزمة، ومادتها ذات كثافة هائلة، ويعتقد أنه دور الشيخوخة في حياة النجم العادي، وفي مادة هذه النجـوم القزمة، يعتقـد أن الإلكترونات في حالة انحـلال بمفهوم نظرية الكـم، وحتى بمفهوم النظرية النسبية في بعض الحـالات، وهناك أيضًا حد أعلى لكتلة النجم التي تكون في وضع اتزان ميكانيكي في مثل هذه الحالات.

وحدة النظام في بناء الذرة والمجموعة الشمسية:

ثـم يرتـد بنا البصر مرة أخرى إلى كوكبنا الأرض، فنجد أنه شـبه كرة مـن الصخر ذات قلب مركزي سـائل (كما يعتقـد الآن غالبية العلماء)، وقشـرة صخريـة صلبـة متغضنـة، علـى هيئـة قـارات، صخورهـا قليلة الكثافة نسبيًا.

وسمك القشرة الأرضية لا يسهل تقديره لعدم وضوح الحد الفاصل بينهـا وبين جوف الأرض، فقـد اختلف العلماء في تقديـره بين 25 و100 كيلـو متـر، وعلى ذلك فهـو يقدر فـي المتوسـط بحوالـي 60 كيلومترًا، وتتكون هذه القشـرة الأرضية من ثلاثة أنواع رئيسية من الصخور، أولها وأصلهـا كلها هـي الصخور النارية المتكونة عن تجمـد صهارة معدنية، وهي بتفتتها وترسـيب الفتـات تتكون الصخور الرسـوبية، وبتحولها أو تحول فتاتها تتكون الصخور المتحولة.

والصخـور مهما تباينت أنواعها تتكون أساسًـا من المعادن، ومعادن الأرض عديـدة متباينـة فـي صفاتهـا وخصائصهـا، منهـا الفلزيـة وغير الفلزية، ومنها النفيسة والرخيصة وما هو بين ذلك.



وتتكـون المعـادن مـن عناصـر أو مـن مركبات مـن هـذه العناصر، وعناصـر الأرض فاقت المائة بقليل، وليسـت المعادن وحدها هي التي تتكون من عناصر، فكل شيء في مادة الأرض، باطنها وقشرتها، هوائها ومائها، حيوانها ونباتها وإنسـانها، كل شيء فيها يتألف من هذه العناصر ومركباتها.

ومـن المركبـات.. البسـيط، ومنها ما هو غايـة في التعقيـد، وأخف العناصر جميعًا، هو غاز الهيدروجين، يتبعه غاز الهيليوم، ثم مادة صلبة هي الليثيوم، وأثقل العناصر التي وجدت في الأرض هى اليورانيوم.

وقـد رتبـت العناصـر وفقًـا لخواصها في جـدول دوري تتـدرج فيه صفاتهـا، كان للهيدروجين (أخف العناصر) الخانة الأولى، واليورانيوم (أثقل العناصر) الخانة الثانية والتسعون.

والعناصـر تتركب من جزيئات، ويتركب الجزيء من ذرات، والذرة تتركـب مـن نـواة في الوسـط، عليها شـحنة كهربيـة موجبـة، وعدد من الإلكترونات تدور حولها في مدارات ثابتة محددة، كما تدور الكواكب السـيارة حـول الشـمس، والإلكترونـات تحمل شـحنة كهربية سـالبة، تعادل شحنة النواة الموجبة، لتحتفظ الذرة بحالة من التعادل.

ولنـواة الـذرة بروتونـات تحمـل الشـحنة الموجبـة، كما قـد توجد أجسـام أخـرى متعادلة، هي النيوترونـات، يعتقد بأنهـا ناتجة عن اتحاد بروتون موجب مع إلكترون سالب، كما قد يتحول النيوترون مرة أخرى إلى بروتون باتحاده بجسم موجب يعرف بالبوريترون، يعادل الإلكترون في كتلته، ولكن شحنته موجبة.

وتبلـغ أجـزاء الذرة من الدقـة أنها تقاس بجزء من عشـرة ملايين من الملليمتر، وتسـمى هذه الوحدة بالأنجسـتروم، كما تقـدر أوزانها بجزء من مليون مليون مليون مليون جزء من الجرام، وعلى سـبيل المثال فإن الجـرام الواحـد من عنصـر اليورانيوم يحتـوي على ألفي مليـون مليون مليون ذرة.

ويبلـغ قطـر الإلكترونـات 1/ 100.000 من قطـر الـذرة، وكتلته بنحو 1/ 1838 من كتلة ذرة الهيدروجين، وقطر الذرة يكبر قطر نواتها بعشـرين ألف مرة، مما يؤكد تشابه الفضاء الكوني بفضاء الذرة.

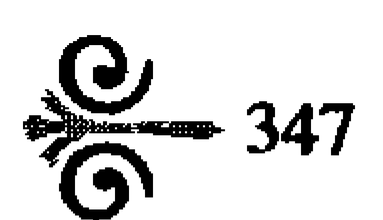
وإذا مسـت نـواة الذرة بشـعاع مـن النيوترونـات فإنها تنقسـم، وإذا انقسـمت النواة انفصمت البروتونات والنيوترونات، وبانفصامها تخرج منها الطاقة هائلة مذهلة.

وفـي الوقـت الـذي تـرد فيـه المـادة إلـى لبنـات ثـلاث: البروتـون والإلكترون والنيوترون، ينادي بعض الفيزيائيين النظريين، بأن البروتون ذاته يتكون من جسيمات أصغر، لم يحددها العلم بعد.

كذلـك نجد الطاقـة بصورها المختلفـة: الضوء والحرارة والأشـعة السـينية والأشعة اللاسـلكية والأشـعة الجيمية، وغيرها من إشعاعات، كلها صور متعددة لقوة واحدة هي القوة المغناطيسية الكهربائية.

وبذلك ترد الطاقة إلى أصل واحد وإن تعددت صورها، وترد المادة إلى لبنات ثلاث، وقد تكون في الأصل كلها واحدة.

وتأتي النظرية النسـبية الخاصـة لتكافؤ بين المـادة والطاقة، وتنادي بأنهما شـيء سـواء، وتصدق التجارب – وفي مقدمتها انفلاق الذرة في



القنبلة اليورانيومية – هذه النظرية، وإذا تساوت المادة والطاقة، لم يبق من خصائص هذا الكون إلا الجاذبية والمكان والزمان، وتحاول النظرية النسبية العامة، أن تربط بين الزمان والمكان، فتجعل منهما شيئًا متواصلًا، كما تحاول نظرية الحقل الواحد، أن تسوي بين الطاقة المغناطيسية الكهربائية وبين الجاذبية.

وفي ذلك يقول أينشتين:

«إن روح العقل النظري لا تحتمل أن يكون في الوجود الواحد شكلان للطاقة لا يلتقيان، شكل للجاذبية القياسية، وشكل للمغناطيسية الكهربائية».

وهكذا تتحلل مركبات هذا الكون أجمع، من مادة وطاقة، وزمان ومكان، إلى شيء واحد لا نعرف كنهه، ولكنه يمثل الوحدة العظمى التي تجري في هذا الكون كله.

الرعاية الإلهية للكون:

من كل ما سبق، يتضح بجلاء، أن للكون الذي نعيش فيه وحدة واحدة تنتظمه، ونظامًا معجزًا لا يستطيع العقل البشري أن يحيط به، ولكن هذا النظام تفسره قوانين ثابتة أو سنن دائمة، تؤكد بما لا يرقى إليه شك أن كل شيء في هذا الكون قد خلق بقدر معلوم، ودقة متناهية، وحكمة سابقة:

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر: 49).

﴿ ..... مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ (الملك: 3).

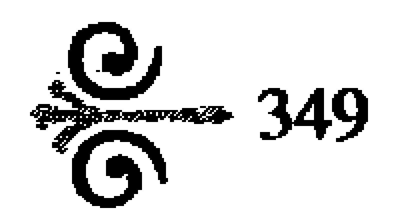
فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الأصل في مادة هذا الكون هو غاز الهيدروجين الذي اتحدت ذراته في درجات حرارة عالية جدًّا، وتحت ضغوط كبيرة، لتكون مختلف العناصر المعروفة، وقد ثبت أن العناصر في مجرتنا - وربما في مادة الكون كله - قد تكونت في الفترة من سبعة آلاف مليون سنة إلى ستة آلاف وخمسمائة مليون سنة مضت، وأن الشمس قد تكثفت على هيئتها الحالية منذ ستة آلاف مليون سنة، وأن الكواكب الابتدائية قد تحولت إلى صورتها الحالية منذ حوالي خمسة آلاف مليون سنة، وأن القشرة الخارجية للأرض قد تكونت بصورة دائمة منذ أربعة آلاف مليون سنة، وأن أقدم أثر للحياة ظهر على الأرض منذ ثلاثة آلاف مليون سنة، وظهرت أول ما ظهرت الحياة النباتية، وتلتها الحياة الحيوانية، وكلتاهما ظهرت لأول مرة في الماء.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء: 30).

والحياة بمختلف صورها تتكون من خلية واحدة، أو من مضاعفات هذه الخلية، والخلية الحية في بنائها تشبه بناء الذرة التي تكونت منها، وبناء المجموعة الشمسية - التي هي جزء منها - نواة في الوسط تحمل أسرار الحياة، وتتحكم في مختلف الوظائف؛ وجسيمات وسوائل تدور حولها في حركة دائمة لا تتوقف.

فهل هناك وحدة أتم أو أعم أو أشمل من ذلك؟

وتنتظم الخلايا في جسم الكائنات الحية أنسجة متعددة، وتنتظم الأنسجة أجهزة متباينة، وأعضاء مختلفة، يقوم كل منها بخدمة الجسد كله في توافق وتكامل ودقة وإعجاز.



وصور الحياة كلها مبنية على نفس الوتيرة، وعلى نفس النظام، وإن تباينت بساطة وتعقيدًا، ويكفي هنا أن نذكر أن بجسم الإنسان – وهو أرقى المخلوقات – أكثر من ألف مليون مليون خلية، تتجدد منها في كل ثانية 125 مليون خلية في المتوسط ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ (الذاريات: 21).

من هذا كله يتضح أن الكون الفسيح الذي نعيش فيه، لم يكن أزليًا، فقد كانت له في الأصل بداية، وإن كنا لا نعلم على وجه التحديد متى كانت هذه البداية؛ وهو أيضًا ليس بأبدي، فلا بد أن سيكون له في يوم من الأيام نهاية، لأن قوانين الديناميكية الحرارية، والطاقة المتاحة، تؤكد أن الحرارة تنتقل دائمًا من وجود حراري إلى وجود غير حراري، وباستمرار هذه العملية لا بد من أن يأتي وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات فتنتهي العمليات الكيميائية والطبيعية، وبانتهائها تنتهي تلقائيًا الحياة.

وإن هذا الكون المعجز في بنائه، المذهل في اتساعه، الرائع في حركته واتزانه، هذا الاتزان الدقيق الذي لو اختل قيد شعرة في أمر من أموره لانفرط عقد هذا الكون، وانهار كل ما فيه ومن فيه.

ولما كان هذا الكون منذ ملايين السنين يسير على نفس السنن، فإن الذي يصونه مما قد يتعرض له من كوارث هو العناية الإلهية التي نحيا في ظلها وعطفها ورعايتها، والتي لو حجبت عنا طرفة عين أو أقل من ذلك لهلكنا وهلك كل من معنا.

ويكفي أن نشير إلى الحكمة البالغة في أمر كوكبنا الأرض، فلو كانت الأرض ضعف بعدها الحالي عن الشمس لنقصت كمية الحرارة التي تصلها إلى ربع كميتها الحالية، ولقطعت الأرض دورتها حول

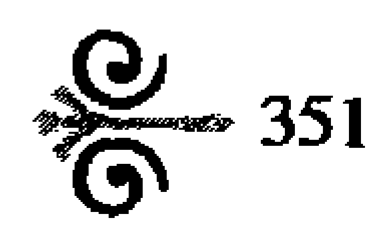
الشمس في وقت أطول، ولتضاعف تبعًا لذلك، طول فصل الشتاء، فتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض؛ ولو اقتربت الأرض من الشمس إلى نصف المسافة التي تفصلهما الآن لبلغت الحرارة التي تتلقاها الأرض من الشمس أربعة أمثال ما تتلقاها منها الآن، مما يحول دون وجود حياة نباتية أو حيوانية، ولتضاعفت سرعة الأرض حول الشمس، ولانعدمت الفصول واستحالت الحياة.

وكذلك لو كانت الأرض في ربع حجمها الحالي لما أمكن لها أن تحتفظ بغِلافيها الجوي والمائي، ولصارت درجة الحرارة على سطحها بالغة حد الموت، وإذا تضاعف حجم الأرض، تضاعفت جاذبيتها للأجسام، وانخفض ارتفاع غلافها الهوائي، وزاد ضغطها، مما يؤثر على صور الحياة، ويحول دون وجود كائنات مفكرة عاقلة كالإنسان.

والغِلاف الغازي المحيط بالأرض، يحميها من ملايين الأطنان من الشهب التي تهبط عليها من الفضاء الخارجي، ويحميها أيضًا من الأشعة الكونية التي لو قدر لها أن تصل إلى الأرض جميعها لأبادت الحياة.

وهذا الغلاف الغازي يحفظ الأرض في درجة مناسبة من الحرارة، وهو الوسط الذي يحمل بخار الماء المتصاعد من البحار والمحيطات، بخارًا ليتكثف منه مطر يسقي الأرض، ويروي النبات والحيوان والإنسان، ولولا هذه الدورة.. دورة المياه لتحولت كل المياه الأرضية إلى ماء عفن آسن في فترة زمنية قصيرة.

وهذا الغِلاف الغازي له تركيب دقيق لو اختل قليلاً لما أمكن للحياة على الأرض أن تزدهر وتستمر، فلو زادت نسبة الأكسجين قليلاً في



الغِلاف الغازي لأمكن لعود ثقاب واحد أن يحرق الأرض وما عليها، ولو قلت نسبة الأكسجين قليلاً لاختنقت الحياة على الأرض.

والماء ذلك السائل المعجز الذي له من الصفات ما يمكنه من إذابة أكبر قدر ممكن من مادة الأرض، وحملها إلى النبات ليحولها بدوره إلى مادة صالحة لغذاء الإنسان والحيوان.

ثم إن هناك كميات كبيرة من الماء متجمدة على القطبين، ولو قدر لهذا الماء المتجمد أن يسيل (وهذا لا يحتاج إلا لبضع درجات قليلة من الحرارة) لارتفع منسوب الماء في البحار والمحيطات، ولأغرقت أغلب مساحات القارات وما عليها من حياة.

ألسنا بعد ذلك كله نحيا في هذا الكون تحت رحمة الله، وفي ظل من عنايته ورعايته، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «**اللهم لا تكلنا لأنفسنا، ولا لأحد من خلقك طرفة عين ولا أقل من ذلك**».

ولا أجد أروع من الدعوة القرآنية، لإمعان النظر في هذا الكون:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ (آل عمران: 190، 191).

جعلنا الله ممن يتفكرون في خلق السموات والأرض فتزداد قلوبهم اطمئنانًا بذكر الله.

والسلام عليكم ورحمة الله

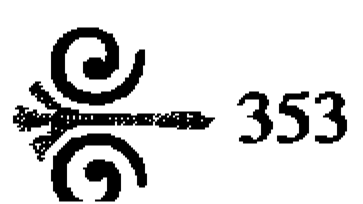
الملحــق الثانــي

جــزء مــن مقالــة للأستــاذ الشيــخ محمــد الغزالــي عنوانهـا: الإنســان في القــرآن

نُشـرت بمجلـة الوعـي الإسـلامي الكويتيـة عـدد 182 - صفر سـنة 1400هـ ديسمبر سنة 1979م.

... وأرى أن ذا القرنيـن عندما سـاوى بين الصدفيـن وذوَّب الحديد والنُّحاس داخل سلسـلة من القلاع التي تحمـي الضعاف وتذود الطغاة - أرى أنـه أحقَّ الحـقَّ، وأبطل الباطل، لا بالـكلام وحده، ولكن بجعل الأرض ومعالمها ومعادنها تؤدي وظيفته، وتحمل طابعه، وكأنها امتداد لنبض قلبه وبطش يده، وهل ملك الله الأرض للإنسان إلا لهذا؟

عندما تعطي خادمك أسباب الزينة والوجاهة، فيجيئك أشعث أغبر، فأنـت تضيق بـه، والعباد الجهلة بالحيـاة، الغرباء في الكون سـوأة زرية وجهـل أو تمرد علـى الخلافة الإنسـانية فـي العالم، ونحن المسـلمين سنحاسـب حسابًا عسيرًا على تخلفنا الفاضح في العلوم الطبيعية. ربما احتـاج الإنسـان كي يصلي إلى مسـاحة مـن الأرض لا تعـدو ذراعًا في



ذراع، ولكنه كي يدفع العدوان عن هذا المسجد الضئيل، يحتاج إلى معرفة تمتد من الأرض إلى المريخ، بل إلى الشمس، معرفة في هذا العصر، تهيمن على ما في الأرض وما فوق الثرى، وتخترق طباق الجو متحسسة آفاقًا بعد آفاق من أغوار الكون البعيدة.

كتب الدكتور فاروق الباز، الخبير في غزو الفضاء، عن حاجة العرب إلى (متنقل فضائيّ) يستعينون به على اكتشاف أرضهم، وما أودع فيها من خيرات، وأهاب بالحكومات العربية أن تموِّل هذا المشروع، قال: (ليس من المستبعد في نظري أن تخطو دولة عربية هذه الخطوة فتحقق ما فيه الخير للعالم العربيّ كله، نحن نعلم أن الصحراء تكوِّن 96٪ من جملة الأراضي العربية ولابد من الانتفاع بجزء كبير من هذه الصحراء، إلى جانب دراستها دراسة علمية صحيحة، فنحن لا نعلم عن الصحراء إلا قليلًا، وربما كان سبب هذا أن علماء الغرب لم يهتموا لقلة الصحاري في بلادهم، ولصعوبة التنقل في صحرائنا الشاسعة..!!

ويلزم العلماء العرب أن يدرسوا الصحراء وتضاريسها وتراكيبها، دراسة تفصيلية؛ لأن البادية منبع كل ما هو عربيّ.. والصحراء تحيط بالعرب من كل ناحية، يتضح هذا لرواد الفضاء في المدار الأرضي وضوحًا تامًّا، حتى إن رواد القمر كانوا يتعجبون لظهور الصحراء العربية في صورهم الملتقطة كتلة واحدة على بعد أربعة ملايين كيلو متر ^{2}.

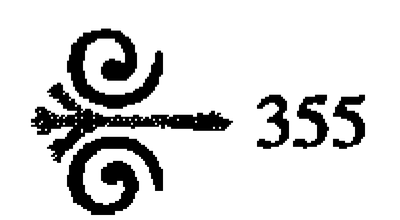
قال: (وتعتبر الصحراء خزَّانًا عظيم الشأن للنِّفط وللمياه الجوفية، ويصلح بعض أجزائها للزراعة المثمرة، وأهم من ذلك كله أن الصحراء خزَّان عظيم لطاقة لا نهاية لها هي الطاقة الشمسية، ولذلك يجب أن

تشمل دراسة الصحراء العربية تحديد أصلح الأماكن لأبحاث الطاقة الشمسية، وطرق الإفادة منها، ومن الناحية الاجتماعية يجب أن تشمل الدراسة التعرف على الأماكن المختارة لمعيشة الإنسان، وإنشاء المدن الكبيرة والصغيرة، وطرق المواصلات ومنتجعات السياحة والترفيه، وتحديد بنية الخضرة في الصحراء لاستغلالها، ومعرفة المؤثرات المختلفة على حياة البدو، إلى غير ذلك مما يجعل الصحراء بقاعًا لائقة للعيش الكريم).

قال: (وينجح هذا العمل إذا تمَّ على مستوًى عربيٍّ جماعيٍّ، فالصحراء العربية - برغم ترامي أطرافها - إقليم واحد، له ميزات ومعالم جغرافية واحدة، ولا صلة لهذه الوحدة بالحدود السياسية الوهمية بين الدول وخطوط الشتات التي مزقت الكيان الواحد).

قال: (وأما المطلوب لدراسة الصحراء على المدار الأرضيِّ فهو - في اعتقادي - قمر صناعيٌّ يرحل إلى الفضاء (المتنقل الفضائي) - الذي سبق للدكتور الباز اقتراحه - ويرجع صوره الملتقطة إلى الأرض رواد الفضاء المختارون، وذلك بيْنَ آونة وأخرى، ويكون هذا القمر عربيًّا في أغلب نواحيه، يختار مكوناته علماء يقومون بتشغيله وتدرس المعلومات المرسلة في عدة معاهد عربية، أو في مركز عربيٍّ موحد تشترك فيه الدول العربية كلها).

قال: (وكنموذج للمكوِّنات التي يجب أن يشتمل عليها القمر الصناعيُّ العربيُّ ينبغي وجود عدة كاميرات، أهمها (كاميرا) للتصوير الطبوغرافي، و(كاميرا) للتصوير الدقيق أي بانورامية، و(كاميرا) لأخذ



الصور المتعددة الأطياف، على نمط أجهزة لاندسات بل أكثر دقة وأقل تعقيدًا. الكاميرات الطبوغرافية تلزم لأخذ الصور المطلوبة لخرائط على مقياس 1:150000 من ارتفاع 180كيلومترًا وطول عدسة هذه الكاميرا هو 305 ملليمترات، ومساحة الصورة الواحدة 23 × 476 سنتيمترًا.. إلخ)، إنني تعمدت هذا النقل ليعلم من يجهل، أن دراسة الكون شيء مثير وخطير، ولا بد منه لدنيانا وديننا معًا. وأن هذه الدراسة برع فيها غيرنا ونبت لديهم جيل من الرواد والباحثين العباقرة على حين تراجعنا نحن وراء وراء.

إن هذا التخلف إذا بقي فسوف تتلاشى عقائد الإيمان بالله واليوم الآخر، وينهزم التوحيد هزيمة نكراء.. وإني لأصرِّح دون مواربة بأن هذا التخلُّف جريمة دينية لا تقل نكرًا عن جرائم الربا والزنا، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، وغير ذلك من الكبائر التي ألفنا الترهيب منها، بل لعلها أشنع وأوخم عقبى.

إن الجو الذي يحيا فيه قارئ القرآن يسع البر والبحر، والسماء والأرض، ويطلق الفكر سابحًا في ملكوت لا نهاية له، ويؤكد للإنسان أنه مَلكٌ يخدمه كل شيء، فما الذي جعل الفكر الدينيّ يعيش في قوقعة؟ إننى أحسُّ فزعًا كبيرًا عندما أرى بعض المتصدرين في العلوم الدينية - هكذا يوصفون - يماري في دوران الأرض، أو ينكر وصول الإنسان إلى القمر! لماذا؟ لأنه يعيش في مغارة سحيقة، صنعها أشخاص قاصرون، لا يتصلون بحقيقة القرآن إلا كما يتصل القرويُّ بعلوم الذرة.

الملحـــق الثالـــث

خاتمــة لكتـــاب جديـــد

اسم الكتاب: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة.

اسم المؤلف: المستشرق موريس بوكاي.

وقـد كتب الكتـاب باللغـة الفرنسـية، وصـدرت الطبعـة الرابعة في سبتمبر سنة 1977م، وتُرجم إلى اللغة الإنجليزية.

ثـم تُرجم إلـى اللغة العربية، وطبعته ونشـرته دار المعـارف بالقاهرة بالتعاون مع دار المعارف بلبنان سنة 1978م.

***

وقد قدم الكتاب دراسة علمية محررة للتوراة والإنجيل والقرآن.

وانتهـى إلـى أن التـوراة تحتـوي على معلومـات تخالـف المعارف الحديثة، ولا تثبت أمام التحقيق العلميّ، وكذلك الأناجيل.

أمـا القـرآن الكريـم فقـد اشـتمل علـى معلومـات عن الكـون وعن الإنسـان وعـن الخلق، وهـذه المعلومات تحتوي علـى حقائق تتفق مع المعـارف الحديثـة، ومـا كان يتسـنى لمخلوق عـاش في القرن السـابع



الميلاديّ أن يأتي بها، فالقرآن ليس من اجتهاد مخلوق ولكنه وحي من عند إله قادر أحاط بكل شيء علمًا.

وفي الكتاب فصل رئيس عنوانه: القرآن والعلم الحديث، تكلم فيه عن الآتي:

1- فاتحة عن الإسلام وعنايته بالعلم.

2- صحة القرآن وتاريخ تحريره.

3- خلق السموات والأرض في القرآن والتوراة.

4- علم الفلك في القرآن.

5- الأرض.

6- عالم النبات وعالم الحيوان.

7- التناسل الإنسانيّ في القرآن.

وفي آخر الكتاب خاتمة عامة وهى التي تراها بين يديك.

خاتمة عامة

في نهاية هذه الدراسة، يبدو واضحًا أن الرأي السائد المتمسَّك به في بلادنا عن نصوص الكتب المقدسة التي في حوزتنا اليوم، لا يستقيم مع الواقع، ولقد رأينا في أيِّ ظروف وفي أيِّ عصور وبأيِّ طريقة جمعت، ونقلت كتابة العناصر التي شكلت العهد القديم والأناجيل والقرآن، ولما كانت الظروف التي سادت ميلاد كتابات كل من التنزيلات الثلاثة قد اختلفت اختلافًا شاسعًا، فقد نجمت عن ذلك نتائج بالغة الأهمية فيما يتعلق بصحة النصوص وببعض جوانب مضامينها.

إن العهد القديم يتكوَّن من مجموعة من المؤلفات الأدبية، أُنتجت على مدى تسعة قرون تقريبًا، وهو يشكِّل مجموعة متنافرة جدًّا من النصوص عدَّل البشر من عناصرها عبر السنين، وقد أضيفت أجزاء لأجزاء أخرى كانت موجودة من قبل، بحيث إن التعرف على مصادر هذه النصوص اليوم عسير جدًّا في بعض الأحيان.

لقد كان هدف الأناجيل هو تعريف البشر، عبر سرد أفعال وأقوال المسيح، بالتعاليم التي أراد أن يتركها لهم عند اكتمال رسالته على الأرض، والسيئ هو أن الأناجيل لم تكتب بأقلام شهود معاينين للأمور التي أخبروا بها، إنها ببساطة تعبير المتحدثين باسم الطوائف اليهودية المسيحية المختلفة عما احتفظت به هذه الطوائف من معلومات عن حياة المسيح العامة، وذلك في شكل أقوال متوارثة شفهية أو مكتوبة اختفت اليوم بعد أن احتلت دورًا وسطًا بين التراث الشفهيِّ والنصوص النهائية.

على ضوء هذا يجب أن ننظر اليوم إلى الكتابات اليهودية - المسيحية، وإذا أردنا أن نكون موضوعيين فعلينا أن نتخلى عن المفاهيم التفسيرية الكلاسيكية.

لقد كانت النتيجة الحتمية لتعدد المصادر هي التناقضات والتعارضات التي أعطينا عليها أمثلة عديدة. ولما كان لكتاب الأناجيل، إزاء المسيح، الميول نفسها إلى تفخيم بعض الأمور مثل كُتَّاب الأدب الملحميِّ في القرون الوسطى إزاء الملاحم الغنائية البطولية، فإن ناتج هذا هو أن الأحداث مقدَّمة بشكل خاص عند كل راوٍ، ولذلك تبدو



صحة الأمور المخبر بها في عديد من الحالات مشكوكًا فيها بشكل شديد، وفي هذه الظروف فإن بُعد المقولات من الكتابات اليهودية المسيحية التي قد يكون لها علاقة ما بالمعارف الحديثة يجب أن تُدرس بالتحفظ الذي يفرضه المظهر الجدليُّ لصحتها.

إن التناقضات والأمور غير المعقولة والتعارضات مع معطيات العلم الحديث تتضح تمامًا وظيفيًّا مع كل ما سبق، ولكن دهشة المسيحيين تعظم حقًّا عندما يدركون كل هذا، فقد كان الجهد عميقًا ومستمرًّا ذلك الذي قام به كثير من المعلقين الرسميين حتى ذلك الوقت لإخفاء ما يتضح للعين المجردة بفضل الدراسات الحديثة، ذلك الذي أخفاه هؤلاء المعلقون تحت بهلوانيات جدلية حاذقة غارقة في الرومانسية المديحية، ولقد أعطينا أمثلة تشي بهذه الحالة العقلية خاصة فيما يتعلق بنسب المسيح في إنجيلي متى ولوقا المتناقضين والمرفوضين علميًّا، ولقد جذب إنجيل يوحنا الانتباه بوجه خاص لاختلافاته الهامة جدًّا عن الأناجيل الثلاثة الأخرى، خاصة فيما يتعلق بالثغرة التي كانت مجهولة بتأسيس تناول القربان المقدس.

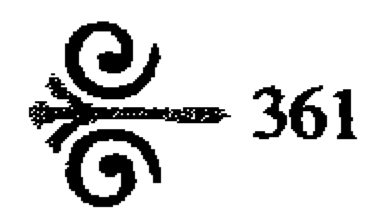
إن لتنزيل القرآن تاريخًا يختلف تمامًا عن تاريخ العهد القديم والأناجيل، فتنزيله يمتدُّ على مدى عشرين عامًا تقريبًا، وبمجرد نزول جبريل به على النبيّ ﷺ كان المؤمنون يحفظونه عن ظهر قلب بل قد سُجِّل كتابة حتى في حياة محمد ﷺ. إن التجميعات الأخيرة للقرآن التي تمت في خلافة عثمان، فيما بين اثني عشر عامًا وأربعة وعشرين عامًا من بعد وفاة النبى ﷺ - قد أفيدت من الرقابة التي مارسها هؤلاء

الذين كانوا يعرفون النص حفظًا، بعد أن تعلموه في زمن التنزيل نفسه، وتلوه دائمًا فيما بعد، ومعروف أن النص منذ ذلك العصر قد ظل محفوظًا بشكل دقيق. إن القرآن لا يطرح مشاكل تتعلق بالصحة.

إن القرآن- وقد استأنف التنزيلين اللذين سبقاه- لا يخلو فقط من متناقضات الرواية وهي السمة البارزة في مختلف صياغات الأناجيل، بل هو يُظْهِرُ أيضًا - لكل من يشرع في دراسته بموضوعية وعلى ضوء العلوم - طابعه الخاص وهو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة. بل أكثر من ذلك، وكما أثبتنا، يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمي من المستحيل تصور أن إنسانًا في عصر محمد ﷺ قد استطاع أن يؤلفها، وعلى هذا فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التي كانت بلا تفسير صحيح حتى الآن.

إن مقارنة عديد من روايات التوراة مع روايات الموضوعات نفسها في القرآن تبرز الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علميًا ومقولات القرآن التي تتوافق مع المعطيات الحديثة، ولقد رأينا دليلاً على هذا من خلال روايتي الخلق والطوفان. وعلى حين نجد في نص القرآن بالنسبة لتاريخ خروج موسى، معلومة ثمينة تضاف إلى رواية التوراة وتجعل مجموع الروايتين يتفق تمامًا مع معطيات علم الآثار بما يسمح بتحديد عصر موسى، نجد فيما يتعلق بموضوعات أخرى، فروقًا شديدة الأهمية تدحض كل ما قيل ادعاء - ودون أدنى دليل - عن نقل محمد ﷺ للتوراة حتى يعدَّ نص القرآن.

وفي نهاية الأمر فإن الدراسة المقارنة من ناحية بين الدعاوى الخاصة بالعلم، تلك التي يجدها القارئ في مجموعات الأحاديث



التي نُسبت إلى محمد ﷺ والتى يشك في صحتها غالبًا - وإن عكست مع ذلك معتقدات العصر - وبين المعطيات القرآنية ذات الطابع نفسه من ناحية أخرى - توضح بجلاء اختلافًا يسمح باستبعاد فكرة شيوع الأصل بين القرآن والأحاديث.

ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيرًا من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر، وهذا بسبب حالة المعارف في عصر محمد ﷺ. لذا فمن المشروع تمامًا أن يُنظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحي من الله، وأن تعطى له مكانة خاصة جدًّا؛ حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه، وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة في عصرنا تبدو كأنها تتحدى أي تفسير وضعيٍّ.

عقيمة حقًّا المحاولات التي تسعى لإيجاد تفسير للقرآن بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية.

الملحَق الرابع

فقرة عنوانها: أخونا الصغير: (القمر)

عنوان الكتاب الذي نقلت منه: (قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن).

مؤلفه: الشيخ نديم الجسر مفتي طرابلس.

موضوعه: قصة طالب حائر متشكك يسمى (حيران بن الأضعف) يهتدي إلى شيخ جليل يقدم له دروسًا من القرآن الكريم مع الشواهد العلمية، والأدلة العقلية ويثبت له أنه لا تضارب بين العقل والعلم والدين.

***

وقد طُبِعَ الكتاب عدة طبعات ووُزِّع في البلاد العربية والإسلامية، مما يدل على رغبة حقيقية لدى الشباب في المعرفة، وتطلُّع إلى رأي الدين في ضوء المعارف الحديثة، والكتاب حافل بمعلومات قيِّمة، وقد عقد فصولًا متعددة عن الفلسفة وعن الكون، وقدم فقرات اشتملت على أدلة علمية متطورة:

الفقرة الأولى: عن السماء، عنوانها: (المطويات بيمينه).

الفقرة الثانية: عن الأرض، عنوانها: (أُمُّنا الحنون)

الفقرة الثالثة: عن القمر، عنوانها: (أخونا الصغير).

الفقرة الرابعة: عن الماء، عنوانها: (الأنبيق الأعظم).

الفقرة الخامسة: عن الهواء، عنوانها: (هدايا الجيران).

الفقرة السادسة: عن أنظمة الأرض وقوانين الكون، عنوانها: (الفندق الكبير).

وبين يديك الفقرة الثالثة عن القمر.

أخونا الصَّغير (القمر)

الشيخ: وهذا القمر، أخونا الصغير، الحلو الظريف الغرير، الذي ما زلنا نقاربه، حتى كدنا نناكبه، ثم أخذنا نقلقه، وبالصواريخ نرشقه... هذا القمر يا حيران، ماذا عرف الإنسان ذو النفس الطُّلعة من أسراره، واختلاف أطواره، في منازله وأقداره، وظلماته وأنواره...؟

يقول القرآن عن القمر:

- ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ (نوح: 15، 16).

- ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ (الفرقان: 61).

- ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ (فصلت: 37).

- ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (فاطر: 13).

- ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ (إبراهيم: 33).

- ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ ﴾ (الشمس: 1 – 4).

- ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (الأنعام: 96).

- ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ (الرحمن: 5).

- ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (يس: 39).

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (يونس: 5).

هذا بعض ما يقوله القرآن عن القمر، وقد جاء أولئك الذين يعلمون، فكشفوا عما وراء هذه الإشارات من أسرار فعرفوا أن هذا القمر جِرم غير منير بذاته، ولكن يستمد نوره بالانعكاس من الشمس المضيئة بذاتها، ليعكسه بدوره إلى الأرض كما صرَّح القرآن، وعرفوا أنه تابع للأرض، يسايرها ويدور معها، ومثلها من الغرب إلى المشرق، وأن له

دورتيـن: دورة حـول نفسـه، ودورة حـول الأرض، ولكـن حكمـة الله سـبحانه قضت أن يتم الدورتين في وقت واحـد، وأن يبقى متجهًا بأحد وجهيـه إلـى الأرض فـلا نرى وجهـه الثاني أبـدًا، ذلـك أن الأرض تتم دورتها حول نفسـها في يوم كامل، وتتم دورتها حول الشـمس في سـنة كاملة تدور فيها على نفسـها 365 دورة، أما القمر فيتم دورته حول نفسـه وحـول الأرض معًـا في مدة شـهر قمريٍّ واحـد، أي إنه فـي المدة التي يدور بها حول الأرض لا يدور علي نفسـه إلا مرة واحدة يتجه بها دائمًا بوجه واحد نحو أمِّه الأرض لا يولِّيها ظهره أبدًا.

وعرفوا من بدائع صنع الخلاق الحكيم، أن القمر في دورته الشهرية هـذه يقطـع كل يـوم 13 درجـة، ويتأخـر كل يـوم 49 دقيقـة نحو الشـرق ليكشـف لنـا عـن جانبه المنير كشـفًا متدرِّجًا يبـدأ به هلالاً ثم بـدرًا، ثم يرجـع كالعرجـون القديم حتى يختفـي ويطلع بعد 29 يومًا و 8 سـاعات هلالاً جديدًا نعرف به عدد السنين والحساب.

وعرفـوا أيضًـا أن القمر أقرب أجرام السـماء إلـى الأرض، فلا يبعد عنها سوى 240 ألف ميل تقريبًا، وأن كتلته هي جزء من 80 جزءًا من كتلة الأرض.

وعرفـوا أن للكواكب الأخـرى أقمارًا منها الصغيـر الصغير الذي لا يزيـد قطره على بضعة أميـال، ومنها الكبير الكبير الـذي يبلغ قطره 3200 ميـل، ومنهـا السـريع السـريع الـذي يُتـمُّ دورته حـول كوكبه في سـت ساعات، ومنها البطيء البطيء الذي لا يتم دورته إلا في سنتين، وعرفوا أنـه ما من قمر يُتمُّ دورته في شـهر واحـد إلا قمر هذه الأرض التي جعل الله سنتها بفصولها الأربعة اثني عشر شهرًا.

عرفوا كل هذه الأسرار التي أشار إليها القرآن، وأدركوا ما في هذا النظام والإحكام من حكمة ونعمة فقالوا:

لو لم يكن القمر يدور حول نفسه وحول الأرض في آن واحد، ولو لم يكن يقطع في دورته كل يوم 13 درجة ويتأخر نحو 49 دقيقة لما كان يتنقل في منازله المختلفة لنرى وجوهه المتغيرة، ولما كان يتم الدورة في شهر واحد ليستأنف شهرًا جديدًا نعرف به عدد الشهور والسنين والحساب.

ولو كانت المسافة بين القمر والأرض أقلَّ مما هي أو أكثر، أو كان حجمه أكبر مما هو أو أصغر، أو كانت دورته أطول أو أقصر لاختل هذا النظام كله، بل ربما زال القمر كله، لأنه لو قرب من الأرض لزاد جذبه فأصبح المدُّ على الأرض طاغيًا يغمر اليابسة كلها، وإن تزايد هذا القرب جذبته الأرض فوقع عليها ولو بعد عن الأرض - لتعطل عمل المد والجزر بقلة الجذب، وإن زاد البعد جذب القمر كوكبًا آخر إليه وحرمنا من نعمه، ولو كبر حجمه لزادت قوة جذبه، ولو صغر لقلت، ولو كانت دورته مثل دورة بقية التوابع الأقمار قصيرة قصيرة في ساعات، أو طويلة طويلة في سنين لاختل هذا النظام الذي جعل الله لنا به القمر حسبانًا، وعاد شهرنا القمريّ أسبوعًا أو سنتين.

فهل كل هذا النظام والإحكام الذي خصَّ الله به القمر في حركاته المحسوبة ودوراته المكتوبة، ومنازله المقدرة وأقداره المسخرة، وأنواره المكتسبة وأطواره المرتقبة. أثر من آثار المصادفة العمياء يا حيران؟



حيران: سبحان الخلَّاق العظيم! والله إن هذا كلَّه لا يجتمع بالمصادفة ولكني فهمت من كلام الشيخ أنه يوشك أن يكون كالساخر من عمل العلماء الساعين للوصول إلى القمر.

الشيخ: كيف فهمت هذا؟ وكيف تظن بي أني أسخر من العلم والعلماء وأنا أدلك على الله بما قاله العلم والعلماء؟ ولكني إذا كنت ساخرًا فإنما أنا ساخر من أولئك الذين تأخذهم كبرياء العلم، من غير العلماء، فيظنون أن إرسال صاروخ إلى القمر أو إنسان إلى الفلك ضرب من مشاركة الله في كبريائه وجبروته، والتصرف في ملكوته.. وهم لو عقلوا لأدركوا أن الكبرياء لذلك الذي خلق الإنسان فسوَّاه، وبنور العقل هداه، وخلق هذا القمر الذي يشدُّون إليه الرحال، ويعقدون على بلوغه الآمال، ومتى شاء سبحانه شقه ونثره، ومع النجوم بعثره، وطمس أثره.

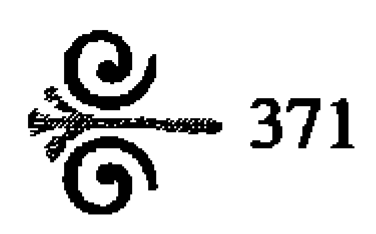
يومئذٍ يعلم هذا الإنسان قدْره وقدَره.

خَاتِمَــــة

هذه محاولة في موضوع تفسير الآيات الكونية.

وهو مقرر جديد في جامعة الإمارات العربية المتحدة، وأحسب أنه لم يُطْرق في الجامعات الأخرى كمادة دراسية مستقلة، وآمل أن يوفقني الله لمعاودة العمل فيه مرة أخرى، وأن يلهمنا الله الصواب والسداد، إنه سميع مجيب، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربِّ العالمين.

الفهـــــرس



من إصـــــــــدارات

الدكتـــور
عبـــد الله شحاتـــــة

- آيـات اللــــه في الكــون.
- هـــذا هـــو الإســـلام.
- نظـرات إسلاميـة في الحـــب والـــزواج والمـــرأة.
- قطـــوف إيمانيـــــة مـــن الآداب الإسلاميـــــــة.
- القـــدس.. التحـــدي الحضـــاري للأمـــة الإسلاميـــة.
- فتـــاوى وآراء.. منهـــج حيـــاة للمجتمـــع المسلـــم.


دار نهضة مصر
للنشر

آيات الله في الكون

« تفسير الآيات الكونية بالقرآن الكريم »

لقد عُني القرآن الكريم بدعوة الناس إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وغيرها من الأمور الغيبية التي لا يتحقق الإيمان إلا بها.

وحث الإنسان على النظر في الكون والتأمل في آياته ونواميسه.. وكأن الله قد أرسل إلينا كتابين: كتابًا مقروءًا مسطورًا وهو القرآن الكريم.. وكتابًا مرئيًّا منظورًا وهو هذا الكون الفسيح الذي يجمع بين جنباته آيات متتاليات متواليات.. آيات لا تنقطع ولا تنفصل.. آيات باهرات ومعجزات.. كلها تحمد وتمجِّد خالقها ليل نهار.

وقد كان من حكمته أن جعل لنا القرآن الكريم مرشدًا ودليلاً لما يستعصي علينا إدراكه وفهمه من آياته الكونية ومِنَحه الربانية؛ لإدراك عظمة هذا الخالق وقدرته.





